فى فلسفة الحضارة

١

الحضارة الإغريقية

دكتور أحمد محمود صبحى
أستاذ الفلسفة المساعد
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

مؤسسة الثقافة الجامعية
٣٥٢٢٤ الاسكندرية

في فلسفة الحضارة

١

الحضارة الإغريقية

دكتور أحمد محمود صبحي
أستاذ الفلسفة المساعد
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

مؤسسة الثقافة الجامعية
ت: ٣٥٢٢١٤ الإسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

« وتلك الأيام نداولها بين النـــاس »

آل عمران : ١٤٠

الاهـــداء

لم أتتلمذ عليك ولكنى تعلمت من كتبك ....

لم التق بك إلا مرة واحدة * منذ قريب ولكنى أفدت من فكرك منذ بعيـــد .

أثريت الفكر الفلسفى فى الجامعة منذ أثرت فى أوساطها حركة فكرية ..

وفرضت الفكر الأصيل العميق على قرائك فى الصحف كل أسبوع ..

وتحليت بسمات العلماء فى تواضعهم حيث يكون التواضع وفى ترفعهم حيث ينبغى الترفع .

واكتسبت محبة تلاميذك بحدبك عليهم واحترام مخالفيك فى الرأى لتقديرك الرأى المخالف .

إلى العالم والفيلسوف والأديب

الى الأستاذ الدكتور

زكى نجيب محمود

المـــؤلف

---

* أشكر أخى وصديق الأستاذ الدكتور محمود فهمى زيدان الذى أتاح لى هذا اللقاء

مقدمة

١

من حق القارىء على الكاتب أن يعرف ما يدور فى ذهنه حين يؤلف كتابه ويطلب من الناس أن يقرأوه ، خاصة وأن كاتب هذه السطور متخصص فى الفلسفة الإسلامية الأمر الذى قد يثير تساؤل القارىء : وما شأنك بالإغريق وحضارتهم ؟ لست أود أن أتجرأ فأتجاوز تخصصى إلى ميادين الآخرين .

منذ أكثر من ربع قرن سألت أحد أساتذى الأجلاء : لقد بدأت مصر حضارتها الحديثة فى زمن معاصر لبداية النهضة الحديثة فى اليابان، فلماذا تقدمت اليابان وتعثرت مصر ؟ ربما لظروف سياسية لم يقدم أستاذى * مع فضله وعلمه إجابة شافية ، ومن الغريب أن أجد نفس هذا السؤال فيما قرأته من بعد قد وجه إلى جمال الدين الأفغانى منذ قرن تقريبا** ، حتى إذا حلت نكسة ١٩٦٧

---

* كنت طالبا بمعهد العلوم الاجتماعية ١٩٥١ وكان المرحوم الاستاذ الدكتور حسين كامل سليم يدرس لنا مادة تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى القرن القرن التاسع عشر وأذكر أنه أجاب لان مصر أحسن حالا من اليابان التى تدفع ثمن رعونة دكتاتوريتها احتلالا أمريكيا عازما حينئذ على القضاء المبرم على الشخصية اليابانية .

** أشار الأفغانى الى عوامل ثلاثة : ١ - عامل جغرافى يتمثل فى انعزال الجزر اليابانية فى أقصى الشرق بينما مصر فى مهب التيارات مما جعلها فى تاريخها فى يتناوب عليهما الغزاة ٢ - عامل سياسى يتمثل فى أن الميكادو لامبراطور اليابان أشد حرصا على مصلحة بلاده من حكام مصر، ويذكر أنه أرسل ابن عمه الى النمسا ليقتبس من النظام الدستورى فلما دهش امبراطور النمسا لذلك اجابه البرنس : لان جلاله الميكادو - وهو لفظ معناه اله ادل يحب أربعة أشياء : بلاده أولا ورعيته ثانيا والعدل ثالثا وراحة نفسه رابعا ٣ - عامل يتعلق بالشخصية الحضارية اذ يحرص المبعوثون اليابانيون الى الدول الأوربية على الاستفادة تماما من خبرة الأوربيين مع شدة الاعتزاز بتراثهم وقوميتهم بينما المبعوثين المصريون لايحرصون الا على تغيير هيئة مسكنهم وملبسهم وفرشهم مستطين على مواطنيهم محتقرين تراثهم !

وهزتنى ، كما هزت من الأعماق كل مصرى ، ألح علىّ هذا السؤال من جديد ، والإنسان فى أمس الحاجة إلى النظر إلى مرآة الزمان إبان عصور القلق والأزمات، ذلك أن لغز الحاضر لا يحل إلا بوعى تاريخى بالماضى ، وعلى حد تعبير كارل ياسبرز: كلما كانت النظرة إلى الماضى أكثر شمولا كان فهم الحاضر أشد عمقا، فكان ذلك ما دفعنى إلى تاليف كتاب « فى فلسفة التاريخ » لأتعرف وأبين عوامل قيام الحضارات وأسباب إزدهارها ، ثم عوامل تعثر ما تعثرت من حضارات وأسباب إنحطاطها من خلال نظريات الفلاسفة ، ومع أنه لا شأن لهؤلاء الفلاسفة بمصر فقد كانت مصر هى التى فى خاطرى ... وما أصبو اليه من هذه الدراسة .

ولكن الكتاب ـ شأنه شأن الفلسفة من ميل إلى التجريد دون التجريب ـ جاء متعلقا بصورة التاريخ دون مادته وبشكله دون مضمونه ، وبمساره دون حضاراته ، ومن ثم كان ينبغى أن يستكمل بذكر أمثلة لحضارات قامت وإزدهرت وشغلت ومازالت تشغل فكر الإنسانية على إختلاف أجناسها لنكتشف سر قيامها ونهضتها ومظاهر إزدهارها ، ولم أجد أبعد تأثيراً فى الإنسانية من حضارات ثلاثة : الإغريقية والإسلامية والغربية الحديثه ، حتى إذا إكتمل ذكر هذه النماذج الثلاثة والله الموفق ، وهى نماذج متنوعة متباينة ، كانت أمامنا النظرية والتطبيق ، أو الصورة والمادة ، لتتيسر الاجابة على السؤال الذى أثير منذ أكثر من قرن والذى مازال قائما : لماذا تتعثر مصر ؟ هذه مشكلة أظنها جديرة أن تكون محور إهتمام المفكرين ، لا أظن يكفيها عبارة عابرة أو حتى مجرد مقالة فضلا عن أنه يجب ان ينأى بها الباحث عن « بروبجندا » الإعلام إلى الفكر الرزين الرصين، ويجب على من يطلب الجواب أن يتحلى بالصبر الجميل وأن ينتظر الزمن الطويل لأن الأمر يقتضي التنقيب في الماضي السحيق وأن نجول عبر آلاف

السنين ، وأن نحلق كالسندباد فى آفاق البلاد فى رحلة بين هذه الحضارات الثلاثة لا للمتعة وإنما للعبرة، ومن ثم يجب ألا تفلت منا إجابة الأسئلة : كيف قامت هذه الحضارة ؟ ما مظاهر إزدهارها ؟ ما خصائصها ؟ هل هى خصائص نوعية أم للحضارات سمات مشتركة ؟ فإن كانت خصائص نوعية فما جدواها لنا ؟ وإن كانت سمات مشتركة فهل يكفى التأثر والاقتباس لننهض كما نهض الآخرون ؟

قد يقال ولكن لماذا حضارة اليونان وتاريخنا القديم هو تاريخ الفراعنة ، هذا صحيح ولكنى أنقب فى أبعد الحضارات أثراً فى الفكر الانسانى خاصة فى الفلسفة ، وهى بلا جدال من بين حضارات العصور القديمه حضارة الاغريق .

وبعد لقد قال هيجل : ان الدرس الوحيد الذى نستفيده من التاريخ هو أن أحداً لم يتعلم من التاريخ ، فهل يخيب ظن هيجل مرة واحدة فنتعلم من التاريخ !

٢

ترجع فلسفة الحضارة إلى عهد حديث نسبيا ، وإن عرفت اللغات المختلفة بما فى ذلك اللغة العربية لفظ « حضارة » منذ زمن بعيد ، واللفظ مشتق من « الحضر » كما أن لفظ مدنية مشتق من المدينة سواء أكان فى اللغة العربية أم فى اللغات الأوربية ، فلفظ Civilisation مشتق من Civitas فى اللاتينية بمعنى المدينة أو من Civis بمعنى ساكن المدينة أو من Civilis بمعنى مدنى أو ما يتعلق بساكن المدينة، حيث تقوم الحياة المتحضرة عادة فى المدن وبين الحضر أى سكان المدن ، وذلك لما يتوفر فى المدن من ثروات وخبرات فى التجارة والصناعه فضلا عن الانجازات البشرية من إختراعات وابتكارات وإنتاج فكرى ، بينما لا تسمح حياة البدو والفلاحين بقيام علاقات متشابكة أو أنماط من الحياه متنوعة تتيح قيام تحضر أو مدنية ، وحتى ان ظهرت بعض مظاهر الحضارة فى القرى فإنها لا تزدهر الا فى المدن .

على أن ذلك لا يعني اطلاقا أن الحضارة يقصد بها نمط راق أو متقدم من الحياة، ومن ثم فإنها وصف مقصور على بعض الشعوب ، فالاستخـــدام العلمي لحضارة الذي يبتعد عن التقييم والمفاضلة بين الشعوب يستبعد تماما المعنى المتداول قديما أو حديثا والذي يميز بين شعوب متحضرة وشعوب غيرمتحضرة أو همجية أو بربرية ، ذلك أنه لكل شعب نصيبا من الحضارة قل أو كثر ، طالما أنه يمارس أسلوب حياة ارتقى به عن حياة الحيوان ، بحيث يمكن القول إن الحضارة صفة الانسان بوجه عام، فالانسان كائن متحضر بمعنى أنه يمارس أسلوبا من الحيـــاة مشتملا على أوجه نشاط فكرى وإجتماعي وإقتصادى وسياسى وديني وفني ، وهذا الأسلوب من الحياة المشتمل على هذه المظاهر غير قائم في حياة الحيوان .

ومع سبق الاشارة الى لفظي « حضارة » و « مدنية » كما لو كانا مترادفين ويعبر عنهما في الانجليزية والفرنسية بلفظ واحد Civilisation فإن بعض الكتاب يميز بينهما فيجعل مدنية ترجمة لفظ Civilisation بينما حضارة ترجمة لفظ Culture ، وذلك أن المدنية في نظر كل من ماكيفر والفرد فيبر أكثر اتصالا بالمظاهر المادية المتصلة بالحياة العملية ، وهذه بدورها وثيقة الصلة بالعلوم الطبيعية والتكنولوجيا بينما تنطوى الحضارة على مظاهر ثقافية ومعنوية ، وتنتشر المدنية عادة في خطوط أفقية أو عرضية تتضح في اقتباسنا للاختراعات الأوربية بينما يغلب على الحضارة الطابع التراكمي Accumulative التاريخي أو الانتقال في خطوط رأسية زمنية طولية ، فنحن نقول عن الصين والهند وفارس ومصر إنها دول ذات حضارات عريقة، اشارة الى الجذور الممتدة في أعماق التاريخ لهذه الدول بينما نحرم دولة أكثر من هذه الدول تقدما في حاضرنا من صفة الحضارة فنقول إنه ليس للشعب الامريكي حضارة وان كان متمدينا أو ذا مدينة ، ونعني بذلك أنه ليس له تاريخ عتد الى أبعد من الكشوف الجغرافية .

على أن التفرقة بين الحضارة والمدينة وإختصاص الحضارة بالجوانب الثقافية والمعنوية بينما تختص المدنية بالجوانب المادية والعملية قد أدى إلى إقتراب لفظ حضارة من لفظ آخر هو الثقافة إلى حد صعوبة التمييز بينهما ، ولقد ذهب بعض الكتاب إلى إستخدامها كمترادفين، فذهب تيلور إلى أن لكل المجتمعات حضارات Culture وأن لكل مجتمع حضارته أو ثقافته الخاصة به بينما ليس لكل مجتمع بالضرورة مدنية لأن الأخيرة تمثل نمطا معينا من التطور .

وإذا رجعنا إلى الاشتقاق اللغوى للفظ cultures فانه مشتق من فن حراثة التربة (١) ، أى أن الثقافة فن تهذيب العقل بعد أن كان اللفظ يتصل بفن تشذيب الأرض أو الزرع ، ومن ثم فإن لفظ culture يفيد طريقة تفكير شعب ما ومجموعة أنظمته ونظرته إلى الحياة والكون .

غير أننا فى غير حاجة إلى تدقيقات الانثروبولوجيين والإجتماعيين فى التفرقة بين حضارة ومدنية أو الإختلاف بين الحضارة والثقافة ، وإنما سيقتصر استخدامنا على لفظ حضارة Civilisation قاصدين بذلك جميع مظاهر النشاط — مادية ومعنوية — لشعب من الشعوب بحيث تبدو أساليب حياته وأنشطته الدينية والفكرية والإجتماعية والإقتصادية والسياسية كنسيج متداخل متفاعل حتى تبدو الحضارة وحدة عضوية متكاملة .

مكانة فلسفة الحضارة بين كل من التاريخ والفلسفة :

إذا تصورنا كلا من التاريخ والفلسفة قطبين متباعدين ، فإن فلسفة الحضارة علم يقع فى المنتصف تماما بينهما ، بينه وبين التاريخ يقع تاريخ الحضارة وبينه وبين الفلسفة تقع فلسفة التاريخ :

---

(١) Art of cultivating the soil

التاريخ ← تاريخ الحضارات ← فلسفة الحضارة ← فلسفة التاريخ ← الفلسفة

دراسة الحضارات توسع نطاق الدراسة التاريخية لما هو أهم من أخبار المعارك وسير الملوك ، إنها دراسة الفكر الإنسانى ممثلا فى شتى مظاهر النشاط البشرى ، وذلك نتيجة إنعكاس الأفكار الديمقراطية حيث نشاط المجموع لا ارادة الفرد هو الذى يحرك أحداث التاريخ، ولقد رضى المؤرخون أخيراً أن يجعلوا الحضارات لا الأفراد موضوع دراستهم واهتمامهم ، وتاريخ الحضارات لا شك يندرج تحت دراسة التاريخ وان بدت عليه بعض ملامح الفلسفة .

أما فلسفة التاريخ التى تشكل الجانب اليسارى من فلسفة الحضارة فإنها لا ترضى المؤرخين لأنها تقدم نظريات فلسفية مسبقة تحاول أن تفرضها على مسار التاريخ، وأن تخضع حوادث التاريخ لها ، ولأن المادة التاريخية المستخدمة لا تسمح فى نظر المؤرخين باستخلاص هذه النظريات، ومن ثم وصف لانجلوا فلسفة التاريخ بأنها بناء برج ايفل بأحجار قليلة .

وفلسفة الحضارة لا تدع للمؤرخين هذه الثغرة للانتقاد اذ تستند الى مادة تاريخية غزيرة فضلا عن أنها لا تتخذ التاريخ العالمى unirevsal history كما هو الحال فى فلسفة التاريخ موضوعا لها ولا تستند الى وحدانية العملية فى تفسير التاريخ كله ما كان منه وما سيكون ، وانما تدرس كل حضاره على حدة متتبعة بمنهج بعدى لا قبلى أسباب قيام الحضارة وعوامل ازدهارها مقتفية مسارها الى أن قعدت عن المسير .

وكما تصل فلسفة الحضارة بين التاريخ والفلسفة وتتوسط بينهما كذلك تصل بين الدراسات الاجتماعية وبخاصة الانثروبولوجيا وبين الفلسفة : تستغـــرق جزئيات العلاقات الاجتماعية الدرسات الاجتماعية حتى تكاد تضيع الملامح العامة

الحضارة وربما تسرف الفلسفة فى التجريد حتى تتجاوز حدود الزمان والمكان فهو فى نظرها تراث للإنسانية جمعاء لا فرق بين كونه إغريقيا أو إسلاميا أو أوربيا . فتتوسط فلسفة الحضارة بين هذين الاتجاهين لا تتوغل فى الجزئيات ولا تسرف فى التحليق فى المجردات .

أود أن ألتمس بذلك لنفسى العذر فيما قد يجده المتخصص فى أى مظهر من مظاهر الحضارة من قصور ، فلست متخصصا فى الفن أو فى التاريخ أو فى المسرح وقد كان ينبغى على أن أعرض لهذه المظاهر من الحضارة ، بل حتى فيما عرضت له من الفلسفة — وهى مجالى تخصصى — لن يجد فيه القارىء بغيته أن أراد أن يتعرف على الفلسفة اليونانية وإنما مجال ذلك الكتب المتخصصة ، أود أن يكون الكتاب كلوحة فنية إن كشف النظر القريب عن معايب فان النظرة الإجمالية من بعيد تكشف عن شىء من التناسب ولا أقول شيئا من الجمال .

٣

قليل من العلم أمر خطير ، ذلك مثل صحيح ، والقلة ليست فى الكم وإنما كذلك فى عدم الاحاطة الكاملة بجوانب الموضوع ، ولطالما درس الطالب الفلسفة اليونانية غير محيط بشىء من حضارة اليونان ، بل لا يكاد يعرف طالب الفلسفة شيئا عن كبار مفكرى اليونان من غير الفلاسفة من أمثال صولون وسوفوكليس وثيوكيديدس ، تلك آفة تؤدى إلى كثير من سوء الفهم والحكم الخاطىء ، من سوء الفهم حين يشرع الطالب فى الدراسة فيظن أن المقصود باليونان تلك الحدود الاقليمية للدولة كما نعرفها الآن ، فلن تخطر له على بال مستعمرات على سواحل آسيا الصغرى أو جنوب ايطاليا أو حتى شمال أفريقيه ، ومن الحكم الخاطىء مثلا حين يلجأ الطالب من حيث يريد أو من حيث لا يريد

الى تعميم الأحكام ، فإن درس فلاسفة كبارا كاكسانوفان وسقراط تجرأوا على أديان اليونان فإنه يظن أن تحرر الفكر في الجرأة على الدين وعلى أى دين من الأديان، لأنه لا يفقه شيئا عن حقيقة أديان اليونان . ولطالما ابتلى الفكر بأنصاف المتعلمين، ودراسة الفلسفة مبتورة عن الحضارة التى أنجبتها من العوامل التى جعلت دراسة الفلسفة مقرونة بالشطط فى الرأى .

إن الحضارة نسيج متكامل متفاعل لا يفهم الجزء الا من خلال الكل ودور هذا الجزء فيه ، لا ينطبق ذلك على الفلسفة اليونانية بالنسبة لحضـــارة الإغريق فحسب ، وانما على أى مظهر آخر من مظاهر الفكر بالنسبة لحضارته ، ذلك منهج ضرورى للفهم السليم ، لا عن تمسك بالمنهج التكاملى — أو النظرية الكليـة — فحسب ، بل إن البدء بدراسة الحضارة قبل دراسة الفلسفة هو المدخل الطبيعى كى يلج الانسان منه الى دراسة الفلسفة ، وما على الانسان أيا كان الا أن يأتى البيوت من أبوابها ، فإن حق لمؤلف كتاب أن يبدى رأيا فيه فإنى أقـول : انه يجدر بطالب الفلسفة أن يقرأ هذا الكتاب قبل تعلم الفلسفة اليونانية كى يحسن فهمها.

واذا كانت هذه الدراسة تهدف أساسا الى البحث عن الاجابة عن الأسئلة المحيرة : كيف تقوم الحضارة ؟ ولم قامت لدى هذا الشعب بالذات فى تلك الحقبة من الزمان ؟ وهل لا بد لكل حضارة من انهيار كأنه أجل محتوم ؟ وأخـــيرا لم تعثرت مصر بالرغم من بدء قيام النهضة الحديثة بها منذ أكثر من قرن ونصف من الزمان بينما تمكنت دول أخرى — على الأخص اليابان ثم الصين من أن تتصدر مسرح الحضارات ؟ اذا كانت هذه الأسئلة هى الدافع الى تأليف هذا الكتاب فإنه كان لا بد أنه تتخلل ثنايا العرض الموضوعى تعليقات وتعقيبات ، فالكتاب نظر لحضارة الاغريق بمنظار مصرى يعيش فى القرن العشرين تؤرقه الأسئلة السابق ذكرها . على أن هذا لا يعنى التضحية بالموضوعية من أجل فكرة مسبقة متسلطة

على المؤلف تلجاه الى مسخ أفكار ومعتقدات وأنظمة الاولين .فتلك آفة أصحاب الأيديولوجيات المتعصبين ، حقيقة لقد قسمت الكتاب الى ثلاثة أبواب رئيسية . نشأة وازدهار وانهيار وذلك يفيد تبنى نظرية التعاقب الدورى للحضارات لدى كل من ابن خلدون وشبنجلر ، وما أبرىء نفسى من تسلط هذه الفكرة على ، فقد كان ذلك مصير عشرين حضارة من احدى وعشرين حسب دراسة توينبي، ومازالت الأخيرة وهى الحضارة الغربية تنتظر المصير ، وربما وجدت فى هذه النظرية مصداقا لقول الله : « وتلك الأيام نداولها بين الناس »ومن ثم فقد وجب أن يتداول مختلف الشعوب أيام الله فلا تستأثر واحدة منها بالتصدر على طول الزمان . لأن القانون الالهى «كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وماكان عطاء ربك محظورا » ومكتوب فى الانجيل : ان شمس الله تشرق على الأشرار والصالحين، فليس لله شعب مختار يؤثره بكل التاريخ، وانما يسرى على الحضارات مايسرى على الانسان ، كذلك كانت حضارة اليونان : طفولة فى مرحلتها العتيقة وشباب فى مرحلتها الكلاسيكية وشيخوخة فى مرحلتها الهلينستية الى أن قدر لها الاحتضار وتوارثتها أمم غيرهم .

وبعد، ان قدر الكتاب أن يكشف النقاب عن بعض الأسئلة الملحة بشأن الحضارات وسقوطها فانه قد يكون استوفى غرضه .

والله ولى التوفيق

الحضـــــــارة الاغريقيه

مدخل

اغريقية (يونانية قديمة) أم هيلينية ؟

يطلق لفظ الإغريق Greeks على مجموعة من القبائل هاجرت فى الألف الثانية ق.م من أواسط آسيا - الهند - واستقروا فى بلاد اليونان وما حولها ، فالإغريق شعب آرى أو هندى - أوربى ، أهم هذه القبائل المهاجرة أربعة : الايوليون والدوريون فى الشمال والآخيون والأيوليون فى الجنوب ، وقد استمرت الحرب بين هذه القبائل حيث كانت القبيلة المهزومة تلجأ إلى الجلاء والهجرة حتى انتهى الأمر بالإيوليين - أهم القبائل - إلى ساحل آسيا الصغرى الذى سمى ايوليه أو الساحل الأيونى ، وقامت عليه عدة مدن : أفسوس وملطية وأزمير ، وإستقر الدوريون فى شبه جزيرة المورة فضلا عن بعض الجزر مثل جزيرة رودس ثم الساحل الجنوبى الغربى لآسيا الصغرى ، وأهم المدن التى أسسوها على البوسفور خلقيدونية على الضفة الشرقية واسطنبول على الضفة الغربية ، هذا وقد رحلت بعض القبائل المغلوبة إلى الغرب وإستعمرت جنوب ايطاليا الذى سمى باليونان الكبرى وكذلك صقلية حتى وصلوا إلى جنوب فرنسا حيث أسسوا مرسيليه .

لفظ « هيلينية » نسبة إلى هيلاس وهى المنطقة التى تفصل بين وسط اليونان وشماله وهى مركز تجمع الاغريق، وفيها جبل « اوليمبيوس » وعليها يسكن آلهة الاغريق وكبيرهم « زيوس » وإلى هيكله يحجون ويبعثون المندوبين فى الأعياد الكبرى لتقديم القرابين وإقامة المهرجانات الرياضية والفنية . فهيلاس مركز الاغريق ورمز وحدتهم بالرغم من تشتتهم وإختلاف أنظمتهم، ولكنها لم تكن مهد الحضارة إذ أنها نشأت بين الأيونيين على سواحل آسيا الصغرى .

يفضل بعض المؤرخين تسمية الحضـــارة الهيلينية على اليونانية ، ويفسر توينبي(١) ذلك بعدة أسباب :

١ — إن لفظ « يونانى » يجعل اللغة أو العامل الجغرافى أهم مقوم للحضارة، بينما كانت هناك شعوب تتكلم اليونانية ولا تنتسب إلى هذه الحضارة ، كما أن الرومان تبنوا فكر الإغريق وحضارتهم وهم ليسوا من الإغريق واللغة اليونانية قائمة إلى اليوم بينما إندثرت الحضارة .

٢ — من الناحية الجغرافية : لم تكن الحضـارة فى بلاد اليونان فحسب بـل كانت منتشرة ـ كما سبقت الاشارة بين سواحل أسيا الصغرى وجنوب ايطـاليا بل إمتدت إلى ساحل إفـريقية الشمالى مثل قورينه * ،هذا إلى أن الحضـــارة لم تنشأ فى بلاد اليونان ذاتها بل على سواحل آسيا الصغرى الغربية .

فإذا قلنا حضارة إغريقية ـ أو يونانية قديمة ـ فيجب ألا نظن أنها حضارة قامت فى بلاد اليونان كما نعرفها الآن ، لأنهـــا من جهة قد نشأت بين القبائل الإيونية القاطنة على سواحل آسيا الصغرى ، ثم لأنها من جهة أخرى إنتشرت وإزدهرت فى مناطق بعيدة عن بلاد اليونان كما نعرفها الآن .

خلاصة القول بأن تسمية هـذه الحضارة بالهيلينية أدق تعبـــيراً وإن كان تسميتها بالإغريقية أو اليونانية أشيع استخداما .

---

(١) ارنولد توينبى وترجمة رمزى جرجس ومراجعة الدكتور محمد صقر خفاجه : تاريخ الحضارة الهيلينية ص ٧ ـ ١٠ .

* اليهـا تنسب المدرسة القورينائية فى الفلسفة وهى بلدة فى ليبيـا تقع على مسـافة ٢٢٠ كم تقريبا شرق بنغازى أو ٢٠ كم شرق « البيضاء » واسمها الحالي « شحات »

هل الحضارة الاغريقية معجزة فريدة بين الحضارات القديمة ؟

يشير كثير من كتاب الغرب ـ مؤرخين وفلاسفة وأدباء ـ إلى الحضارة الإغريقية كما لو كانت حدثا فريدا تتضاءل إلى جانبه ما قدمته حضارات الشرق القديم بأسرها ، يقول كيتو(١) : بينما كانت مدنيات الشرق التى سبقت مدنية الإغريق ذات كفاية بالغة فى الأمور العملية وكانت أحيانا لا تقل فى فنها عن الإغريق الا أنها كانت جدباء من الناحية العقلية ، لقد مارس ملايين الناس الحياة وخبروها قبل الإغريق فماذا فعلوا بها ؟ لا شىء ، لقد ماتت خبرة كل جيل بانتهائه .. إن الإغريق هم الذين ابتكروا الأدب بكل صوره ـ ما عدا القصة ـ وأوصلوه إلى حد الكمال .. إن شعر الملاحم والتاريخ والمسرحية والفلسفة بكل فروعها بما فى ذلك مابعد الطبيعة والاقتصاد والرياضيات وكثير من العلوم الطبيعية كلها تبدأ بالإغريق .

ويقول برتراند راسل (٢) . فى كل التاريخ ليس هناك شىء أكثر باثارة للدهشة بل لم يكن فى الحسبان كالظهور المفاجىء للحضارة فى بلاد اليونان ، إن كثيراً من مقومات الحضارة كان قائما منذ آلاف السنين فى مصر أو بلاد ما بين النهرين ثم إنتشر إلى البلاد المجاورة ، ولكن عناصر ظلت تنقص هذه الحضارات حتى زودها بها الإغريق ، ما ابتكروه فى الفن والأدب شىء عادى أما فى المجال العقلى فشىء غير عادى ، لقد ابتكروا الرياضيات * والعلم ** والفلسفة ، وهم

(١) كيتو وترجمة عبد الرازق يسرى : الاغريق ص ٣ ـ ٤ .

1 B. Russell : History of Western philosophy p. 21

* ابتكروا الهندسة فقط من فروع الرياضيات أما الحساب فيرجع إلى الهند وأما الجبر فيرجع إلى العرب .

** لم يحدد أي علم يقصد .

أول من كتبوا التاريخ لا كمجرد حوليات ، لقد تأملوا بحرية فكر فى طبيعة العالم ونهاية الحياة دون أن يتقيدوا بسلطة موروثة ، إن ماحدث مثير الدهشة وحتى العصر الحديث لازال هناك من يتحدث عن العبقرية اليونانية كما لو كانت معجزة .

ويقول الشاعر شيلى : إن الفترة الواقعة بين مولد بيركليس وموت أرسطو تعد بلا شك أهم فترة فى تاريخ العالم كله ، سواء نظرنا إليها من حيث هى فى ذاتها أم من حيث أثرها فى مصائر الإنسان المتحضر من بعدها (١) .

هذه نماذج للمبالغة التى تصل إلى حد التهويل من شأن الحضارة الإغريقية ، ومرجع ذلك إلى أنها الحضارة الأم بالنسبة للحضارة الغربية الحديثة ، يقول ول ديورانت : اننا لا نكاد نجد شيئاً فى ثقافتنا الدنيوية - اللهم إلا الاتنسا - لسنا مدينين به لليونان ، فالالفاظ الانجليزية الدالة على المدارس والملاعب ، والحساب والهندسة ، والتاريخ والبلاغة ، وعلوم الطبيعة والأحياء والتشريح والصحة وعلم الأدوية ، وفن التجميل ، والشعر والموسيقى ، والمآسى والملاهى ، والفلسفة والدين ، كل هذه الألفاظ يونانية لصور من الثقافة لم ننشئها نحن إنشاء بل إنها نضجت وترعرعت - خيراً كان ذلك أم شراً - بفضل نشاط اليونان العظيم (٢) .

---

(١) ول ديورانت وترجمة محمد بدران : قصة الحضارة مجلد ٢ جز ٢ ص ٦ وأهم فترة فى تاريخ العالم وأبلغها تأثيراً فى الإنسانية هى من القرن الخامس ق.م حتى القرن السابع بعد الميلاد ففيها نشأت الأديان البوذية والزردشتية واليهودية والمسيحية والإسلام .

(٢) المرجع السابق : مقدمة الكتاب ص ٢

لست بصدد تفنيد هذه المبالغات ،إذ ستتضح من خلال هذه الدراسة الدور الحقيق الفكر الإغريقى فى تراث الإنسانية فضلا عن تقييم لهذه الحضارة: ما انجزته وما قصرت فيه عن حضارات معاصرة لها أو سابقة عليها ، أود فقط أن أقرر حقيقتين :

الأولى : أن الحضارة الإغريقية إذ نشأت متأخرة عن حضارات الشرق جميعاً فإنها أفادت منها ، بل إن ظهور هذه الحضارة على سواحل آسيا الصغرى لا فى اليونان نفسها راجع إلى احتكاكها واتصالها بالحضارات الفينيقية - وعنها أخذت اللغة اليونانية أبجديتها - والبابلية - وعنها أفادت علم الفلك - وغيرها من حضارات ظلت تمد الحضارة الإغريقية طوال تاريخها بكثير من عناصر تراثها، فضلا عما كان لرحلات كبار مفكرى الإغريق من أمثال أفلاطون وهيرودوت * إلى مصر وغيرها من أثر كبير فى تشكيل فكرهم ، يقول هيجل(١) : إن الأصول الأولى للحضارة الإغريقية كانت مرتبطة بقدوم الأجانب ، وكان الإغريق يشعرون تجاههم بشيء من الامتنان ، فمن شعوب الشرق تعلموا الزراعة واستخدموا الحديد وصناعة الغزل والنسج واستئناس الخيل ، بل إن كثيراً من مدنهم الهامة قد أسسها أجانب ، فأثينا وهى لفظ غير يونانى قد أسسها مصرى

---

* ممن زار مصر طاليس الذى تعلم فيها الهندسة وأصول النحت وفيثاغورس وديمقريطس وصولون، يقول ول ويورانت تعلمت اليونان فى شبابها من مصر واعترفت لها بالفضل ثم ماتت حضارة اليونان فى احضان مصر على سواحل الاسكندرية فلسفة ودينا مجلد ٢ ط ص ١٣٠ - ١٣١ من كتاب قصة الحضارة ، راجع به ايضا ما افاده اليونانيون من فينيقيه .

(١) Hegel G. W. F. : The philosophy of history transt. by J. Sibree p. 228.

يدعي سيكروبس Cecrops ، وطيبة أسسها كادموس Cadmus وهو فينيقي *

ثانياً : إن كتاب الغرب قد حملوا الإغريق هذا الاستعلاء الفكرى على الحضارات الأخرى المعاصرة لهم وا كثرهم منه براء ، وإن كانو اشاروا إلى الأجانب على أنهم برابره ** ، فلم يكن اللفظ ينطوى فى مفهومه لديهم على ازدراء ، لأنه يندرج تحت الأجانب كثير من القبائل الإغريقية التى لا تنتسب إلى الحضارة الهيلينية ، بل إن بدء استخدام اللفظ يشير الى أن هذه القبائل لم تكن تحسن نطق اللغة اليونانية كما ينطقها أهل هيلاس ، كانوا يتلعثمون فسخر منهم الهيلينيون Bar - bar - ous - كما لسخر عن يتهتهه فسموا برابره ، فلا يشبه التقسيم إلى إغريق وبرابره تقسيم اليهود شعوب العالم الى يهود وهم شعب الله المختار وأميين ، لأن الإغريق لم يشكاوا مجتمعا مغلقا فى أية مرحلة من تاريخ حضارتهم حتى يشعروا بالاستعلاء ، كانوا متفاعلين مع فكر الآخرين بل تقبلوا ديانات غيرهم وقدموا القرابين إلى الآلهة المجهولة أى آلهة الشعوب الأخرى فضلا

* ول رأى آخر انه أحد الامراء المصريين وذلك فى القرن ١٤ ق.م قصة الحضارة مجلد ٢ ط ص ٨٠ ويشير اليونانيون القدماء انفسهم الى أن نشأة كثير منهم كانت على أيدى رجال من أمثال كادموس Cadmus ودانوس Danaus جاءوا من مصر او نقلوا حضارة مصر الى بلاد اليونان عن طريق فينيقية وكريت (١) .

1 - J. M. Cook : The Greeks in Ionia and the East p. 29

** bardara كلمة ترجع الى أصل سنسكريتى واشتقت منها كلمة bulbus اللاتينية وكلتاهما تعنى التمتمة أو التلعثم فى النطق وقد فهم الإغريق عن كلمة barbarous غرابة الحديث اكثر مما فهموا أن اللفظ يدل على تخلف حضارى ، كانوا يقصدون أن الأجانب يتلعثمون فلا يستطيعون نطق لغتهم النطق الصحيح ول ديورانت : قصة الحضارة مجلد ٢ جـ ٢ ص ٣٦ .

عن الدعوة الى الاخوة الإنسانية فى بعض مذاهبهم الفلسفية إبتداء بالفيثاغورية وانتهاء بالرواقية .

أريد أن أقول إن التهويل من شأن الحضارة الإغريقية على حساب سائر الحضارات القديمة إنما هى نزعة عنصرية لدى الاوربيين المحدثين ولم يعرفها اليونانيون القدماء ، حقيقة لقد استهجن افلاطون استرقاق اليونانى لليونانى بينما لم يجد حرجا فى ذلك بالنسبة لغير اليونانى ، وحقيقة جمع أرسطو فى اليونانيين فضائل شعوب الشمال والشرق دون رذائلهم * ، ومع ذلك فقد كان الإغريق اكثر تواضعا من اخلافهم الاوربيين فى معرفة حقيقة أنفسهم .

خلاصة القول لقد ابتكرت الحضارة الإغريقية الفلسفة وفروعها : المنطق وفلسفة الاخلاق** وما بعد الطبيعة ، وعلم النفس ، كما ابتكرت الهندسة فقط من بين فروع الرياضيات ، وعرفت المسرح من فنون الأدب ، واليهم يرجع الفضل فى التأريخ ، هذا ما لا ينكر على الإغريق من فكر أسهموا به فى تراث الإنسانية ، أما سائر مظاهر الفكر ، فيرجع الى الحضارات الأخرى*** .

إن إبداع الفكر الإغريقى ليس معجزة ، لأنه من جهة قد أفاد من حضارات سبقته ، فضلا عن أن هذه الحضارات قد فاقته فى مظاهر أخرى الفكر .

---

* تتميز شعوب الشمال بالشجاعة دون الذكاء بينما تتميز شعوب الشرق بالذكاء دون الشجاعة أما اليونانيون فقد جمعوا بين الشجاعة والذكاء . راجع كتاب السياسة لأرسطو الفصل السابع .

** نقول فلسفة الأخلاق ولا نقول الأخلاق لأن شعوب العالم أجمع تعرف الأخلاق وأن لم تعرف قبل اليونانيين التفلسف فى الأخلاق .

*** يمكن الرجوع فى ذلك الى كتاب جورج سارتون : تاريخ العلم .

اثر العامل الجغرافى فى تحديد بعض خصائص الحضارة الاغريقية وظروف نشأتها :

بلاد اليونان جبلية وعرة جدباء تحصر الجبال بعض الوديان الضيقة التى أمكن زراعتها ، وعليها اقيمت المدن الصغيرة ، ولما كان الاتصال عبر الجبال شاقا فإن أغلبية المدن كانت قريبة من البحر باعتباره وسيلة الاتصال، ولقد أدت هذه الطبيعة الجغرافية إلى عدة نتائج تميزت بها الحياة الإغريقية :

١ — من الطبيعى أنه إذا زاد عدد السكان عن الحد الذى تتحمله الموارد الاقتصادية المحدودة أن يرحل بعض المواطنين بحراً إلى سواحل بعيدة، ومن ثم اقيمت المستعمرات الإغريقية على سواحل آسيا الصغرى وجنوب ايطاليا .

٢ — وعورة الاتصال البرى حال دون قيام وحدة قومية أو سلطة مركزية تبسط سلطانها السياسى على جميع المدن فى أنحاء بلاد اليونان ، فأصبح استقلال كل مدينة وانفرادها بطابع خاص وهو ما يسمى بنظام البوليس Polis أو دولة المدينة City-state أهم طابع للحياة الإغريقية بل من أهم مقوماتها .

٣ — قيام الحروب وإستمرارها بين المدن الإغريقية فضلا عن الظروف الاقتصادية الصعبة من جهة وعدم قيام سلطة مركزية تفرض الوحدة على المدن حتى عصر فيليب المقدونى وابنه الاسكندر من جهة أخرى ، كل ذلك إذا أضيف إليه أن المستعمرات البعيده كانت اكثر إستقراراً وأوسع ثراء ،فإنه من الطبيعى نتيجة لذلك كله أن تنشأ الحضارة بين هذه المستعمرات لا فى بلاد اليونان الأصلية .

٤ — الفردية طابع الروح اليونانية نتيجة التجزؤ أو التفتت الذى فرضته الظروف الجغرافية وصعوبة الاتصال البرى بخلاف ما كان قائما فى حضارات الشرق القديم حيث مكن إتساع الوديان من قيام سلطة مركزية سياسية ودينية

تحكم قبضتها على المواطنين - أصبحت الفردية طابع الروح اليونانية القديمة ، فلكل مدينة صغيرة ولكل جزيرة شخصيتها المتميزة * ، بل لكل مدينة إله خاص بها ، وإن اشتركوا جميعاً فى التوجه إلى آلهة الأولمب ، كانت عوامل التفرد تغلب عوامل الوحدة القومية ، فالحرب الفارسية بكل ما انطوت عليه من خطر يهدد كيان بلاد اليونان لم تحرك المدن اليونانية نحو الاتحاد لمواجهة الفرس ، بل اقتصر الذين اشتركوا فى صد هذا الخطر على عدد قليل من المدن ، أما الباقى فمنها من انتحل المعاذير للتنصل عن المشاركة ومنها من آثر الحياد بل منها من أنضم إلى الفرس(١) .

كانت الروح الفردية طابع الحضارة الإغريقية ، والفردية من مقومات الفكر الحر ، إذ لم تكن هناك سلطة مركزية سياسية تفرض سلطانها ولا نظام كهنوتى يفرض عقيدته ، وفى غياب مركزية السلطة السياسية وكهنوتية النظام الدينى نشأت الفلسفة وليدة الروح الفردية وحرية الفكر .

ه - إذا كانت البداوة تسبق مرحلة الزراعة ، ولقد كانت الحضارات القديمة زراعية ، فإنه بالنسبة لحضارة ناشئة فى بيئة بحرية تصبح التجارة البحرية من أهم مقومات الحياة الإغريقية ، وإذا كانت الزراعة قد ازاحت مرحلة البداوة فإن التجارة البحرية حتى إبان ازدهار حضارة الإغريق لم تقض على القرصنة إذ لم يكونوا يفرقون بينهما كما لم تكن الأخيرة تثقل ضمائرهم * ، وترتب على

---

* بل كان فى جزيرة مثل كريت أكثر من ٦٠ مدينة كل منها تكون دولة .

(١) د. لطفى عبد الوهاب يحيى : دراسات فى حضارة اليونان والرومان ص ٤٩ - ٥٠

* يقول المؤرخ ثوكيديدس : كان هذا العمل أى القرصنة من أهم موارد الرزق ولم تكن مما يجلل صاحبها بالعار راجع ول ديورانت قصة الحضارة مجلد ٢ ط

القرصنة والحروب وجود أسرى أصبحوا رقيقـــاً ، ومن ثم أصبح العبد من مكونات الأسرة الإغريقية وأصبح وجوده من ضروريات حياتها ، كما اصبحت بعض الأعمـال كالحرف اليدوية مقصورة على الرقيق الأمر الذى طبع الفـكر الإغريقى بطابع احتقار العمل اليدوى والترفع عنه ،ولم يستطع حتى كبار الفلاسفة كأفلاطون وارسطو التحرر من هذه النظرة إلى العبيد أو إلى العمل اليدوى *

٦ — وانعكس العامل الجغرافى أخيراً على النظام السياسى ، ليس فحسب لأن هذه العزلة قد حالت دون قيام سلطة مركزية ، بل إنه حتى حينما استطاعت إحدى المدن أن تفرض نفوذها وسلطانها على مدن أخرى أقل شأنا - كما أصبح حال أثينا - فإن ذلك لم يؤد الى قيام النظام الملكى، وإنما على العكس إلى مزيد من الديمقراطية وضرورة اعتماد الزعمـــاء على التأييد الشعبى ، بل إن الفـترات التى تعرضت فيها هذه المدن إلى حكم الطغاة لم يتم ذلك بفعل قوة قاهرة من أعلى وإنما بتأييد جماهير الشعب لتحدى الأقلية الاقطاعية والحد من الارستقراطية .

مراحل الحضارة الاغريقية

مرت الحضارة الإغريقية فى تاريخها بمراحل ثلاثة :

١ — مرحلة النشأة (المرحلة العتيقة Archaic PerQod : منذ القرن الثانى عشر إلى القرن السادس ق م ، وهى تمثل طفولة الفكر الإغريـــقى حيث طور

---

* ترد فى احدى محاورات افلاطون هذه العبارة : انك لا تقبل أن تتزوج ابنة مهندس ولا أن تزوج ابنتك من مهندس — حيث يعمل المهندس بيديه ودائم الاتصال بالآلة الأمر الذى يهبط به فى نظر الإغريقى الى مستوى الآلة أو الجماد . أما أرسطو فقد اعتبر العبد آلة حية أو نصف إنسان ونصف حيوان ، والعلوم النظرية عنده اسمى من العلوم العملية .

الأسطورة متمثلة فى ملاحم هوميروس [الالياذه والاوديسية] وقد قامت الحضارة فى مستعمرات آسيا الصغرى .

٢ ـ مرحلة الازدهار (المرحلة الكلاسيكية Classical period) : منذ القرن السادس حتى الثلث الأخير من القرن الرابع ق.م ، وهى تمثل انضج الفكر الإغريقى حيث طور الفلسفة ، فيها ظهر كبار مفكريهم فى شتى المجالات من فلسفة وتشريع وفن ومسرح وتأريخ ، وكان لأثينا مركز الصدارة فى الحضارة .

٣ ـ مرحلة التدهور (المرحلة الهيلنستية Hellenistic period) : عقب فتوحات الاسكندر حين إنتقلت مراكز الحضارة الى خارج بلاد اليونان ، تمثل شيخوخة الفكر الإغريقى حيث إمتزج بالفكر الشرقى ، كما إمتزجت الفلسفة بالدين ، يختلف الباحثون فى تحديد نهاية الحضارة الإغريقية حسب أبعاد ثلاثة :

ا ـ البعد السياسى : تنتهى الحضارة الهيلينية بنهاية الدولة البطلمية الإغريقية فى مصر أى بنهاية حكم كليوباتره عام ٣٠ ق م .

ب ـ البعد الحضارى : إذا اعتبرت الحضارة الرومانية إغريقية الفكر فإن نهاية الحضارة الهيلينية يكون بانتهاء الحضارة الرومانية فى الشرق فى القرن السابع بقيام الإسلام ، وهذه وجهة نظر المؤرخ توينبى .

حـ ـ البعد الفلسفى : لما كانت الفلسفة أهم مظاهر الفكر الإغريقى وأعمقها أثراً فيما تلتها من حضارات ، فان نهاية الحضارة الإغريقية انما يكون باغلاق الامبراطور الرومانى جستنيان المدارس الفلسفية الأربعة (الأفلاطونية والأرسطية أو المشائية والرواقية والابيقورية) وذلك عام ٥٢٩ باعتبارها داعية إلى الفكر الوثنى المتعارض مع المسيحية .

الباب الأول

المرحلة العتيقة Archaic Period

الحضارة الاغريقية فى طور النشأة

الفصل الأول

معالم القومية الإغريقية

الالياذة والأوديسة ـ الاعمال والأيام ـ وحي دلفي ـ الألعاب الأولمبية

لم تكن تجمع الإغريق وحدة سياسية ، ومع ذلك فقد تجمعت معالم تدعم شعورهم الوجدانى بالقومية ، ولو كانت عوامل الفردية أقوى من النزعة الجماعية لما أمكن أن تقوم حضارة ، وقد تبلور هذا الشعور الجمعى فيما يأتى :

١ ـ الالياذة والأوديسة :

أقوى عوامل التجمع الفكرى والوجدانى ملحمتان كبيرتان هما الإلياذة Iliad والأوديسه Odyssey وتنسبان إلى هوميروس * ، ولازال الشك قائما

---

* يسميه افلاطون معلم اليونان ، وهو حقا معلمها فى طول الاسطورة ـ كما أن سقراط معلمها فى طور الفلسفة ، وربما كان تأثير هوميروس أعمق ، الالياذة قصة حرب بينما الأوديسه قصة سلام مفعمة بالخيال مليئة بالسحر الأمر الذى أثار الشك حول نسبتهما الى شخص واحد وربما تعبر الإلياذة عن تهور الشباب وتعبر الثانية عن نضج الشيخوخة : سارتون : تاريخ العلم ـ ١ ص ٢٩٥ الترجمة العربية .

وتتكون الإلياذة من خمسة عشر ألفا وخمسمائة وسبعة وثلاثين بيتا قسمها علماء الاسكندرية الى أربع وعشرين أنشودة تبدأ بالدعاء لربات الشعر ليلهمنه الشعر ، وبالرغم من أنها ملحمة ففيها تنوع فى وصف المناظر وعواطف الناس فى مختلف المواقف كما أنها سجل من واقع الحياة الاجتماعية للإغريق الأمر الذى أدى الى افتتان الإغريق بها على مختلف طبقاتهم، قوادهم كالاسكندر وعامتهم .

حول نسبة تأليفها إلى شاعر واحد أو حتى الى عصر واحـــد ، فذهب بعض النقاد المتأخرين إلى أنها لطبقتين من الشعراء على مدى قرنين من الزمان : التاسع والثامن أو الثامن والسابع وان هوميروس آخر هؤلاء الشعراء ، وأنه جمعها وأنشدها فنسبت إليه .

واستهلال الإلياذة يشير إلى أنها ملحمة شعرية : انشدى ياربة الشعر غضبة اخيل Achilles بن بليوس Peleus ، تلك الغضبة المدمرة التى جلبت ألوانا من الحزن تعد بالآلاف ، وأطاحت بأرواح أبطال صناديد كثيرين إلى عالم الأموات وتركت أجسادهم طعمة للكلاب والجوارح، فتحققت إرادة زيوس ، أيدئ حيث بدأ النزاع بين أجا ممنون ملك الناس وبين أخيل العظيم .

ولكن هذه الملحمة أصبحت انجيل الإغريق يحفظها الصغار وتشكل أساس ثقافة كل إغريقى ، وقد اعتاد القواد والشعراء والنحاتون والفلاسفة والعلماء والساسة على ترديد قصائدها ، إذ أنها خلقت لدى الإغريق وعيا مشتركا ، وفى الملحمتين أفكار فى الطبيعة والآلهة وعن الحياة الإغريقية ، وهى أفـــكار ذات طابع اسطورى تضفى الحياة بل الالوهية على ظواهر الطبيعة .

والواقع أن كل شىء فى الأرض أو فى السماء ، وكل نعمة أو نقمة ، وكل فضيلة فى الإنسان أو رذيلة تمثلت لدى الإغريق إلها بشريا ، فهناك آلهة السماء وآلهة الأرض وآلهة ما تحت الأرض ، وآلهة الخصب وآلهة حيوانية ، وآلهة الاسلاف أو الأبطال وآلهة الأولمب وآلهة لكل مدينة بل أحيانا لكل عشيرة ، وقد بلغت من الكثرة حداً يشق على الإنسان ذكره كما يشير إلى ذلك هزيود .

ولكل إله اسطورة تشرح نشأته وصلته بالمدينة التى نشأ فيها والطقوس التى

تقام تكريماً له ، وقد أصبحت هذه الأساطير عقيدة الإغريق وفلسفتهم وآدابهم وتاريخهم بل وفنونهم إذ منها استمد الفنان ما يلهمه الرسم والنحت والنقش ، وقد ظل الإغريق إلى آخر أيام الحضارة الهيلينية يخلقون الآلهة ويحيكون حولها الأساطير رغم بحوثهم الفلسفية .

ولما كانت هذه الآلهة من نسج خيال اليونان، وليست من وحى نبى أو قول كاهن،فإنها قد وجدت بعد وجود الإنسان أو السموات والأرض ، ومن ثم فلا ذكر لخلق العالم أو الإنسان ابتداء ، وإنما الوجود ثمرة زواج جنسين ، فالسماء إله تزوج من الإلهة الأرض فانجبت الأخيرة الجبال والمحيطات والأنهار .

والآلهة تجتمع على شاكلة البشر ، فآلهة الأولمب مثلا يقيد كل منهم دائرة نفوذ غيره من الآلهة، وإن كان يرأسهم جميعاً الإله زيوس Zeus ، وهم جميعا يسكنون قمة جبل الأولمب أشبه بعصابة من عمالقة البشر ، لا يختلفون عن البشر فى شىء إلا أنه يجرى فيهم سائل يمنحهم الخلود ويجعلهم اكثر بطولة وأسرع حركة ، ولكنهم آلهة لا تبعث على التدين إذ أن فيـــهم رذائل البشر وشرورهم وشهواتهم وعصبياتهم ، يتدخلون فى منـــازعات البشر يؤيد بعضهم الإغريق ويناصر البعض الآخر أهل طرواده ، بل يتعصب كل منهم لمدينة على أخرى ، يتشاتمون ويتشاجرون ويخونون ويغدرون . لا يهمهم إلا إبتزاز أموال الناس فى صورة قرابين ، يقول جلبرت موراى : تزعم آلهة معظم الامم أنها خلقت العالم ولكن آلهة الأولمب لا تدعى ذلك إذ أقصى ما يفعلوه أن يقهروه ، وحينما يقهرون الممالك فاذا يفعلون ؟ ولماذا يقومون بعمل شريف ؟ إنه من الأيسر أن يعيشوا على الابتزاز ويهددوا بالصواعق من لم يقدم القرابين.. إنهم يتحاربون

ويمرحون . ويسكرون... على أنهم لا يكذبون الهم إلا فى الحب والحرب!(١)

صورة عن الآلهة لم تألفها أديان الحضارات الشرقية القديمة لأنها من خيال شعراء لا من وحى أنبياء أو سجع كهان ، ولكن هذه الصورة ما كانت لتجد قبولا وإنتشاراً لو لم تكن معبرة عن خصائص الروح الاغريقية ، تلك الروح التى لم تعرف إلها مفارقا بل لم تعبد قوى الطبيعة المؤلهة بقدر ما عبدت الانسان . فالحضارة الاغريقية هى أول حضارة على الأرض تمثلت المذهب الانسانى إلى حد ألا تتصور الآلهة إلا على صورة البشر بكل أهوائهم وتناقضهم بصرف النظر عن الصورة المهزوزة للألوهية التى تنطوى عليها ، تأبيس ، الآلهة . بل حتى زيوس كبير الآلهة على جبل الأولب لم يصبح رئيسا إلا بعد أن تخلص من أبيه كرونوس .

من هذا التصور الهوميرى الألوهية نستخلص ما يأتى :

١ ـ كان الدين أضعف مظاهر الحضارة الاغريقية على الاطلاق فهو دين لا يبعث على تدين ولا ينطوى على قداسة .

٢ ـ لما كان الدين وفقا لخيال هوميرلا يقدم تفسيرا لنشأة الوجود ولا مشكلة الموت وما بعده ، بل يقدم صورة عابثة عن الخير والشر والجزاء فإنه قد ترك فراغا فكريا ملأته الفلسفة فيما بعد، بينما لم يكن ذلك كذلك فى الحضارات الشرقية التى وجدت فى أديانها إجابات وحلولا للمشكلات الميتافيزيقية المعهودة .

٣ ـ لما كان الدين يترك انطباعا لا أخلاقيا عن الآلهة، فإن الأخلاق لدى

---

1 - Gilbert Murray Five stages of Greek Religion p. 67

نقلا عن B. Russell : History of western philosophy p. 30

اليونان ـ عملية على مستوى ممارسة الأفراد ونظرية على مستوى مذاهب الفلاسفة ـ لم تقم على أساس من الدين بل ظلت مستقلة تماما عنه . *

٤ ـ إن هذا التصور العابث للألوهية لم يشبع العاطفة الدينية سـواء لدى العامة أو الخاصة ، أما بالنسبة للعامة فقد تسربت إلى مشاعرها ديانات شرقية من أشهرها عبادة الإله التراقى ديونسيوس أحد آلهة الطبيعة ، تمثلت هذه العبادة فى الديانة الأورفية ** التى لقيت قبولا لدى المزاعين لأنها من أديان الطبيعة ،

---

* استدراك الأخلاق لدى فيثاغورس وسقراط وأفلاطون لها صلة بالدين ولكن ذلك راجع الى أصول أو جذور شرقية ، لقد عبر أرسطو عن الروح اليونانية حين فصل الأخلاق عن الميتافيزيقا منتقدا أستاذه أفلاطون (راجع كتابنا الفلسفة الأخلاقية فى الفكر الاسلامى) .

** العقيدة الأورفية نسبة الى كاهن من تراقيا فى القرن السابع ق.م اسمه أورفيوس، والعقيدة ذات أصول شرقية ربما من الهندية وهى عقيدة البيئات الزراعية حيث تتجدد الحياه للموتى كما تتجدد حياة النبات بالبذور . تشير الأسطورة الى أن زيوس وهب طفله ديونسيوس — الذى أنجبه من ابنته رسفون — السلطان على العالم فغارت زوجة أبيه « هيرا » وألبت عليه طائفة من الآلهة الأشرار هم « الطيطان » فكان ديونسيوس يهرب منهم بالتشكل فى صور مختلفة هربا منهم ولكنهم أدركوه فى صورة ثور فقتلوه وأكلوه، غير أن الالهة مينرفا اختطفت قلبه فبعث من القلب ديونسيوس الجديد ، وصعق زيوس الطيطان ، وخرج البشر من دمائهم ، فالانسان مركب من عنصرين متعارضين : الشر من الأصل الطيطانى والخير من دم ديونسيوس ، فى العقيدة إيمان بثنائية الجسم والروح وأن الأول سجن الثانية ، سرت العقيدة بين المزارعين لأنها تمثل الشجرة التى تموت وتبقى بذرتها لتحيى من جديد فى صورة أخرى ، تموت الشجرة فى الشتاء وتحتضن الأرض بذرتها لتحيى بعد ذلك فى الربيع ، وسرت العقيدة بين النساء لأنها تمنح مكانة لالهة الأرض مينرفا التى احتضنت القلب ، فالأرض فى البيئات الزراعية الهة (انثى) لأنها تحتضن فى جوفها أو رحمها البذرة التى وضعها أو بذرها الإله الأكبر ومن ثم تتيح له الحياه مرة أخرى بعد أن يموت الأصل مقتولا ، وفى

ولدى النساء لأن آلهة الأولب مجتمع رجال عابثين أشرار ... صورة للألوهية لا تستسيغها عواطف النساء ، وأما لدى الخاصة فقد تسربت العقيدة الأورفية إلى الفكر الإغريقي متمثلا فى الفيثاغورية من جهة أو شكلت رد فعل عنيف لألوهية هوميروس تمثلت فى نقد لاذع لها لدى بعض الفلاسفة من أمثال اكسانوفان : إن الناس هم الذين استحدثوا الآلهة وأضفوا عليها عواطفهم وهيئاتهم ، يقول الأحباش عن آلهتهم إنهم سود فطس الأنوف ويقول أهل تراقية إنهم زرق العيون حمر الشعور ولو عقلت الثيران لجعلت آلهتها على شاكلتها بل لو عقل النمل لجعل لآلهته قرون استشعار !

= الحضارات القديمة أساطير مماثلة فى الفكرة والمغزى وفى مصر أسطورة ايزيس وأوزريس وفى بابل تموز وعشتار وفى سوريا عشتروت وأدنيس ، تتمثل فى هذه الأساطير عقائد صراع الخير والشر وانتصار الخير أخيرا ، والتضحية والإيمان بالحياة بعد الموت ، وضرورة التطهير من الذنوب سواء بالتناسخ كما فى العقيدة الهندية أو بالتطهير واتباع ارشادات الروح فى عالمها الآخر (كتاب الموتى فى مصر القديمة) ، وقد رتبت الأورفية للتطهير طقوسا كالاستحمام باللبن أو تقديم قرابين غير دموية ، ويحتفلون كل عام بعشاء ربانى حيث يمثلون قصة ديونسيوس فيقطعون لحم ثور ويأكلونه نيئا ـ ومن عقائدهم احترام الحياة حيثما وجدت لدى الإنسان أو الحيوان أو النبات فلا يذبح ولا يقلع إلا لضرورة .

هكذا الأورفية صورة مباينة لآلهة الأولب ، فيها سمو وأخلاق وفيها تضحية من الإله وفداء ، يقول ول ديورانت : كل ما يعزى إلى آلهة أولمبوس من انحلال خلقى واستهتار قد حل محله قانون حازم للسلوك ، لقد ثل عرش زيوس الجبار ليحل محله شخصية أورفيوس كما ثل عرش يهوه (إله اليهود) ليحل محله المسيح (قصة الحضارة مجلد ٢ ج ١ ص ٣٤٦)

وقد كان للأورفية أثر فعال لدى مفكرى الاغريق بل يمكن القول انها وجهت الفلسفة وجهتها الروحية لدى فيثاغورس وسقراط وأفلاطون ثم نسجت الفلسفات المتأخرة كالفيثاغورية المتأخرة والأفلاطونية الحديثة على منوالها ، والأورفية تعبر عن روح شرقية محضة ، ومع تأثيرها الشديد فى هذه المذاهب الفلسفية فانها دخيلة على الروح الاغريقية كما لا تعبر عن مقومات حضارتها ولكنها عوضت فى هذه الروح قصورا وعالجت فيها ضعفا : مادية الروح اليونانية ودنيويتها ولا أخلاقية أديانها وبشرية آلهتها .

٢ ـ هزيود :

« من يضمر الضر يجلب الضر على نفسه عين زيوس تبصر كل شىء »

ا ـ الأعمال والأيام .

قصيدة من أربعة أقسام: الأول عظة من هزيود لأخيه الأصغر برسيس الذى كان صعلوكا .

الثانى : مجموعة من القواعد الزراعية والملاحية .

الثالث : مبادىء أخلاقية ودينية .

الرابع : تقديم لأيام السعد وأيام النحس .

فلا يتناول الديوان موضوعات عقائدية كأصل الوجود ومصير الإنسان ، وإنما يتناول مسائل الحياة اليومية سواء فى مجالات العمل كالزراعة والملاحة ، أو مجال العلاقات الاجتماعية كالزواج أو ينظم السلوك الأخلاقى للمواطن الأغريقى ، ومن ثم احتوى على كثير من الحكم والأمثال والمواعظ ويصور أحكام زيوس بصورة تبعث على الاحترام ؛ « السمك والوحش والطير يفترس بعضه بعضا لأن العدالة معدومة ، أما الناس فقد منحهم زيوس العدالة وهى خير وأبقى » « للملوك المرتشين أحكام ملتوية أما زيوس فأحكامه قويمة » .

ب ـ فى أصل الآلهة :

ينسب هذا الديوان لهزيود وإن رأى بعض الناقدين أنه منحول وأنه يمثل مرحلة لاحقة على القرن الثامن ق م الذى ظهر فيه هزيود ، يمثل الديوان مرحلة بين الأسطورة والفلسفة ، فيه من الأسطورة تأليه قوى الطبيعة * ومن الفلسفة

---

* فى البدء كانت فوضى Cheos وكان الآلهة يمشون على ظهر الأرض وفى باطنها ؛ ...

معقوليتها وتسلسل أفكارها * ، إذ تشير إلى انتظام الوجود بعد الفوضى أو الكاؤس Cheos اذ ترتفع السيارات وتتهادى البحار وتثبت الجبال ثم تظهر سائر الموجودات ، أما آلهة الأولمب فكلفون بتدبير العالم .

= نشأ من تزاوج السماء «أورانوس» والأرض «جى» جنس من الجبابرة الطيطان فقذف بهم أورانوس إلى طرطوس المظلمة فساء الأرض ذلك ، فعرضت عليهم قتل أبيهم وقام كرونوس بقطع قضيب أبيه فى الظلام وألقى به فى اليم ، ونشأت من نقطة الماء التى سقطت على الأرض آلهة الانتقام . ومن الزبد الذى تكون حول اللحم وهو طاف فوق الماء نشأت «أفروديتى» ، واستولى الجبابرة على جبل أولمبس ، وأنزلوا أورانوس عن عرشه ورفعوا إليه كرونوس ، ولكن أبويه كانا قد تنبآ بأن أحد أبنائه سيقتله ، ولذا ابتلع كرنوس أولاده جميعاً من أخته « ريا » ماعدا زيوس الذى ولدته أمه سراً فى كريت ، فلما شب زيوس خام كرنوس وأرغمه على أن يخرج أولاده من بطنه وأعاد الجبابرة إلى الأرض بالقوة (قصة الحضارة مجلد ٢ ط ص ١٨٥٥)

هذا تصور للألوهية وأصل الكون غنى عن التعليق لذا قورن بتصور الحضارات الشرقية التى كانت مع وثنيتها وأسطوريتها تعرف للآلهة قداستهم . ولكن هكذا كان الدين لدى الإغريق .

* تشير فى هذا الصدد إلى تصورها لمسار التاريخ : كان الانسان يعيش فى العصور القديمة فى عصر ذهبى وسعادة لاتعب فيها ولا قلق يجد قوته ولاتدركه الشيخوخة وإذا مات فالموت نوم هادىء خال من الأحلام المزعجة ، ثم ظهر جيل من الناس فى منزلة أدنى ذلك هو العصر الفضى حيث عرف الانسان الآلام ، ثم جيل ثالث هو عصر نحاس أو برونزى حيث عرف الانسان الحروب ذلك هو جيل حرب طروادة الذى ألهم هوميروس ملحمته ثم جاء بعد ذلك شر الناس فى عصر حديدى : جيل فاسد يكدح ويشقى يعرف الرشوة والخيانه وعقوق الآباء ، يقول هزيود : ليتنى لم أولد فى هذا الزمان ويتمنى أن يعجل زيوس بالخلاص فى هذا العصر لنبدأ دورة جديدة ، تعد هذه أول تصور لمسار التاريخ وفقا لفكرة التدهور — أن الماضى أفضل من الحاضر وأن آباءنا خير منا — ثم فكرة تعاقب الدورات فى التاريخ .

غير أن القصائد الهوميرية ظلت أكثر تعبيرا عن الروح الاغريقية وأعمق أثرا فى حياة الإغريق لأنها تعبر عن النزعة الإنسانية وعن حياة الحرب كما خاضتها المدن اليونانية فيما بينها ، فضلا عن أن أرسطو لم يعتبر الشعر التعليمى شعراً وإنما مجرد نظم، الأمر الذى جعل الألياذة أسمى من الناحية الجمالية لدى نقاد الشعر من بعد .

٣ – وحى دلفى :

« إعرف نفسك »

يعتبر وحى دلفى مظهراً آخر من مظاهر الوجدان المشترك لدى الإغريق بالرغم من انعدام الوحدة السياسية ، كان أشبه بمنظمة قومية ذات طابع دينى ، وتقع دلفى عند سفح جبل بارنسس فى وسط بلاد اليونان تقريبا ، فكان لهذا العامل الجغرافى إلى جانب عامل تاريخى اثره يتلخص فى تعرض الجبل لزلزال كان يبعث الرهبة فى قلوب المغيرين من الفرس والقبائل المتبربرة ، والزلزال فى اعتقاد الإغريق تعبير عن إرادة إله قاطن فى الجبل يريد أن ينفذ قراره .

يستمد الوحى إلهامه من حلف « بين ثلاثة آلهة . إلهة الأرض «جى» والإله أبولو الأولمبى وديونسيوس التراقى . يتم الإلهــــام من الفترة الإلهية لأبولو بواسطة متنبئه فى حالة غيبوبة ، ولقد كان فى بلاد الإغريق كثير من المتنبئين والمتنبئات ولكن دلفى هو أشهرهم جميعاً ، والنساء فى اعتقاد الإغريق أكثر استعدادا من الرجال لتلقى الوحى ، نساء فوق سن الخمسين يحاولن التعرف على إرادة أبولو، وذلك بأن تكون المرأة فى حالة غيبوبة وذلك بفعل استنشاق غاز ينبعث من فتحة أسفل الهيكل ومن مضغ أوراق شجر مخدر (١) . وتقوم هيئة كهنة دلفى

---

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة مجلد ٢ ط ص ٣٥٨ – ٣٦٠ وفصل معبد المتنبئون والمتنبئات .

ينظم أقوالها فى أبيات سداسية الوزن قبل إلقائها على الجمهور الذى كان يضم الخاصة والعامة على السواء ، رداً على سؤال عما سيقع فى المستقبل أو نصيحة لمن يطلب الاستشارة قبل الإقدام على عمل خطير ، لم يكن يستطيع الوحى تجاهل هذه الرغبة الملحة لدى الزائرين ، كما لم يكن يستطيع أن يعلن عن أنباء المستقبل صراحة ربما خشية أن ينكشف أمره إن كذبته الوقائع ، ومن ثم جاءت عباراته غامضة تحتمل التأويل ، يقول هيرقليطس : إن إله وحى دلفى لا يفصح ولا يخفى معانيه ولكنه يلمح إليها بالإشارة لأن الحكمة تحب أن تستتر ، من العبارات الغامضة أن استفسار كروكسيوس الكاهنة عما إذا كان يعلن الحرب على الفرس ، فأنبأته بأنه لو عبر نهر هاليتس الذى يفصل بينه وبين كورش امبراطور الفرس فإنه سيحطم بذلك إمبراطورية عظيمة ، فعمل كروكسيوس بالمشورة - اعتقاداً منه أن المقصود هى إمبراطورية الفرس - وعبر النهر وتحققت النبوءة وتحطمت إمبراطورية عظيمة ، ولكنها كانت إمبراطورية الإغريق ومستعمراتها على الساحل الأيونى إذ وصل سلطان الفرس إلى بحر إيجه عام ٥٤٨ ق.م

ولقد تعرضت الكاهنة لبعض المواقف الحرجة ، فلقد استشيرت فى أمر حرب أخرى مع الفرس فتنبأت باحتمال انتصار الغازى الجبار فجلبت على نفسها العار إذ نصحت طالبى المشورة بعدم المقاومة ولكنها ، حاولت استعادة مكانتها فروجت لأسطورة تدخل أبولو لمحاربة فرقة فارسية كانت فى طريقها إلى معبده، موقف حرج آخر وذلك حين حرض خصوم الطاغية هيباس كهنة المعبد - وذلك بتقديم رشوة لهم - كى يقدموا مشورة إلى وفد اسبرطه لحثها على حرب أثينا وعزل طاغيتها » .(١)

* أو لأن الدرر لاتلقى أمام الخنازير •

1 - Victor Ehrenberg : From Solon to Socrates p. 86

ومع ذلك فقد كان وحى دلفى يقدم المشورة السديدة فى كثير من الأحيان، وكانت هذه مستمدة من خبرة طويلة ، يقول توينبى : لقد لعبت دلفى ، باعتبارها ناصحا أمينا للهيلينيين جميعاً ، دوراً مجيدا فى تاريخ المجتمع الهيلينى فى عصر التوسع فيما وراء البحار(١)، والواقع أن دلفى كانت أشبه بعاصمة دينية تماما كما كانت أوليمبوس عاصمة رياضية فى وقت لم تكن للاغريق فيه عاصمة سياسية .

من زاوية الفلسفة نشير إلى الدور الذى لعبه وحى دلفى فى حياة سقراط ، ذلك الدور الذى أعلنه سقراط نفسه فى « دفاعه » ، فلقد سئلت الكاهنة : من أحكم هذا الزمان ؟ فأجابت : ليس هناك أحكم من سقراط، ولقد دهش سقراط نفسه حين بلغه ذلك ، ويبدو أنه أراد أن يستوثق من صدق هذا الرأى ، فذهب إلى السياسيين يحاورهم ليستكشف مالديهم من حكمة أو علم فلم يجدهم أحكم الناس، فانطلق إلى الشعراء فوجدهم لايفقهون معنى مايقولون ، لأن الشعر ليس صادراً عن حكمة أو عقل وإنما عن شيطان يترهه الخيال ، ثم ذهب إلى الفنانين فخيبوا بدورهم آماله ، بل ذهب إلى أهل الصناعات فلم يجدهم يعرفون شيئا غير مايتصل بصنعتهم * ، يقول سقراط : وبذلك اكتسبت أعداء كثيرين بعد أن كشفت عن جهلهم وغرورهم ، وعلمت أن الله وحده هو الحكيم وأن الناس لم يؤتوا من الحكمة إلا قليلا وربما لاشىء ، وأن وحى دلفى حين أشار إليه أنه أحكم الناس فإنه لايقصد شخص سقراط وإنما كأنه يقول : أيها الناس ، إن أحكم الناس من كان على شاكلة سقراط : جاهل معترف بجهله وليس جاهلا دعيا كغيره من الناس.

---

(١) توينبى وترجمة رمزى عبده جرجس : تاريخ الحضارة الهيلينية ص ٦٨

* حكم أعتقد أنه مازال جاريا فى معظم المجتمعات بل فى عصرنا بالرغم من انتشار التعليم وأجهزة الإعلام

بصدد الفلسفة ومعبد دلفى لنشير كذلك إلى العبارة الشهيرة المنقوشة على معبد دلفى : إعرف نفسك Know thyself والتى اعتبرت شعار الحكماء السبعة ثم شعار سقراط ، دلالتها لدى الإغريق هى : أعرف نفسك كإنسان واتبع الإله ، وهى تعبر فى حقيقة الأمر عن صراع فى أخلاقيات الإغريق بين الحكمة والاعتدال فى جانب وبين العجرفة والعنجهية فى جانب آخر Hubris & sophrosyne ، ثم أصبحت تعنى منذ هيرقليطس ولدى سقراط أن الإنسان هو الذى ينبغى أن يكون موضوع الدرس والتأمل وأن يكون محور الفكر ، كذلك أصبح معناها إنه إن تعارض حكم العقل مع توجيهات الآلهة ـ وأحكام آلهة اليونان متضاربة فيما بينهم ومعارضة فى كثير من الأحيان العقل والأخلاق معا ـ فإن المرجع والمرجح هو العقل (١) لأن العامل الحاسم والمرجع الذى إليه ترد الأمور فى حضارة ذات نزعة إنسانية إنما هو الإنسان *

٤ ـ الألعاب الأولمبية :

« علم ابنك الرياضة والموسيقى ، ولا تعلمه الرياضة فقط فيكون متوحشاً ، ولا الموسيقى فقط فيكون مخنثا » . أفلاطون .

---

1 - V. Ehermberg : Form Solon te Socrates p. 236.

* قارن هذا المفهوم الاغريقى بمفهوم العبارة لدى الإسلاميين ، لقد نسبوها الى سقراط ثم أضفوا عليها روحا إسلامية حين جعلوا معناها مرادفا لحديث منسوب الى الرسول : اعرف نفسك بنفسك ، ثم فهموا العبارتين فى ضوء الآية : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » والآية استدلال على الوحدانية أى أعرف نفسك تعرف ربك . فلا علاقة اطلاقا بين مفهومها لدى الإغريق ـ أو لدى سقراط ـ وبين دلالتها لدى الاسلاميين وبخاصة الصوفية المتفلسفين ، ولكن وكما يقول شبنجلر لن فكرا مالا يقتبس من فكر آخر الا ما يناسبه وكلما أعجبت حضارة ما بفكرة ما لدى حضارة أخرى أضفت عليها من روحها وابتعدت عن معناها الأصلى «فاعرف نفسك» لدى الإغريق تعبير عن النزعة الانسانية بينما عند المسلمين تعبير عن التوحيد.

عبر الإغريق عن وعيهم المشترك بما كان فى الأعياد من مهرجانات رياضية عند جبل أوليمبوس، وقد بدأت إقامتها عام ٧٧٦ ق م ،كذلك كانت تقام مسابقات فنية وشعرية .

ومن الطبيعى أن يهتم مجتمع محارب بالمباريات الرياضية وأن تكون بديلا عن الحرب فى الشهر الحرام عندهم ، وقد كان للألعاب الرياضية أثر كبير على الأدب والفن،لأن الفائز فى بطولة يتغنى له شعراء المدينة ويكرمه الفنانون بتمثال له بما أوحى للفن الاغريقى بإبراز كمال الأجسام والتعبير عن حركتها كما هى لدى الرياضيين ، بل لقد ارتبط تقويمهم التاريخى بالألعاب، إذ كانوا يؤرخون للحوادث ويحسبون السنين وفقا للدورات الأوليمبية .

وكانت تلك الأعياد أو المهرجانات أزمنة حرما توقف فيها الحروب وأحكام الاعدام، فيها ينشد الشعراء ويغنى المغنون ويعرض المصورون والمثالون فنونهم ، وكانت تلك المهرجانات ذات طابع دينى تكريما لآلهة الأولمب وعلى رأسهم زيوس ، وتلك هى مظهرها ، أما واقعها ففرصة للتعبير عن المواهب والسعى إلى التفوق والبطولة فى أى مضمار ، فشحذت تلك المهرجانات مواهب الأفراد ، وأصبح كل ذى موهبة يسعى إلى أن يعرض مواهبه ليتحلى بما يسمى « اريتيه Areté » أى فضيلة التفوق والنبوغ ، ذلك مظهر من مظاهر الفردية طابع الروح الإغريقية، كما كانت هذه المهرجانات الأوليمبية عاملا من عوامل ازدهار الألعاب الرياضية والفنون والشعر .

هكذا عبر الإغريق عن وعيهم بالقومية بمعزل عن المظهر السياسى ، لقد جمعتهم أشعار هوميروس وأمثال هزيود واستشارات وحى دلفى وأعياد المهرجانات الأوليمبية وشكلت هذه المظاهر أهم معالم الروح الإغريقية .

الفصل الثاني

دولة المدينة City-state أو البولس Polis*

لم تنجح عوامل الشعور الوجداني المشترك في أن تخلق وحدة سياسية بين الإغريق ، بل إن التهديد المستمر من دولة كبرى كالفرس - مع أن ذلك كان حريا أن يوحد بينهم - لم يجعل منهم حتى عصر متأخر من حضارتهم كيانا سياسياً موحدا ، كانت أسباب الفرقة أقوى من عوامل الوحدة السياسية ، ولا يرجع ذلك إلى العامل الجغرافي الذي أقام حواجز جعلت الاتصال البري بينهم صعبا بقدر مايرجع إلى شيء كامن في صميم الروح الإغريقية يجعلها تعتز بالفردية وتأنف من الروح الجمعية . ولقد عبرت هذه الروح عن نفسها باحتفاظ كل مدينة بكيانها وشخصيتها في ظل نظام دولة المدينة ، حيث تشكل كل مدينة دولة قائمة بذاتها ، وإن كانت هذه الدولة كنظام سياسي لم تكن مقصورة على المدينة وإنما على ضواحي ومناطق زراعية تشكل جميعا وحدة اقتصادية وسياسية ويعبر عنها باسم البولس .

كانت بلاد الإغريق حتى عصر فيليب المقدوني وإبنه الاسكندر كيانات منفصلة مستقلة بعضها عن بعض سياسيا واقتصاديا ، وكانت دول المدن من الصغر إلى حد أن جزيرة مثل كريت كان بها في يوم ما ٦٠ دولة مدنية ** ، والمدينة

---

* ليس هناك لفظ عربي يعبر عن معنى « بولس » لأنه نظام سياسي لم يعرفه العرب.

** ذهب ول ديورانت أنه كان بها ٩٠ دولة مدنية قصة الحضارة مجلد ٢ ط ١ ص ٣١

كما تصورها أفلاطون لايزيد عدد سكانها عن ٥٠٠٠ نسمة أو على حد تعبير أرسطو أن يستطيع الخطيب أو المنادى أن يسمع جميع سكانها * ، ثلاث مدن فقط كان يزيد عدد سكانها عن ٢٠,٠٠٠ وهى سيراكوزه وأكراجاس وأثينا .

ونظرا لصغر هذه الكيانات ، الأمر الذى كان يسمح بتعارف مواطنى كل كيان من جهة ولكثرة الحروب بين المدن من جهة أخرى ، فقد ارتبطت حياة الفرد بمدينته ارتباطا كليا بحيث يمكن أن تعد دولة المدينة ممثلة لأوجه الحياة السياسية والاقتصادية والفكرية لجميع مواطنى دولة المدينة ، بل إنها كانت تمثل للمواطن الإغريقى حياته الدينية ، إذ كان لكل مدينة إلهها أو إلهتها بالإضافة إلى الآلهة التى يشترك مع مواطنى المدن الأخرى فى الايمان بها كآلهة الأولمب ، فى ضوء ذلك يمكن أن نفهم مقصود عبارة أرسطو : إن دولة المدينة قد جعلت الحياة ممكنة بمعنى أنها الكيان الوحيد الذى يستطيع المواطن خلاله أن يعبر عن جميع طاقاته الروحية والخلقية والفكرية والاقتصادية والسياسية بل والألعاب الرياضية على أتم وجه ، ولم يكن فلاسفة اليونان من أمثال أفلاطون وأرسطو يتصورون كيانا سياسيا يقسع لقطر بأكمله. بمعنى أنهم لايتصورون إمكان أن يمارس المواطن الإغريقى نفس لون الحياة التى يمارسها فى دولة المدينة فى كيان أكثر اتساعا .

وكانت دولة المدينة تتكون من حصن على قمة جبل حتى يتيسر لهـــا وسائل الدفاع ، وكان الحصن يقام بمجرد تأسيس المدينة ، وهو مركز للحاكم ولاجتماع المجلس الاستشارى وللعبادة وكان يسمى الأكربول أى المدينة العالية ، وعند

---

* طبعا بدون ميكرفون .

سفح الجبل يوجد سوق المدينة وتتناثر عليه مساكن المواطنين الزراعية التى تمد المدينة باحتياجاتها (١).

ولم تكن المسئوليات السياسية من المسائل التى ينفرد بها الحاكم، وإنما كان يشارك فيها المواطنون الأحرار البالغون من الذكور على اختلاف أعمالهم، لاغرابة أن نجد المجلس الاستشارى يضم أكثر من ٥٠٠ مواطن فى مدينة لا يتجاوز سكانها ٥٠٠٠ نسمة، وذلك هو مفهوم الديمقراطية الإغريقية: أن يكون حكم الشعب لنفسه مباشرة لا عن طريق ممثلين، إذ كانت طبيعة الحياة تفرض هذه المشاركة السياسية فى التبعات والمسئوليات، إذ كان على كل مواطن أن يشترك فى جميع أوجه نشاط المدينة، لأن الحروب المستمرة لابد أن تخلق ارتباطاً عضويا بين المواطن ونظامه: الإغريقى ومدينته أو البدوى وقبيلته، ومن ثم فقد تعلق الإغريقى بمدينته واندمج فيها إلى حد أن أصبحت كما لو كانت عشيقته أو معبودته، تمثلت هذه العبادة فى خلق الوجدان الإغريقى لإله أو إلهة لمدينته، لقد تملكت الإغريقى نشوة عبادة الذات عبادة جماعية متمثلة فى دولة المدينة(٢).

وكان لابد أن تلعب الأسطورة دورها فى تعلق الإغريقى بمدينته من جهة وصلة المدينة بإلهها أو إلهتها من جهة أخرى حتى تتدعم الرابطة بين هذا الثالوث: المواطن ـ المدينة ـ الإله، من ذلك ماترويه الأساطير بأن صراعا قام بين الإله بوسيدون Poseidon وبين الإلهة أثينـــا على امتلاك تل الأكربول، فضرب بوسيدون الصخرة فانفجر منها عين ماء أجاج، أما الإلهة أثينا فقد أنبتت شجرة

---

(١) توينبى وترجمة رمزى جرجس: تاريخ الحضارة الهيلينية ص ٥٤

(١) ممفورد وترجمة الدكتور ابراهيم نصحى: المدينة على مر العصور ج ١ ص ٢٦٠

زيئون اعتبرت شاهدا لها على حقها فى التل ، وأصبحت الإلهة أثينا ـ ربة الحكمة ـ حامية المدينة ، وما زال اليونانيون يحتفلون بانطواء سكان اتيكا تحت زعامة مدينة أثينا وتحت رعاية إلهة أثينا .

ويلعب المسرح دوره لتزيد هذه الصلة إحكاما ، فى مسرحية أوريست الشاعر أسخيلوس، تعجز عدالة الأرض عن الفصل فى جريمة أوريست ، هو ابن أجاممنون الذى قتل أمه لأنها لوثت شرف أبيه ثم قتلته وهو عائد اليها منتصراً من ساحة القتال ، هذا وقد أوحى الإله أبولو فى معبد دلفى إلى أوريس أن ينتقم من قاتل أبيه. ولا يتردد الإبن أمام استعطاف الأم: لكم ارتاح رأسك على صدرى ورضعت اللبن منى قبل أن تنبت فيك أسنان، وتثور لهذه الجريمة آلهة الانتقام لأن الناموس الأزلى هو أن لابد أن يلحق القصاص قاتل أمه لأنها جريمة نكراء ، وفى معبد الربة أثينا بنت زيوس كبيرا لآلهة تعقد محاكمة أوريست ، ويجتمع لمحاكمته إثنا عشر أثينيا عند قمة جبل الأكربول ، يستمع فيهما القضاة والمحلفون إلى دفاع أبولو طالبا البراءة وإلى كورس يمثل زبانية الانتقام طالبا الإدانة ، وينقسم القضاة إلى طرفين متكافئين ـ ستة إلى جانب البراءة وستة إلى جانب الإدانة تعبيراً عن عجز عدالة الأرض أن تفصل فى جريمة أوريست ، فى هذه اللحظة المحيرة الحاسمة تنطق الربة أثينا بالقول الفصل فتخلص أوريست ليكون قولها تعبيراً عن اللطف الإلهى الذى يتدخل ليسكت زبانية القصاص ويغلق أبواب الجحيم (١).

وقد أتاحت دولة المدينة لمواطنيها. بفضل نظام الرق قدراً كبيراً من الفراغ الذى مكن للمواطنين الأحرار أن يشتركوا اشتراكا مباشراً فى الحكم ، على أن

---

(١) د. لويس عوض : المسرح العالمى من أسخيلوس آلى آرثر ميلر ص ٥ ـ ١٦ .

هذا المظهر الديمقراطى لمشاركة الشعب فى الحكم لم يكن يتيح الفرصة لنظام التخصص الدقيق فى المسائل الخطيرة ، فى ضوء ذلك يمكن فهم نقد سقراط الديمقراطية : إنكم معشر الإثينيين توكلون أموركم إلى متخصص فى أتفه شئونكم ـ فترقيع نعل توكلونه إلى إسكافى ـ ولكنكم فى أجلها تدعون ذلك إلى عامتكم ، وكان سقراط قد شارك فى حرب مع مدينته أثينا ولم تكن فى حربها هذه إلى جانب الحق أو العدالة ، ولكنه قرار اتخذته المدينة ومجلسها الشعبي وعلى كل مواطن أن يلتزم به ، ومن ثم نشأ الصراع بين التزاماته نحو مدينته واحترامه قراراتها وبين ضميره كإنسان فاضل ، ومع ذلك فقد ازدهرت بعض المدن حينما تسمح المصادفة أن يكون على رأس دولة المدينة شخصيات نابغة ومحبوبة ـ حيث تستطيع اكتساب ثقة المجلس الشعبى وتأييده .

ولقد غرس نظام الرقيق فى نفوس المواطنين نوعاً من الترفع عن مزاولة الحرف اليدوية، إنها تهبط فى نظرهم بالإنسان إلى مستوى الآلة وتكسب طبعها ، كذلك كان فى خلق الأرستقراطيين على الخصوص ترفع عن ممارسة التجارة ، ومن ثم احتقر كل من أفلاطون وأرسطو السوفطائيين لأنهم يتقاضون على الدروس أجراً وسماهم أرسطو بائعى سلع عقلية ، وقد أدى الترفع عن التجارة إلى سيطرة الأجانب على الحياة الاقتصادية فى بعض الأحيان ، ولعب الأجنبى فى المدينة دوراً لايختلف عن دور اليهودى فى الحياة الأوربية فى العصر الوسيط وربما الحديث: الرغبة فيه معدومة والنظرة إليه محتقرة ولكن الحاجة إليه قائمة(١) على أن هذا الترفع لايعبر إطلاقا عن سمو أخلاقى وترفع عن النفعية فى المعاملات، وإنما كان المواطن متغطرسا مستغلا فى النصر خانعا ذليلا فى الهزيمة طفيليا

---

(١) ممفورد وترجمة الدكتور ابراهيم نصحي : المدنية على مر العصور ص ٢٨٥

وصوليا فى عهود الطغاة (١) ، ومع ذلك فقد نجحت المدينة بفضل الفراغ من جهة ونظام الرق من جهة أخرى فى ابتكار فكر سام وفن خلاق ، وفى أن يظهر فى مدينة كأثينا فى قرنين إثنين من العباقرة ما لا يجود الزمان بمثلهم فى أنظمة أخرى فى قرون ، من الفراغ الذى يتطلبه التأمل نشأت الفلسفة ، ومن الفراغ العاطفى نشأت الكوميديا ، ومن الفراغ الوجدانى نشأت التراجيديا ، لقد استمتعوا فى فراغهم بالجمال والفن ، بالحوار والفلسفة ، وبالوجدان والمسرح .

خلاصة القول لقد كان نظام دولة المدينة من أهم مقومات الحياة الإغريقية ومن أهم معالم حضارتها إلى حد أن بدأت هذه الحضارة فى الأفول حين فقدت دولة المدينة استقلالها وحين فرضت الوحدة عليها .

---

(٢) المرجع السابق ص ٢٧٧.

الباب الثاني

المرحلة الكلاسيكية

الحضارة الاغريقية في طور الازدهار

الفصل الأول

أثينا : ا — مهد الديموقراطية
ب — مدرسة لكل بلاد الإغريق

إذا كانت الحضارة الإغريقية قد نشأت على الساحل الأيونى فان استمرارها بعيداً في الوطن كان متعذراً ، لأن هذا الساحل كان الامتداد الطبيعى لحضارات الشرق ونهاية طرق القوافل منها وثغور لها ، فضلا عن أن الصراع المستمر مع الفرس كان يعنى ضياع حرية الأيونيين وتصدرهم الحضارة الإغريقيـــة فى حالة انتصار الفرس، وقد تمثل تدهور هذه المستعمرات فى هجرة مفكرين من أمثال فيثاغورس واكسانوفان إلى مناطق لا يصلها المد الفارسى فى جنوب إيطاليا (1)

تقع أثينا فى موقع من شبه جزيرة اتيكا جعل منها مركزاً اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا لشبه الجزيرة ولم تكن ظروفها تسمح بسيطرة مطلقة لطبقة واحدة على الانتاج ومن ثم التسلط السياسى المطلق . ذلك لأنها لم تكن تعتمد على مورد واحد للانتاج سواء فى الزراعة أو الصناعة أو التجارة ، بل كان اعتماد المجتمع الأثينى على هذه الموارد متعادلا ومتكاملا ، ومن ثم كان وضع الطبقات بدوره متعادلا متوازيا * الأمر الذى مكن لقيام الديمقراطية .

---

1 — V. Ehrenberg : From Solon to Socrates

* تلعب فكرة التوازن equilibrium دورا هاما فى الفكر الاغريقى : توازن الطبقات فى السياسة ، توازن بين النفس والجسم فى الفن الكلاسيكى ، توازن بين الدفاع والاتهام فى القضاء ، تكافؤ الأدلة لدى الشكاك ، توازن قوى النفس الثلاثة ليلزم عن ذلك عدالة لدى أفلاطون ، الوسط العدل بين افراط وتفريط فى الفضيلة لدى أرسطو .

وكان لدى أثينا مساحة لا بأس بها من الأراضى الزراعيـــة تكاد تكفى لضرورات الحياة وذلك حتى القرن السادس ق.م ، لم تكن دون الضرورى من القوت فيهجرها أهلها ولا فى رغد. يتيح تسلط طبقة ملاك الأرض ، كان أغلب الانتاج من الكروم والزيتون وبعض الشعير وقليل من القمح ، وبازدياد عدد السكان وتزايد احتياجاتهم اتجه الاثينيون إلى الخارج إلىسواحل البحرالأسود حيث الحقول الغنية بالقمح ، وكان لابد أن تزيد احتياجاتها بإقامة مستعمرات لها من جهة وتأمين مناطق النفوذ وطرق القوافل البحرية التجارية ، فأنشأت لنفسها أسطولا تجاريا وحربيا بعد أن اشتبكت فى صراع رهيب مع المدن الأخرى ، وقد أدى ذلك إلى ظهور طبقتين : طبقة التجار من جهة وطبقة الملاحين وعمال الشحن والتفريغ من جهة أخرى، ومن ثم أصبح النظام السياسى انعكاسا للتوازن بين هذه الطبقات الثلاثة ملاك الأرض والتجار والعمال .

على أن ذلك لا يعنى أن أثينا منذ نشأتها أو طوال تاريخها لم تعرف غـــير الديمقراطية،وإنما اكتسبت زعامتها لمنطقة اتيكا بفرض الملك تيسيوس Theson الوحدة عليها مما مكن لنظام حكم مطلق يخضع القوى الأخرى لسيطرة أثينا (١) ، ولكن أثينا قد تجاوزت هذا النظام الملكى الذى عنده توقفت عـــدة مجتمعات فبدلا من أن يظل الحكم وراثيا انتقلت السلطة إلى قائد من الارستقراطيين *

---

(١) د. لطفى عبد الوهاب يحيى : الديمقراطية الأثينية دراسة فى النظام السياسى الشعبى ص ٩٩ نقلا عن ثيوكيديدس .

* يشير أرسطو إلى أن أحد الملوك كان غير قادر بسبب كبر سنه على قيادة الاثينيين فى احدى الحروب فانتقلت السلطة إلى قائد عسكرى يسمى البوليماركوس ومعناها الحرفى قائد الجيش أو رئيس الحرب ، أرسطو وترجمة طه حسين : نظام الاثينيين ص ٤٥ نشرة دار المعارف سنة ١٩٢١ .

وتبع ذلك انتقـــال السلطة التنفيذية إلى الحاكم أو الاركون Archon وهو من الارستقراطيين ثم انتقلت السلطة القضائية إلى ستة موظفين فلم تصبح للملك إلا سلطة رسمية .

على أن الحروب المستمرة بين المدن كانت عاملا مؤثراً فى التحول من السلطة المطلقة ، إذ كانت هذه الحروب من الضراوة بحيث تؤدى الهزيمة إلى خراب تام المدينة واتخاذ مواطنيها أسرى ، فكان لابد لهم أن يشاركوا فى تحمل تبعاتها ومسئولياتها ، ولكن طبقة ملاك الأرض كانت مع ذلك صاحبة السلطة منذ أن ورثتها من الملك منذ القرن الثامن قبل الميلاد ، وكان هناك جهاز تنفيذى يمارس أعضاؤه الحكم لمدة محدودة كانت عشر سنوات ثم أصبحت سنة واحـدة منذ عام ٦٨٣ ق‌م وجهاز آخر تشريعى يسمى مجلس الاربوباجوس Arwpagos * عضويته مدى الحياة لأعضاء السلطة التنفيذية بعد أن تنتهى مدة خدمتهم .

على أن ذلك لا يعنى أن تطور النظـام السياسى أو الاصلاح الدستورى كان فى أثينا سليما ، أو أن تركيز السلطة فى أيدى الطبقة الارستقراطية على حساب سائر الطبقات قد أدى فى النصف الثانى من القرن السادس إلى قيام طاغية هـــو كيلون Kilon انتزع السلطة مستعينا بقوة من ميجارا واستمال العامة بسن تشريعات تحد من سيطرة الطبقة الارستقراطية ، ومع أن محاولته باءت بالفشل وانتهت إلى ضائقة اقتصادية إلا أنها نبهت هذه الطبقة إلى ضرورة معالجة الاوضاع بالحسنى وعهد بهذه المهمة إلى دراكون Dracon حوالى عام ٦٢٤ ق‌م وكانت الاصلاحات تتعلق بقوانين الجرائم ولم تكن شاملة لجوانب الحياة فى المجتمع الاثينى ، ومـع ذلك فقد كان أول تشريع دستورى مكن للطبقات المحكومة أن تجد طريقها نحو

---

* سمى المجلس باسم التل الذى يقع عليه تل آريس إله الحرب .

المشاركة فى السلطة وأن تنظم علاقة الحاكم بالمحكوم قوانين تبين الحقوق وتوضح الحدود .

الديمقراطية : من صولون الى بيركليس

على أن إرساء قواعد الديمقراطية إنما يرجع إلى مشرع ذاعت شهرته وأعنى به صولون Solon ، ولد فى أوائل الثلاثينات من القرن السابع ق م. وعاش فترة تمثل ضغط طبقة التجار الصاعدة على الطبقة الارستقراطية بعد أن أصبحت تشاركها فى الثروة ، وكان بشخصه يمثل مصالح الطبقتين ، فهو ينتسب بحكم مولده إلى طبقة ملاك الأرض — وكان نسبه يرجع إلى الملك كادروس — ولكنه جمع ثروته عن طريق التجارة . ومن ناحية أخرى كانت طبقة العامة قد تردت إلى حالة سيئة زادتها الأحوال الاقتصادية نتيجة الحروب سوءا ، فاستدان كثير منهم وانتزعت أملاكهم وبيع بعضهم فى سوق الرقيق وفاء بديونهم وفر البعض الآخر خارج نطاق أثينا خشية العبودية .

وكان صولون قد اكتسب شهرته بعد أن ألهب الإثينيين بأشعاره ليستردوا جزيرة سلاميس التى تشرف على ميناء أثينا وكانت ميجارا قد استولت عليها ، فاستعيدت الجزيرة حوالى عام ٦٠٠ ق م .

تولى صولون منصب الاركون — الحاكم التنفيذى — حوالى عام ٥٩٤ق.م فواجه هذا الوضع المتدهور المتوتر بين الطبقات الثلاثة : صراع الطبقة الصاعدة من التجار مع طبقة الارستقراطيين من أصحاب الأراضى من جهة وسوء حال طبقة العامة من جهة أخرى ومن ثم فانه يمكن تقسيم مشروعاته إلى قسمين :

القسم الأول : ويستهدف التوفيق بين مصالح الارستقراطية والطبقة الصاعدة من التجار : ربط صولون بين الثروة والحقوق السياسية، فأصبح دخل الفرد هو

الذى يحدد مدى تمتعه بالحقوق السياسية ، وكانت هذه الحقوق مرتبطة من قبل بالحسب والنسب ، وهكذا أمكن للتجار أن يصبحوا أعضاء فى المجلس التنفيذى بعد أن كان مقصوراً على الارستقراطيين ، كذلك أقام إلى جانب مجلس الاريوباجوس - الشيوخ - مجلساً للشورى Boule يضم ٤٠٠ عضو - مائة من كل قبيلة من قبائل أثينا الاربعة - وبذلك أتاح مجالا آخر لطبقة التجار ، فكان نتيجة هذه التشريعات أن تحول بعض الارستقراطيين إلى استثمار أموالهم فى شيء آخر غير الأرض ، فاتجهوا إلى البحر وبذلك أصبح لأثينا أسطول تجارى يصدر منتجاتها من الكروم وزيت الزيتون والأوانى المزخرفة إلى بلدان البحر المتوسط ووسط أوربا .

ومع أنه كان من المفترض أن يعارض الارستقراطيون هذه التشريعات ، ومع أن أصدقاء صولون قد نصحوه أن يصبح طاغية ، فإنه رفض مفضلا جانب الاقناع على الإكراه قائلا : الدكتاتورية مقام جميل حقا ولكنها كمقام فوق قمة جبل له طريق للصعود اليه وليس ثمة طريق للنزول منه، وقد حذر الارستقراطيين شعراً وخطابة من الاستناد إلى القوة أو الإعتماد على الثروة فى ارتكاب المظالم ، فليس الخطر على أثينا من عدو خارجى بقدر خطر حرب أهلية أو مجاعة تهددها فضلا عن انتقام الأقدار نتيجة الظلم ، من أجل ذلك تقبل الارستقراطيون إصلاحاته باعتبارها أهون من قيام طاغية يصادر الأملاك وينفى الخصوم ويستميل العامة ويستند إلى الدياجوجية كما حدث من قبل (١) .

القسم الثانى : يستهدف طبقة العامة أو هى إصلاحات ذات طابع إجتماعى، كانت الأراضى مرهونة بسبب ديون أصحابها ، ففك الرهون وألغى الديون

---

1 - Victor Ehrenberg : From Solon to Socrates p. 68.

وأعاد الأرض لأصحابها بعد أن أعاد اليهم الحرية التى سلبوا إياها بسبب الديون، وكذلك حرم اتخاذ شخص المدين ضمانا للوفاء بالدين . وبذلك ألغى العبودية الناجمة عن الدين، تلك العبودية التى كانت تمتد إلى سائر أفراد أسرة المدين إن عجز - وهو غالبا ما يعجز عن سداد دينه ، وهكذا أعاد كرامة المستأجرين والعامة ، كما أفسح لها المجال فى المجلس التشريعى ، حقيقة لقد كان هذا قائما قبله ، ولكنه لم يكن نافذا بسبب سوء الأوضاع العامة الاقتصادية ، فلقمة العيش لهم أبدى وأولى من المشاركة السياسية ، وكان المجلس يضم جميع المواطنين الأحرار ويتحكم فى سلطة كبار الرسميين ويسن القوانين ويعلن الحـــرب ، وأضاف صولون الى ذلك إنشاء المحاكم الشعبية Heliuis التى كان على أعضـــاء الهيئة التنفيذية أن يقدموا لها حسابا عن أعمالهم (١) .

هكذا الشعب أو الديموس « Demos » على حد تعبير أرسطو سيد الدستور وصاحب السلطة فى المجلس التشريعى وفى المحاكم الشعبية ، إذ امتدت إصلاحاته إلى النواحى الاجتماعية والمالية والتشريعية ، أما فى القضاء فقد أصبح من حق كل مواطن نقل قضيته من محكمة إلى أخرى قبل صدور الحكم . وحقه فى أن يقاضى أى مواطن يرى أنه أخطأ ، هادفا بذلك إلى حماية المواطنين من إساءة الرؤساء إستخدام السلطة .

بذلك أقام صولون التوازن بين طبقات المجتمع الثلاثة ، ولقد حدد هـــو هدفه بقوله : فى القرارات الخطيرة يتعذر أن ترضى الناس جميعاً وإن كان يجب أن تتوخى ذلك ، لقد أعطيت الشعب « الديموس» كل مايحفظ كرامته لا أكثر،

---

(١) لطفى عبد الوهاب : الديمقراطية الأثينية - دراسة فى النظــام السياسى الشعبى ص ١١٥ — ١٢٥ .

(٢) أرسطو وترجمة طه حسين : نظام الاثينيين ص ٥٩ — ٦٠

كما حرصت على ألا أجعل الأغنياء تقاسى ضمائرهم من إرتكاب المظالم ، وبذلك بسطت درعى على كليهما ـ الأغنياء والفقراء ـ لم أسمح لأحدهما أن يطغى على حساب العدالة ، وإنما تحسن طاعة الشعب لرؤسائه إذا لم يشتد عنفهم أو يزيد عن الحد اللين معهم ، فالشعب كالفرس يجب ألا يغالى الفارس فى قبض اللجام أو إرساله(١)، ولما سئل هل سن للاثينيين أصلح التشريعات عموما؟ أجاب: بل شرعت لهم أصلح ما ينفع لهم، وهو بذلك لم يعبر فحسب عن أن التشريع إنما يصلح بقدر ما يلائم مجتمعه ، وإنما أكد كذلك وضعية تشريعه ، إذ كان غيره من المشرعين من أمثال ليكرجوس ومينوس وحورابى فى مجتمعات أخرى يزعمون أن تشريعاتهم وحى سماوى . أما صولون فقد عبر عن روح الحضارة الأغريقية فى استبعاد الدين عن مجال التشريع ، وإنما هى قوانين وضعية لا يدعى مشرعها أنها إلهية أو ثيوقراطية .

هكذا خاطب صولون فى الاثينيين قلوبهم وعقولهم وضمائرهم وأحسن التعبير عن روحهم وآمالهم ، وبذلك أصبح الأب الروحى للديمقراطية الأغريقيه بوجه عام والاثينية بوجه خاص ، فشعر كل مواطن أن الحكومة ليست كيانا غريبا عنه مفروضا عليه، وإنما هو جزء منها يشارك فى تبعاتها الأمر الذى أثار فى الفرد الاعتزاز بموطنه ، وقد بدأ الهاربون من الديون العودة إلى وطنهم ليشاركوا العمل من أجل ازدهار اثينا ومجدها .

غادر صولون اثينا فى سن السادسة والستين بعد أن تولى منصب الدركون ـ الحاكم التنفيذى ـ مدة خمسة وعشرين عاما ، غادرها إلى مصر للدرس والتجارة ـ على حد تعبير أرسطو أو لتعلم التاريخ من كهنة مصر فى رأى

---

(١) المرجع السابق ص ٦٣

بلوتارك * وقد نصح الاثينيين قبل سفره أن خير نظام مستقر للحكم أن يطيع المحكومون الحكام وأن يطيع الحكام القوانين ** .

ومع ذلك لا يمكن الادعاء أن الديموقراطية بتشريعات صولون قد استقرت وتوطدت ، لأن الديموقراطية نعمة كسائر النعم التى لا يدرك الإنسان قيمتها إلا بفقدها ، كانت طبقة الارستقراطيين غير راضية تماما عن سلبها إمتيازاتها ، وكانت العامة تأمل أن توزع عليهم أراضى طبقة الارستقراطيين ، ربما كانت طبقة التجار أكثر إفادة عن غيرها من تشريعاته ، ومن ثم فقد ظل التوتر بين الطبقات ممثلة فى أحزابها الثلاثة: حزب السهل ويمثل الارستقراطيين أصحاب الأراضى فى السهول ، حزب الساحل ويمثل التجار ومعظم تجارتهم بحرية ، وحزب الجبل الذى يمثل العامة التى تمارس الرعى فى الجبال ، وقد ترتب على هذا التوتر وعدم الرضى أن الحكم لم يستقر فى أثينا بعد صولون بضع سنين ليستولى على السلطة عام ٥٤٥ ق.م طاغية هو بيزيستراتوس Peisistratos ، ومن الغريب أن صولون كان قد حذر الاثينيين منه : يا أهل أثينا إنى أنفذ من بعضكم بصيرة وأكثر من البعض الآخر شجاعة ، أنفذ بصيرة ممن لا يعرفون غدر بيزيستراتوس وأكثر شجاعة ممن يعرفونه ولكنهم لخوفهم منه يسكتون عنه ، ومع ذلك فقد قام بإنقلاب عسكرى إذ كان قد

---

* نموذج للديمقراطية قولا وعملا : أن يتنازل عن الحكم بإرادته لا أن يفرض نفسه على الرعية إلى أرذل العمر لا يخلصها منه إلا الموت أو الخلع - ثم أن يترك الحكم مؤثرا عليه أن يتعلم وهو فى هذه السن ، هذا وقد سمع من كهنة مصر عن قارة غارقة تسمى أطلنطيس كانت الحياة فيها مثالية ، فقص قصة هذه القارة فى ملحمة ألهمت بعد ذلك كثيراً من كتاب اليوتوبيات من أمثال أفلاطون وبيكون ومور .

** لا أن يطلوا القانون أجازة !!

اتخذ لنفسه حرسا بعد أن جرح نفسه وأدعى أنه إعتدى عليه * ثم هاجم بالحرس الأكربول وإستولى عليه ، وليكتسب شعبية لدى العامة هاجم طبقة الملاك ـ مع أنه منهم ـ حتى إذا توطدت له السلطة انى خصومه من الارستقراطيين لا لأنهم أرستقراطيون وإنما لأنهم خصومه وصادر الأملاك ووزعها على العامة، وألغى الديون عليهم وفرض الضرائب على الأغنياء .

على أنه إذ لم يستطع أن يقضى على الديمقراطية بعد أن أرسى لها صولون قواعد ثابتة ، أبقى على الشكل دون المضمون من الأركون ـ المجلس التنفيذى ـ إلى المحاكم الشعبية إلى المجلس الاستشارى مجلس الأربعمائة إلى مجلس الشيوخ الأريوباجوس كلها تجتمع وتنفض كما كانت من قبل ، ذلك أن التنظيم الديمقراطى إن استبد به حاكم مطلق فإن الأخير إما أن يشل إرادته أو يتخذه أداة لتحقيق مآربه** أو الاثنين معا .

على أن الحق يقال لقد قام بيزيستراتوس ببعض الاصلاحات إذ قضى على البطالة حين وزع الأراضى وشيد الهياكل والمرافق العامة وحفر المناجم وأقام دورة الألعاب الأثينية ، وعقد معاهدات تجارية وتوسع فى إنشاء الأسطول التجارى وأقام لأثينا مستعمرات فراجت التجارة واهتم بالفكر إذ شكل لجنة لصياغة الإلياذة والأوديسه فأصبحت بالصورة التى نعرفها الآن،وهكذا أصبحت أثينا فى عهده تتصدر مدن اليونان ، على أن ذلك لم يكن لدكتاتوريته وإنما لأنه كان على حد تعبير أرسطو أقرب إلى احترام القوانين منه إلى انتهاك حرماتها(١).

* يفتعل الدكتاتور أية حادثة تمكنه من التخلص من خصومه.

** عن طريق الغوغاء والوصوليين .

(١) أرسطو وترجمة طه حسين : نظام الاثينيين ، ويبدو أن الشعب كان من الوعى بحيث لم يمكنه من الطغيان اذ أنه نفى مرتين ولكنه بمناورات ومساعدات خارجية عاد الى الحكم عام ٥٤٠ ق. م.

وبالرغم من رضى الاثينيين عنه حتى كانوا يرددون من بعده : إن الحياة في سلطان بيزيستراتوس لهي الحياة في عصر كرونوس * فقد أدركوا بعد أن تولى ابنه الحكم بعده ان حكم الفرد لا يؤمن جانبه، فعادت أثينا إلى نهج صولون في تقنين النظام وتحديد السلطات وذلك في عهد كليستينز Kleisthenes ومن أهم إصلاحاته :

١ ـ قسم أثينا إلى عشرة قبائل بدلا من أربعة وجعل التنظيم الإدارى أساسه الحى أو منطقة السكن لا الأسرة أو القبيلة وبذلك أحل رابطة المكان المعبرة عن الشعور بالانتماء إلى المدينة من رابطة النسب المعبرة عن الشعور القبلى ، وتمتع كثير من المواطنين بالحقوق السياسية منهم عبيد وأجانب .

٢ ـ دعم الولاء للمدينة بأن أحل عبادة أبطال أثينا محل آلهة الأسر .

٣ ـ أعاد تنظيم المجلس الاستشارى Boule فأصبح ٥٠٠ عضوا عن كل قبيلة ٥٠ عضوا ، وأصبحت النواحى المالية من اختصاص موظفين مسئولين بعد أن كانت تتبع الجهاز التنفيذى .

٤ ـ شرع نظام النفى السياسى الذى بمقتضاه تحكم الجمعية الشعبية على أى شخص، وقانون النفى يعكس تخوف الأثينيين أن يحكمهم طاغية إذ بمقتضاه وبدون إدانة من القضاء يستبعد أى شخص يشك فى نواياه السياسية ، ومع أنه لم يحدث بعد هذا القانون انتكاسة إلى الحكم الفردى المطلق إلا أن الاثينيين تحرزا وتخوفا من

* تنبهر العامة عادة بالإرادة النافذة للدكتاتور وهى تعجب بقسوة ستالين بأكثر من اعجابها بحكمة تولستوى ، وتعبر عن اعجابها بمبالغات ، وكرونوس هو أب رئيس الإلهة زيوس ، وحين مات بيزيستراتوس كان قد مضى على انقلابه العسكرى واغتصابه الحكم ٣٣ سنة منها ١٩ سنة حاكما مطلقا والباقى منفيا .

ظهور واحد منهم كانت تبعد من تخشاهم من القادة العسكريين بصرف النظر عن خدماتهم أو الحاجة إليهم لكفاءتهم فى الحرب .

هذا وقد تضافرت عدة عوامل ساعدت على تثبيت دعائم الديمقراطية ، إذ أن النصر الذى أحرزه الأسطول الأثينى على الفرس فى موقعة سلاميس البحرية ٤٨٠ ق م مكن لطبقة الملاحين والبحارة الذين حققوا هذا النصر ، فازدادت مشاركة العامة فى الحكم على حساب طبقة الأورستقراطيين .

وليست الديمقراطية فى مجرد تشريع وإنما تستكمل مقوماتها بزعامة مستنيرة مستقيمة ، ومن ثم بلغت ديمقراطية أثينا أوجها فى عهد بركليس الذى حكمها أكثر من ثلاثين عاما (٤٦١ - ٤٢٩ ق.م) ، تعلم بيركليس من فيثاغورس واستمع إلى زينون الإيلى وتتلمذ على انكساغوراس ، لم يكن فى خطبه يخاطب عواطف الجماهير أو يسعى إلى استثارة انفعالات الدهماء وإنما كان يخاطب العقول المستنيرة الأمر الذى خلد خطبه وجعل منها دروسا فى الديمقراطية . جعل العامة أو بالأحرى الطبقة الرابعة من حيث الدخل حق الانتخاب للمجلس التنفيذى (الاركون) ، وقد اكتسبوا هذا الحق بعد دفاعهم عن أثينا وانتصارهم على الفرس . وأصبحت الأحكام القضائية من اختصاصات المحاكم الشعبية ، وشجع الأعضاء على حضور جلسات المجالس الشعبية بمنح مكافآت على حضورها وكذلك بالنسبة للقضاة والمحلفين فى المجالس القضائية ، وإن كان قد انتقده على ذلك فلاسفة أرستقراطيون كأفلاطون وأرسطو إذ اعتبروه أنه بذلك قد أفسد أخلاق الأثينيين ولكنهم تناسوا أنه دعم الرابطة العضوية بين المواطن ومدينته بمشاركته فى أنظمتها السياسية والقضائية ، ولقد عبر بيركليس نفسه عن ذلك فى خطبته الجنائزية التى ألقاها تكريما لمن سقط من أبناء أثينا فى ساحة الحرب مع

اسبرطه : إن الاثينيين قد وقعوا فى حب مدينتهم كما لو كانت عشيقة لهم ، إننا نوفر قدراً متساويا من العدالة للجميع ، كما أننا نجد الموهبة أيا كان مجالها ، لأن التفوق (الاريتيه) جدير عندنا بالتمجيد ، إن لدى كل رجل فينا وقتا يكرسه لشئونه الخاصة ولشئون مدينته ، بل إن أصحاب الأعمال أكفاء أيضا فى الشئون السياسية ، إن البعض يدعو من لا يشترك فى الحياة العامة رجلا مسالما ، أما نحن الاثينيين فنعتبره رجلا لا فائدة منه ، فينا خطباء ولكنا لا نعتبر الكلام عائقا عن العمل بل مقدمة ضرورية له ، بل إن الأعمال التى يقدم عليها المرء دون مناقشة لا بد أن يكون مصيرها الفشل المحقق . إننا نسمح لأى إنسان بدخول مدينتنا ولا نطرد الأجانب مخافة أن يروا أكثر مما ينبغى ... إن أثينا مدرسة لكل بلاد الإغريق .

هذه خطبة ألقاها بيركليس عقب أحرج امتحان امتحنت فيه ديمقراطية أثينا ، إذ كانت لتوها قد هزمت أمام الدكتاتورية العسكرية لاسبرطه ومن ثم أراد أن يثبت أفئدة الأثينيين فلا يتزعزع إيمانهم بديمقراطية مدينتهم إزاء هذا الامتحان العصيب ، ولقد كان صادقا فى كل ما قال ، إذ كان المواطن قد ارتبط بمدينته برابطة عضوية لأنه ينظر إليها على أنها حياته ونشاطه ومصيره ، يشارك فى تبعاتها فى السلم والحرب معا ، كانت المدينة بالفعل هى عشيقته ، والواقع أن بيركليس قد عبر عن الروح الاغريقية فى ميلها إلى عبادة الذات التى تمثلت لديه فى مدينته * ، ولقد أبرزت الديمقراطية مواهب الإغريق حقا ، فخرجت أثينا فى المسرح سوفوكليس ويوروبيدس وفى الفن فيدياس وفى الفلسفة سقراط وأفلاطون ، فكانت بحق رائدة الأدب والفن والفكر ، ولم تكن بتشجيعها

---

* ولكن القوم عندنا قد تمثلت عبادة الذات فى تعصب أعمى لنادى من الأندية الرياضية!

« الاريقيه » مدرسة لبلاد الاغريق كما قال بيركليس فحسب وإنما لكل عصور وسائر الحضارات ، وإذ لم تنجح اسبرطه بسبب دكتاتوريتها شيئا من ذلك ، فان تلك الهزيمة الطارئة ينبغي - كما قصد بيركليس - ألا تفقد الاثينيين إيمانهم بالديمقراطية .

الديمقراطية الأثينية فى الميزان :

لقيت ديمقراطية أثينا نقداً كثيراً من كبار مفكريها وأدبائها ، أما أفلاطون فلم يجد فيها إلى صورة لحكم الغوغاء ، وكان متأثراً فى ذلك بأرستقراطية أسرته من جهة ولاعدام النظام الديمقراطى ممثلا فى المجلس الشعبى أستاذه سقراط * ، هذا وقد أخذ عليها فى بعض محاوراته التسرع أو الارتجال فى أجل المسائل وأخطرها ؛ فضلا عن أنها لا توكل الوظائف إلى متخصصين وإنما إلى أفراد وصلوا إلى مناصبهم بالمصادفة البحتة أو القرعة .

---

* الصورة التى قدمها أفلاطون عن محاكمة سقراط تدين أثينا وديمقراطيتها بوجه عام ، وهى صورة من وجهة نظره ، لا أعنى بذلك صدق ما اتهم به سقراط من افساد عقول الشباب وانما لم يشر أفلاطون الى أن سقراط كان صديقا لعدد ممن عانت منهم أثينا من طغاه وقد تتلمذ بعضهم عليه فضلا عن تهكم سقراط على الديمقراطية ، ومن ثم فانه من وجهة نظر الرجل العادى يعد سقراط مسئولا عما لحق المدينة من أضرار على أيدى الطغاة الثلاثين وعلى رأسهم كالياس وكريتياس ، هذا وقد استعان بعض هؤلاء الطغاة فى سبيل وصـــولهم الى السلطة بقوى أجنبية ، يقول توينبى : كان الحكم بالاعدام على أعظم مواطن على الاطلاق أنجبته أثينا من بين الاجراءات التى رمزت بها الديمقراطية الأثينية على استردادها المدينة من أيدى الطغاة الثلاثين فى عام ٣٩٩ ق م (نفس عام اعدام سقراط) اذ اتهم بأنه المقـل المحرك للرجعية والدكتاتورية . راجع تاريخ الحضارة الهيلينية ص ١٢٣ .

* من ذلك انى كليون وقد كان بائع جلود ثم أصبح زعيا جم غوغاء المجلس الشعبى =

وإن اتهم أفلاطون بعدم الموضوعية بسبب أرستقراطية أسرته وتحيزه لأستاذه فى فترة الديمقراطية، فإن إيزوقراط وقد كان خطيبا سياسيا قد أخذ على المجالس الشعبية اختلاف أفرادها وتشتت آرائهم فى ساعات الحسم ، كما كانت العامة تسيرهم الأهواء ويتلاعب بهم الزعماء الديماجوجيون إذ يكرههم الفقر على الخضوع فيحضرون ماشاء لهم زعماؤهم حضوره من جلسات المجالس الشعبية نظير مكافآت ، كذلك انتقد بقاء الموظف فى وظيفته سنة واحدة لا تتيح له خبرة أو تخصصا ، ثم هو بعد ذلك ناقم كأفلاطون على نظام القرعة .

ووجدت الديمقراطية نقداً مراً فى كوميديا أريستوفانيس ، إذ هى تعنى وقوف العاطلين طوابير منتظرين اقتراع أسمائهم ليكونوا قضاة يتقاضون منحا فى صورة مكافآت ، كما أوجدت الديمقراطية طائفة من الطفيليين الذين يقتاتون على ابتزاز أموال الأغنياء * إذ يدفع لهم هؤلاء خوفا من مقاضاتهم لا لجريمة ارتكبت وإنما تخلصا من الاتهام أمام المجالس الشعبية **

= لمطالبة جزر ميتلن بأن تدفع أضعاف ما كانت تدفعه كحليفة تحت الحماية وإلا ذبح رجالها وسبى نساؤها وأطفالها، وحينما عجز أهلها عن الدفع تقرر ذبح ألف منهم وتمت المذبحة أمام الجيش ثيوكيديدس ج ٣ ص ٩٦ هذا مثال للتسرع أما الارتجال فحينما كان وفد اسبرطه ينتظر التفاوض من أجل الصلح أو الحرب كان المجلس الشعبى مشغولا بمناقشة ارتفاع أسعار السمك !

* تشير مسرحية « برلمان النساء » إلى انقلاب قامت به النساء وتولين الحكم وحينما تشير الزعيمة إلى أن المدينة فى ظل حكم النساء لن تتعرض لعار شهادات الزور أو التجسس أو ابتزاز الأموال يصيح زوجها : بحق الشيطان لا تجردينى من وسيلتى الوحيدة لكسب العيش !

** كان الأغنياء يعتقدون أن المحاكم الشعبية لا تميل إلى تبرئة القادر على دفع الغرامة =

كذلك كان يعاب على ديمقراطية أثينا عدم الاستقرار فى الأحكام إلى حد أن كانت المجالس الشعبية تصدر قراراً ثم تلغيه فى اليوم التالى وهى تطلب التغيير لا لفساد القديم وإنما لمجرد الرغبة فيما هو جديد (١).

كذلك استغل الزعماء الديماجوجيون قانون النفى لابعاد شخصيات من خيرة رجال أثينا بل أنها نفت أقدر قوادها العسكريين فى أكثر الأوقات احتياجا لهم.

قد يقال ولكن ليس عيبا فى التشريع أو النظام وانما فى التطبيق أو الإنسان، إذ ليست الديمقراطية فى أنظمة تشرع فحسب وإنما فى واقع يطبق، وتعتمد صلاحية التطبيق على العامل الإنسانى إلى حد كبير *، ومع ذلك فقد حاولت ديمقراطية أثينا أن تضع القيود التى تحد من فساد الإنسان وأثر ذلك على النظام، إذ يشترط فيمن يرشح لمنصب الأركون (الحاكم التنفيذى) ألا يكون متهما بتهمة أخلاقية أو عاقا لوالديه وأن يكون مؤديا لواجباته العسكرية والتزاماته الضريبية وأن يقدم تمثالا من الذهب للآلهة إن قبل رشوة، كذلك لجأوا إلى نظام الاقتراع فى المحاكم الشعبية ليتحاشوا التأثير على الناخبين فى عملية الانتخاب، ولا يقل عدد القضاة فى القضية عن ثلاثمائة حتى يصعب رشوتهم، ثم لم يكن يحدد أشخاصهم ـ منذ القرن الرابع ـ إلا صباح النظر فى القضية المعروضة، على

= حتى لو كان بريئا، ولقد شكا كريتون أحد أصدقاء سقراط الأغنيـــاء من أن الذى يرغب فى أن يعيش عيشة هادئة مسالمة فى أثينا يلقى عناء كبيراً ذلك أنه يوجـــد أشخاص يرفعون الدعوى على لا لأنى ظلمتهم بل لأنهم يظنون انى أفضل أداء مبلغ من المال لهم عن تحمل أعباء التقاضى.

(١) د. لطفى عبد الوهاب: الديمقراطية الأثينية ص ٢٥٠ - ٢٦٠. وراجع أيضا: على نور: أرلستوفانيس ص ١٤، ٦٠.

* ومن ثم يقال قانون جائر فى يد قاض عادل خير من قانون عادل فى يد قاض جائر.

أن ذلك كله لم يحل دون تلك المآخذ على ديمقراطية أثينا التى بدت فيها فى بعض الأزمان أقرب إلى الديماجوجية ، يقول ممفورد : والواقع أن النظام السياسى فى أثينا كان اختياراً تعسا بين حكم الأقليات أو الطغاة أو بين ديمقراطيات وصل إلى الزعامة فيها أشخاص تعوزهم الكفاءة والعلم والتخصص ، ويكفى للدلالة على ذلك أن الزعماء الذين أعقبوا بركليس على التوالى : بائع قنب وبائع أغنام وبائع جلود وبائع سجق !! (١).

ولم يشر هؤلاء الناقدون إلى مآخذ أخرى ، اذ لم تكن هذه الديمقراطية شعبية تماما ، وانما كانت مقصورة على من له حق المواطنة ـ وقد حددها بيركليس بمن ولد من أبوين أثينيين ـ ولم يكن عدد هؤلاء يزيد عن سبع سكان أثينا الذين كان عددهم يتراوح بين ٢٠ ألف ، ٤٠ ألف خلال تاريخها الى جانبهم أكثر من مائة ألف من الرقيق ، بل لقد كان سكان أتيكا يصلون الى أكثر من ربع مليون نسمة ، ولكن كان يتعذر على غير سكان أثينا وما حولها حتى ميناء بيريه أن ينتقلوا اليها للمشاركة فى جلسات مجالسها ، بل لم يكن فى وسع الرقيق أو الأجانب أو النساء رفع الدعاوى فى المحاكم الا عن طريق مواطن أثينى (٢) .

كذلك لجأت أثينا فى اقامة امبراطوريتها الى استخدام وسائل البطش المألوفة لدى الارستقراطيين ، فكانت تمارس الديمقراطية فى داخلها وبين مواطنيها الاحرار بينما تمارس أفظع أنواع البطش والاستبداد فى علاقتها بالمدن

---

(١) ممفورد وترجمة ابراهيم نصحى : المدينة على مر العصور جـ ١ صـ ٢٧٦ .

(٢) ول ديورانت وترجمة محمد بدران : قصة الحضارة جـ ٢ مجلد ٢ قصة الحضارة نقلا عن كتاب : سكان أثينا فى القرنين الخامس والرابع ق م . صـ ٢١ ، ٢٦ .

المجاورة * وكانت ترفض منح الحرية للمدن المجاورة الخاضعة لها، وقد كان ذلك ولیس تحدى إسبرطه هو الذى أشعل نار الحرب بينها ومن ثم ألا تعمر حضارتها طويلا وإنما أن تقضى على حياتها بيدها (١).

على أن هذه المآخذ كلها يجب ألا تجعلنا نغفل عن محاسنها ، ذلك أن الإنسانية لم تعرف بعد نظاما سياسيا وضعيا لم يخل من عيوب، ومن خصائص الديمقراطية أنها تسمح بحرية الفكر والنقد فلا تخفى على الناس عيوبها ، وليس ذلك بعيب فيها بل إنها حسنة لها إذ تسمح بهذا النقد ، كما أن إنعدام النقد فى عهود الدكتاتورية لا يدل على صلاحيتها وإنما هو تكميم الأفواه وصمت كصمت أصحاب القبور .

وما كان أى نظام آخر يصلح بأحسن مما صلحت أثينا بالديمقراطية ، لا لأنها تعبر عن الروح الإغريقية التى تميل إلى الفردية فحسب ** ، بل إن ما أسهمت به من حضارة وفكر فى تراث الإنسانية إنما يرجع إلى ديمقراطيتها ، إنه النظام الذى فجر الطاقات الخلاقة فى الحضارة الإغريقية فى مجالات الفكر والفن والعلم والفلسفة والمسرح ، لا غرو أنه تصدق كلمة بيركليس : إن أثينا مدرسة لكل بلاد الإغريق ، وذلك من خلال ديمقراطيتها التى خرجت عباقرة الرجال ، كان عضو المجلس الشعبى يستمع إلى أقدر المفكرين ، وكان عضو المحاكم الشعبية ملزما بأن يفحص ويمحص ويزن أدلة الطرفين المتخاصمين . وكان المواطنون يحصلون على مكافآت لحضور تمثيليات فى المسارح لا لمجرد الترفيه وإنما لأنها تصقل الفكر وتهذبه

---

* ورثت الحضارة الأوربية عن الاغريقية آفة الاستعمار .

(١) توينبى : تاريخ الحضارة الهلينية ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤ .

** لم تكن أثينا تتقبل تسلط الرجل الواحد إلا على مضض ، وفى مسرحية أنتيجونا لسوفوكليس : لن مدينة لا رأى فيها إلا لرجل واحد لاتعد مدينة (أى تستحيل الحياة فيها) ؟

وهكذا مكنت دولة المدينة لمواطنيها لا أن يعيشوا فقط وإنما أن يعيشوا على حد تعبير أرسطو - على خير وجه .

وما من أحد ينكر أن هذه الديمقراطية كانت رائدة الحضـــارة الغربية الحديثة ، ولقد قدر لها الغربيون ذلك، ومن ثم فإنه أيا كانت مثالبها فإن التاريخ فى نظرهم لن يجد حرجا فى أن يصفح عن جميع زلاتها (١) .

---

(١) ول ديورانت وترجمة محمد بدران : قصة الحضارة مجلد ٢ جزء ٢ ص ٤٢-٤٣ .

الفصل الثاني

اسبرطة : أ – الدكتاتورية العسكرية

ب مدينة بلا حضارة

« كل الذين يستلون السيف بالسيف يهلكون »
المسيح

ليس لاسبرطة من قيمة حضارية تستحق التسجيل ، فلقد إنفصلت في مرحلة من تاريخها عن المسار العام لسائر دول المدن الإغريقية ، تبنت لنفسها نمطا من الحياه أصابها بالعقم الحضاري فلم تنتج فكراً ولا علما ولا فنا ولا فلسفة ، أصبحت كما وصفها توينبي مجتمعا بلا تاريخ ، فليس بين انقاض الإغريق أثر واحد يدل على أنه كان هناك شعب يسكن في يوم من الأيام في هذه الرقعة من الأرض المسماه إسبرطه (١) ومع ذلك فلا بد من التأريخ لها لأنه من جهة استحوذت عليها نزعة عسكرية جعلت منها سوط عذاب لجيرانها ، بل إنها أصابت الحضارة الإغريقية بجراح نافذة فضلا عن أنها وضعت الديمقراطيه الأثينية في امتحان رهيب. ومع ذلك ، ومع إفلاسها الفكري فقد كانت مصدر إعجاب بعض المفكرين ، إستلهم بعض أنظمتها أفلاطون في « الجمهورية » وأثنى على دقة نظامها والصرامة فيها كل من زينوفون وبلوتارك .

ومن الغريب أن خلفيتها التاريخية والجغرافية لا تختلف عن غيرها من المدن الاغريقية بما في ذلك أثينا ، فهي تقع في سهل تحيط به سلسلة من جبال بارون Parron ، ولكن قسوة الحياة دفعتها إلى نمط من الحكم عسكري حتى تفرض سلطانها على ما حولها من مدن تفوقها عدداً وخصبا وحضارة، فلا غرو أن مجتمعا

---

(١) توينبي وترجمة رمزي جرجس : تاريخ الحضارة الهيلينية ص ٦٨ ،

ـ أصله من الدوريين ـ لم يزد على سبعين ألف نسمة يستطيع بسياسة القهر والفتح أن يستعبد جيرانه وأن يجلب من الأسرى مئات الآلاف يسخرهم لجميع مستلزمات الحياة ، ذلك أن الأسبرطى لا يشتغل بالتجارة أو الصناعة أو الزراعة ـ وإنما هو متفرغ تماما للمهام العسكرية .

ويرجع نظام اسبرطة إلى دستور ينسب إلى ليكرجوس Lycurgus عام ٨٨٥ ق م ، ولكن بعض المؤرخين يشكون فى وجوده ، لأنهم يستغربون ويستبعدون أن يتمكن فرد واحد من أن يفرض أعجب وأغرب دستور لا على شعب مغلوب وإنما على طبقة حاكمة ، ولم تكن اسبرطة قبل ذلك تتميز فى أسلوب حياتها عن سائر مدن اليونان ، ولكن من الغريب ـ وكل شىء فى اسبرطه غريب وعجيب ـ أن تبدأ متاعبها بمجرد إنتصارها على المسينيين (٧٣٦ - ٧٢٠ ق . م) ، وذلك أن إنتصار إسبرطة مرتين على مسينا لم يغير حياة المهزومين إلى شقاء وانما المنتصرون ، شقاء أخرجها من تاريخ الحضارة الاغريقية بكل مظاهرها ماعدا المظهر العسكرى إن صح أن تكون العسكرية مظهر حضارة .

يتعلق دستور ليكرجوس فى جانب منه بالنظام السياسى للدولة وفى جانب آخر بأسلوب التربية للمواطنين منذ طفولتهم ، أما الإطار العام الذى يحدد شكل الدولة فلا تبرز فيه ملامح دكتاتورية سافرة لطاغية كما هو متوقع ، على العكس من ذلك ، إذ أن سلطة الملكين ـ وليس ملكا واحداً ـ إنما تحددها الجروسيا أو مجلس الشيوخ ، وهو يتشكل من عناصر ارستقراطية من كبار السن ـ فوق ٦٠ سنة ، فلم يكن للملكين من سلطان إلا تقديم القرابين وقيادة الجيش ورئاسة الهيئة القضائية ، أما مجلس الشيوخ ـ فعدد أعضائه ثمان وعشرون عضواً وإذا خلا مكان عضو فى المجلس يطلب من المتقدمين لشغله أن يمروا صامتين واحداً وراء الآخر أمام أعضاء المجلس ، فمن حياه الأعضاء بأعلى صوت وأطول تحية

أعلن انتخابه، لانه لاضرورة عندهم للاجراءات الديمقراطية المتعلقة بالانتخاب، هذا المجلس من سلطته أن يقترح القوانين ويفصل فى الجرائم الكبرى ويضع السياسة العامة للدولة . ولا يبدو أن هناك قوانين أضيفت أو عدلت من دستور ليكرجوس الذى دام العمل به قرون ، ويجتمع جميع المواطنين الذكور فوق سن الثلاثين فى جمعية عامة Apella حيث تعرض عليها القوانين .

أخذت أسبرطة إذن من الديمقراطية شكلها ومظهرها ومن الدكتاتورية حقيقتها وجوهرها من أجل تفرغ كامل للحرب ، إذ لا يشتغل الاسبرطى كما قلنا بأى حرفة أو مهنة حتى لا تفسده الثروة ! ولا يحتك بغيره من مواطنى المدن الاخرى سواء بالسفر أو بزيارة الأجانب للمدينة حتى لا تفسده الأفكار المستوردة ! ، ولا تشترك إسبرطة فى دورة الألعاب الأولمبية ، وربما كانت أول مجتمع عرف نظام الستار الحديدى * .

أما النظام التربوى فيبدأ منذ الولادة، فلا مكان للمشوهين أو ضعاف الأجسام أو المرضى من المولودين إذ يقضى عليهم منذ ولادتهم ،ولا تحزن الأم ولاتشفق على إعدام وليدها إذ أن ذلك مما يعاب عليها الإحتقار ، ويؤخذ الطفل من أسرته فى سن السابعة لينخرط فى فرقة للاولاد عسكرية يتحكم فيها أقوى الأولاد وأشدهم بأسا وشراسه ، وعليه أن يتحمل قسوة لامجال فيها لإظهار الألم أو الجبن فذلك مما يجلب على صاحبه العار ، ويعيش الطفل عاريا صيفا وشتاء ليعتاد قسوة الحياة فالعرى أكثر تعبيراً وإثارة للجانب الوحشى فى الإنسان ، ولا فرق فى التدريبات الشاقة أو العرى بين فتيان وفتيات . فليس من قيمة خلقية يحرص عليها

---

* راجع فى الفصل السابق تعريض بركليس بهذا النظام فى خطبته الجنائزية : اننا نسمح لأى انسان بدخول مدينتنا ولا نطرد الأجانب خوفا منهم أن يروا أكثر مما ينبغى .

المجتمع إلا قيمة واحدة : تنشئة رجال أشداء ونساء أقوياء الأجسام كي ينجبوا نسلا قويا فى حالة تعبئة دائمة إستعداداً للحرب ، ويتناول الأولاد فى المعسكرات طعاما بسيطا خشنا يطهونه بأنفسهم ويفترشون أعشابا يجمعونها بأنفسهم كذلك، ومن أجل استثارة الشراسة والحيلة يدفع الطفـــل إلى السرقة فإن إكتشف أمره ضرب ضربا مبرحا لا لأنه سرق ولكن لأنه قليل الحيلة حتى إكتشف أمره، ولا يهم من التعليم بأكثر من القراءة والكتابة فى مجتمع لا يهدف إلى شىء سوى العسكرية، ولا يهم من الفنون غير الرقص الجماعى إنعكاسا للحياة الجماعية ، ويظل الرجال فى معسكرات خاصة حتى بعد الزواج الذى تحدده الدولة بسن ثلاثين سنة للرجال وعشرين سنة للفتيات ، ولا مجال للعزوبية إذ هى جريمة كما أن عـــدم الانجاب عار ، بينما يعفى من التدريبات العسكرية من ينجب ثلاثة ومن التزاماته كلها نحو الدولة من ينجب أربعة .

على أن هذا النظام العسكرى الصارم لم يقض فقط على جميع المواهب العقلية، وإنما كل شىء فيه يخالف حقيقته مظهره ، أما المظهر فنظام دقيق صارم وطاعـة مطلقة للقانون يستوى أمامها الكبير والصغير ، فحينما عاد الملك أجيس من حرب منهكا مع أثينا طلب أن يأتيه الطعام فى منزله مع زوجته لأول مرة فرفض مجلس الجيش وقرر مجلس المراقبين أن يدفع الملك غرامة(١) ! هكذا يبدو الجميع أغنياء وفقراء فى مظهر متقشف من المأكل والملبس والمسكن ،ومع هذا المظهر فقدكان لكثيرين منهم ثروات يخفونها لأنهم حصلوا عليها من الرشوة ، وانعكس ذلك على الجندى الاسبرطى الذى يقبل الرشوة بينما يمجد حياة التقشف * ، وإن

---

(١) توينبى : الحرب والمدنية ص ٤٨ .

* وكان يمكن رشوة أعضاء مجلس الشيوخ والقواد بل الملوك بأثمان تتفق مع مكانتهم قصة الحضارة ص ١٦٠ .

إختلس الشاب فرصة الهرب من حياة المعسكرات انغمس فى الملذات ، كان كل شىء فى واقعها مخالف تماما لما هو مسطور فى دستورها إلى حد يظن السامع أو القارىء أنها صورة لأى مجتمع آخر إلا أن يكون إسبرطة،مجتمع يكثر فيه عدد الأولاد غير الشرعيين مجهولىالآباء من أمهاتمتزوجات بينما يتباهىالإسبراطيون أن لا وجود للبغاء بينهم ! يقدم الرجال خاصة كبار السن زوجاتهم لمن هم أكثر منهم فحولة لتنجب الزوجات أولاداً أقوياء ، ومنطقهـــم فى ذلك أنه إذا كان الإنسان يطبق ذلك على حيواناته من أجل تحسين السلالة فأولى أن يطبـق ذلك على نفسه ! ، مجتمع مع فحولة الرجال وشراستهم فهم واقعون تماما تحت سيطرة زوجاتهم ! كانت المرأة الإسبرطية تنعم بمكانة لا تنعم بها أية إغريقية أخرى ، وكن قادرات علىعصيان أوامر الدولة بما لا يقدرعليه الرجال ، وقد برزتمنهن نساء مسترجلات تميزن بالجرأة والتشامخ على أزواجهن ـعلى حد تعبيربلوتارك ـ ويتحدثن بصراحة حتى فى أخطر الأمور(١) ،لقدآلت لهن نصفأملاك إسبرطة بفضل سيطرتهن القوية على الرجال ، وأى رجال ؟رجال محاربوناستطاع ٠٠٠٥ مقاتل منهم أن يصدوا جحافل جيش من الفرس يبلغ أكثر من مليون رجل فى معركة استمرت يومين من عام ٤٨ ق م ، ومع ذلك كانت نساؤهم يعشن عيشة الترف والحرية والإباحية ، ومع هذه الصورة المتناقضة بين ظاهـــر المجتمع

---

* وربما لأن حياة الرجل أطول مدة ممكنة فى المعسكرات وتعرضه للقتل فى الحرب جعلت المرأة سيدة بيتها وصاحبة السلطة فيه وربما لأن العسكرية المسرفة والحيــاة الجماعية فى المعسكرات لم تحطم أنوثة المرأة التى كانت تعنى بعد زواجها من ذلك بقدر ما حطمت رجولة الرجل ، وربما لأن الافراط فى استعراض القوة خارج البيت يؤدى إلى رد فعل عنيف من الخنوع وخمود الطاقة فى اللحظات التى يختلسها الرجل مع زوجته .

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة مجلد ٢ ج ١ ص ١٠٨ .

الإسبرطى وبين حقيقته فهى تبدو طبيعية ، إذ من الضرورى أن يؤدى الكبت إلى التردى إلى مهاوى الفساد الخلق عندما تتاح أول بادرة لحرية التحلل ، وان أتيح للاسبرطى السفر إلى مدينة أخرى فانه كان يثير السخرية والاستهزاء: جاهل عربيد عاطل منغمس فى الشهوات ، يقول راسل : إن الصورة التى قدمها أرسطو صحيحة فى ضوء واقع خبرتنا إذ من الطبيعى أن ينتشر الفساد من سرقة ورشوة وجنسية مشاعة وإغتصاب وتعطل مواهب تحت اسم التفرغ للمهام العسكرية(١).

كان اسم إسبرطه يبعث الرعب فى نفوس مواطنى المدن الأخرى ، إذ كان الإسبرطى يبدو فى الحرب نموذجا للقوة العارية المتوحشة ، ولم يكن لذلك كله من هدف إلا إذلال المدن الأخرى ، إذ لم تكن تعبأ بإمتداد نفوذ الفرس إلى بعض المدن الإغريقية بل كانت عقبة فى سبيل أى حلف لمقاومة الخطر الفارسى ، بل لقد عاونت الفرس على جيرانها أحيانا . فما كان يهمها من مصير الإغريق شيئا، ثم هى بعد ذلك لم تستفد من قوتها شيئا ، لا لأن فكر الإسبرطى قد اصابه الشلل ووقف كجندى فى إستعراض شاهراً سلاحه فى وقت كانت سائر المدن الاغريقية تقيم حضارة فحسب ، وانما لأنه حتى حينما انتصرت على أثينا عجزت تماما عن مواجهة متطلبات السيادة على الامبراطورية التى ورثتها ، انها لم تجن من نصرها شيئا ، مجرد قوة غاشمة وجدت نفسها فجأة أمام حضارة لا تفقه من أمرها شيئا، وفى ذلك يقول أرسطو : إن الدول العسكرية تصلح للبقاء طالما كانت فى حرب بينما تسير الى الدمار بمجرد أن تنتهى من غزواتها ، ان السلام يتسبب فى أن يفقد معدنها صلابته ، والنظام الاجتماعى الذى لا يعلم جنوده كيف يتصرفون فى

1– Russell : History of western philosophy . pp. 114-124.

(٢) توينبى : الحرب والمدنية ص ٦٤ .

حياتهم حين تسريحهم لهو نظام معيب * .

وأسدل الستار على العسكرية الإسبرطية وعلى المدينة كلها بعدهزيمتها المنكرة من طيبة فى موقعة لوكرا Leuctra عام ٣٧١ ق . م ولم تصدق المدن اليونانية بادىء الأمر بنبأ هذه الهزيمة لأن جيش اسبرطة فى نظرهم لا يقهر ، فلقد كان الجندى الاسبرطى يفضل الانتحار على الحياة بعد الهزيمة إذ كان يلاحقه العار أينما حل ، تشيع الجندى أمه قائلة : عد حاملا درعك أو محمولا عليه ، فما أن لحقتها الهزيمة حتى انهارت تماما خصوصا بعد أن ردت طيبة إلى رقيق الأرض الميسينين حريتهم وعاونتهم على إقامة دولة مستقلة عن طيبة (١) .

صورتان متناقضتان لمدينتين لا تزيد المسافة بينهما عن مسيرة يوم واحد على ظهور الجياد ، كان الاثينيون يشيدون بالمحاولة والخطأ صرح حضارة متقلبة ولكنها مبتدعة ، مشاغبة ولكنها حرة ، مفتوحة على الخارج ولكنها أصيلة ، مترفة فى غير تحلل ، متشككة ولكنها بناءة ، تكثر من الكلام فى غير لغو ولا ثرثرة . أما إسبرطة فلم تعرف الحوار المثمر — إذ كل شىء يلقن تلقينا بلا مناقشة — ولا التهكم الساخر ولا التباين المثير ، وأوجز ما يقال فى وصف نظام إسبرطة : كان نظاما السادة فى حقيقتهم عبيد .

هذه الموازنة بين النظامين لتؤكد الحقائق الآتية :—

١ — أن الاسبرطيين قد خلوا من المواهب الفنية والفكرية فى ظل نظامها

---

(١) توينبى تاريخ الحضارة الهلينية ص ١٢٠ ، وول ديورانت : قصة الحضارة مجلد ٢ ج ١ ص ١٦١ .

* والواقع ان الدول ذات الأنظمة العسكرية فى ظاهرها انضباط ونظام وفى حقيقتها تحلل وفساد .

العسكرى وبسبب منه * يقول جورج سارتون : نستطيع أن نسجل تاريخ اليونان دون ذكر لاسبرطة ولا يكون قد فاتنا شيء يذكر .

٢ — ان اسبرطة قد لعبت دورا معوقا لمصالح جيرانها وحضارتهم فضلا عما أشاعته من دمار تام أبان انتصاراتها ، وذلك بدوره لازم عن نظامها العسكرى.

٣ — ومع ذلك فقد لقيت أسبرطة إعجابا بنظامها من مفكرين قدامى كافلاطون وبلوتارك كما لا زالت تقتبس بعض أنظمتها فى المجتمعات الحديثة ** .

---

* سئلت لماذا لم تنجب مصر فى الخمسينات والستينات والسبعينات شخصيات فكرية كالتى أنجبتها فى العشرينات والثلاثينات والأربعينات من أمثال طه حسين والعقاد وأحمد أمين مع أن المفروض أنها أكثر تقدما فضلا عن تحررها من الاستعمار ، ولم أستطع أن أجيب لأن محدثى كان أجنبيا وأغنانى زميل عن الاجابة ، وأذكر أنى ابتسمت اذ لا أعلم لماذا جال فى خاطرى بمجرد سماع السؤال : أثينا واسبرطه .

** أشار بن جوريون فى الاحتفال بعيد ميلاده الماسى الى اقتباس اسرائيل من أنظمة اسبرطه ، ويبدو أن مجتمعا قليل العدد حينما يجد نفسه محاصراً بطوفان بشرى معادى له يجد اغراء فى نظام اسبرطه العسكرى .

الفصل الثالث

الحرب البيلوبونيزية PEIOPONNESIaN WAR

(٤٣١ – ٤٠٤ ق . م)

« يخربون بيوتهم بأيديهم . . . فاعتبروا يا أولى الابصار »
(الحشر آية ٢)

كان الصدام بين أثينا وإسبرطة أمراً مقضيا ، فالتباين بينهما فى أسلوب الحياة كما هو فى العنصر إذ الاثينيون أيونيون بينما الاسبرطيون دوريون ، ولم يصبح من الحرب مفر بعد أن أصبح لأثينا سلطان معنوى على جيرانها بفضل ما بلغته من ديمقراطية وتحضر ، وبفضل انتصارها على الفرس ، ذلك الانتصار الذى أتاح لها سيادة على الحلف حتى أصبحت شبه إمبراطورية ، وهو أمر لا يمكن أن تسكت عليه اسبرطة ، ولقد استمرت الحرب بينهما سبعا وعشرين عاما ، ولكن فى أحرج الأوقات ظلت أثينا تمارس أسلوبها الديمقراطى فى الحياة ، فكان سوفوكليس يعرض فى مسرحياته مشكلات الانسان ، وكان يوربيدس يدين الحرب فى تمثيلياته ، بل استمر أريستوفانيس يسخر فى مسرحياته الكوميدية من الحكام وقادة الجيش ، وكان سقراط مستمرا فى الجدل حول العدالة والخير والتقوى وهو جدل لم يخل من نقد الديمقراطية ووصول العامة غير المتخصصين إلى أعلى مراكز السلطة ، وكان لا بد من اهتزاز الديمقراطية بأثينا بعد هزيمتها فى الحرب * ، وتعرضت أثينا لحكومة الطغاة ، على أنها استمرت معظم فترات

---

* من عيوب الديمقراطية إبان الحرب أن المجلس الشعبى متأثراً بالانفعال اللازم عن سماع =

تاريخها الكلاسيكي تمارس نمطها العام فى الحياة الديمقراطية وتشعه على المدن الأخرى، ولا يعنى ذلك أن أثينا لم تعرف العنف الذى مارسته اسبرطة فى سياستها الخارجية أو فى حروبها التوسعية ، بل لقد مارست ذلك كله فى إخمادها لثورات بعض المدن التى كانت تريد الانفصال أو الجزر المحايدة مثل ميلوس .

عجزت إسبرطة عن أن تفرض سيادتها على العالم الاغريقى ثمرة إنتصارها ، وحينما هزمتها طيبة عام ٣٧١ ق . م انتهى الأمر بزوال سيادة اسبرطة على هيلاس، وقد حاولت أثينا أن تستعيد سلطانها ولكن الامور كانت قد تغيرت وانتهى الأمر بالتردى إلى حالة من الفوضى ، ذلك أن الازدهار الاقتصادى الذى كان قائما فى القرنين السادس والخامس قبل الميلاد بسبب رواج صادرتها قد بدأ فى الانكماش بسبب المنافسة الحادة من المدن الأخرى فضلا عن تزايد السكان بما لا تتحمله الموارد الاقتصادية ، وهكذا التقت الفوضى السياسية مع الأزمة الاقتصادية فى القرن الرابع ق م ، وكان لا بد من تغيير جذرى إذ لم تصبح دولة المدينة تفى باحتياجات المواطن ، لقد إستنفدت أغراضها بالرغم من تعبيرهـــا عن روح الاغريقى الاستقلالية ، هكذا آلت الأمور على مسرح الأحداث الاغريقية حين آن للاسكندر الظهور .

ومن ناحية أخرى لقد كانت نزعة الاغريقى الاستقلالية أقوى من شعوره بقومية سياسية ، إذ لم يكن يتصور إلا أنه إن تجاوزت الوحدة حدود مدينته فانها ستنال من حريته وهو على غير إستعداد للتنازل عن سيادة مدينته وإستقلالها باسم قومية إغريقية إذ تعد هذه فى نظرة عبودية ، ولذلك تعاقبت الحروب التى انهكت المدن ،

= نبأ غرق بعض البحارة فى عاصفة لجأ إلى أن يصدر حكما باعدام بعض قادة الأسطول وعزل ونفى آخرين بالرغم من بطولاتهم ، ولم تنفع معارضة سقراط الذى كان رئيس الجلسة ، وبهذا الحكم خرجت أثينا من خيرة قوادها وضعف الأسطول وكان ذلك من عوامل هزيمتها .

بل لم يكن الاغريق فى أية مدينة يتورع عن الاستعانة بقوة بربرية - بالمفهوم الاغريقى - ضد مدينة إغريقية أخرى ، الأمر الذى أدى إلى تحكم الفرس وفرضهم سيطرتهم على بعض المستعمرات ، بل بلغ الأمر أن عمل بعض الاغريق كجند مرتزقة فى فصائل الجيش الفارسى ، ذلك أن الفرس أغروا مواطنى بعض المستعمرات بمميزات تجارية نعموا فى خلالها برخاء لم يعرفوه فى ظل سيادة أثينا أو اسبرطة ، بل بلغت النزعة الانفصالية بهم حداً أن عاونت اسبرطة الفرس على سائر المدن حينا وعاونت أثينا الفرس على إسبرطة بعد أن هزمت الأولى فى الحرب البيلوبونيزية حينا آخر ، وهكذا يتبين أن كل مدينة كانت على إستعداد أن تعمل أى شىء لتحول دون زعامة أية مدينة أخرى على أرض هيلاس الأمر الذى أدى إلى انها كهم جميعاً ، كانت النزعة الانفصالية شيئاً فى صميم طبيعة الروح الاغريقية ، إن فرضت عليهم الوحدة فكأنما فرضت عليهم العبودية يلتمسون شتى الوسائل ولو بقوى أجنبية لتخلصهم منها ، فحينما تمكن الطاغية ديونيسيوس من فرض الوحدة على المدن والمستعمرات الاغريقية فى الغرب ، أعاد الانفصال الغريزى فى الروح الاغريقية الأمر إلى نصابه والتمسوا فى سبيل ذلك مساعدة الايطاليين تماما كما كانت مستعمرات الشرق أو أرض هيلاس تلتمس مساعدة الفرس ضد سيطرة أية مدينة أغريقية .

وهكذا أثبتت حرب استمرت سبعا وعشرين سنه بين أثينا وإسبرطة لاتكاد تهدأ حتى تثور عجز أية مدينة عن أن تفرض سلطانها على سائر المدن والجزر والمستعمرات لأن الروح الانفصالية فى الاغريق أقوى من الشعور بالقومية ، وأن هذه الروح الانفصاليه قد بلغت حد الاستعانة بقوى أجنبية سواء الفرس شرقا أو الايطاليين غربا أن شعرت المدن خطر أية قوة صاعدة من إحداها أن تفرض عليها سلطانها ، وإن هذه الروح الانفصاليه بما أدت إليه من حروب

متواصلة بين المدن قد تركت جرحا بل شرخا غائراً فى الكيان الاغريقى عجزت معه الوحدة التى فرضها المقدونيون — فيليب وإبنه الاسكندر — أن تجمل هذا الجرح يندمل أو الشرخ يلتئم ، إذ لم توقف هذه الوحدة أثر النزيف الداخلى الذى ظلت تنزفه الروح الاغريقية فى فترة فتوتها وشبابها الأمر الذى أتى على هذه الحضارة ولم تعمر طويلا إذ أتاها أجلها بسبب هذا التمزق انتحارا ، وحينما جاء الاسكندر الملاج كان من جهة قد فرض عليها مايخالف طبع أصيل فيها، وكان من جهة أخرى قد فات الأوان.

مظاهر الحضارة الاغريقيه

الفصل الرابع

المظهر الأول : الفلسفة

« أيتها الفلسفة يا توأم الفضيلة ، ماذا كنا نكون وماذا كانت تكون حياة الناس لولاك »

شيشرون

١

الفلسفة اهم مظهر لعبقرية الاغريق :

هناك صلة وثيقة بين المظاهر الثلاثة التى انفردت بها العبقرية الإغريقية بين الحضارات القديمة ، وأعنى بها الديمقراطية والفلسفة والمسرح ، ومن ناحية الفكر الفلسفة أكثرها أهمية وأبعدها أثراً فى تراث الإنسانية، إنها فلسفة الشرق الأدنى منذ فتوحات الإسكندر ، وهى فلسفة الغرب منذ إستولى الرومان على بلاد اليونان ، إذ كان للرومان السيادة السياسية بينما كان لليونان السيادة الفكرية ، وحينما قامت المسيحية أصطنعت هذه الفلسفة ، فالفكر الأوربى فى العصر الوسيط إنما تشكله على حد تعبير توينبى عقيدة العبرانيين وفكر اليونانيين ، كذلك تأثر بها فلاسفة الإسلام إذ كان شغلهم الشاغل التوفيق بين عقيدة الإسلام وفلسفة اليونان، وإذا كان مفكرو الغرب المحدثون يرجعون أصول حضارتهم الحديثة إلى اليونان فان الفلسفة الحديثة مهما تباينت مذاهبها وتنوعت اتجاهاتها فانها يمكن أن نلتمس لها بذور أو جذور لدى فلاسفة اليونان ، بل إن هناك من يذهب إلى أن شتى تيارات الفكر الحديث إنما تتأرجح بين قطبى الفلسفة اليونانية : أفلاطون وأرسطو ، تميل تارة إلى هذا وطوراً إلى ذاك أو تقف بين بين .

ويثار دائما تساؤل عن سر انفراد اليونان بنشأة الفلسفة فيها، ولاشك أن أهم هذه العوامل هى :

١ - ضعف سلطة الدين : وقد سبقت الإشارة إلى الفراغ العقائدى الذى خلفته صورة مهزوزة عن الآلهة ، وأديان لا تشبع ولا ترضى الوجدان ، فكان أن ملأ هذا الفراغ جزئيا أديان ونحل شرقية ، ولكن كان لابد من نتاج فكر يونانى خالص ، فكانت الفلسفة التى نشأت لتجيب على تساؤلات الإغريق حول موضوعات وجد فيها أهل الحضارات القديمة إجابة مشبعة مرضية فى أديانهم : كيف نشأ الكون ؟ ما هو أصل الإنسان ؟ وما مصيره بعد الموت ؟ لا غرو إذن أن تكون المشكلة الفلسفية الأساسية لدى فلاسفة اليونان السابقين على سقراط هى مشكلة الوجود ، لأن أديان اليونان لا تقدم الجواب ، كما لم تعد تصلح الأساطير لمجتمع دخل دور التحضر منذ القرن السادس قبل الميلاد .

ومن ناحية أخرى لم تعد هناك سلطة كهنوتية تقيد الفكر وتفرض عليه عقائد معينة لا يستطيع عنها أن يحيد ، وسواء أكانت سلطة الكهنة قاصرة لضعف الدين أم كان الدين غير راسخ فى قلوب الإغريق لغياب سلطة الكهنة فإن هذا وذاك قد أتاحا حرية الفكر ونشأة الفلسفة .

٢ - النزعة الفردية ونظام « دولة المدينة » : كانت حضارات الشرق القديم تعيش فى ظل سلطات مطلقة تفرض السيادة وتملى العقيدة ، فلا يستطيع فكر حر أن ينمو فضلا عن أن يزدهر ، بينما عاش الإغريق فى ظل مدن يكفل إستقلالها بعضها عن بعض حرية الحركة ، وعن حرية الحركة تلزم حرية الفكر ، فحينما إتهم فيلسوف بالتعرض لآلهة المدينة فانه فر إلى مدينة أخرى كما حدث لكل من إنكساغوراس وأرسطو .

وإذا كانت الروح الفردية الإستقلالية لدى الإغريق قد دفع ثمنها غاليا من حروب متصلة بين المدن فإنه ربما قد جنى ثمار هذه النزعة حرية فكر كفلت اشباع

حاجته إلى التفلسف ، فأيا كانت عيوب نظام دولة المدينة إذا قورنت بنظام الإمبراطوريات القديمة التى نعمت بالوحدة القوميـــة ، وأيا كانت مثالب الديمقراطية الأغريقية إذا قورنت بأنظمة نعمت بالإستقرار السياسى ، فإنه فى رعاية نظام دولة المدينة فقط وفى ظل الديمقراطية ليس غير كان يمكن نشـــأة الفلسفة .

وإذا كانت عناصر شرقية قد تسربت إلى الفكر الإغريقى وبدت ملامحها واضحة فى بعض المذاهب الفلسفية كالفيثاغورية والأفلاطونية فإن هذه العناصر بدت يونانية خالصة بعد أن أضفت عليها العقلية اليونانية شيئا من خصائصها ، إذ كانت هذه العناصر عقيمة بل قاصرة عن أن تنجب الفلسفة فى موطنها .

٢

ما قبل سقراط :

تبدأ الفلسفة من مشكلات فكرية لا تجد لها فى العقل حلا حاسما ، وإنما يقدم الفلاسفة لها عدة حلول فى صورة مذاهب ونظريات ، ذلك أن الحقيقة الكامـــلة عسيرة المنال فضلا عن أنها متعددة الجوانب ومن ثم تعذر أن يحيط بها عقـــل فيلسوف واحد ، ومن ناحية أخرى لا ترضى الفلسفة عن التقليد، وإنما لا يكون الفيلسوف فيلسوفا إلا إذا خالف أستاذه طلبا للحق ، إذ الحق أحق أن يتبع .

ومشكلات الوجود أو العالم الخارجى كانت أولى المشكلات الفلسفية ظهوراً بعد قصور أديان اليونان عن تقديم الجواب ، فتساءل أول الفلاسفة ، طاليس ، عن أصل الوجود : ما هو ؟ أصل واحد أم أصول متعددة ؟ أصل مادى أم غير ذلك ؟ وتباينت أجوبة الفلاسفة الأولين ، ولكن كان من الطبيعى أن تكون المدرسة الطبيعية التى ترجع الوجود إلى أصل مادى هي أول المذاهب ظهوراً ،

لأن أغلب هؤلاء الفلاسفة كانوا علماء طبيعيين ، ولأن ما هو محسوس أقرب إلى الفهم والتصور مما هو معقـــول ، ومن ثم كانت المادية والآلية أول المذاهب الفلسفية ظهوراً .

وبتأثير من إرتقاء علوم الرياضة والفلك والموسيقى قدم الفيثاغوريون تفسيراً آخر للوجود ، إذ العالم عدد ونغم ، ومن جهة أخرى وبتأثير عقائد شرقية أو بالأحرى أورفية بدأت تصورات للنفس الإنسانية لم تعرفها العقلية اليونانية من قبل .

وتشعبت المشكلات الفلسفية : الوجود أصل واحد أم أصول متعددة ؟ وإن كان أصلا واحداً فكيف يمكن تفسير تنوع الموجودات،وان كان أصولا متعددة فكيف يمكن تفسير الوحدة العضوية للوجود ؟ وهل الوجود ثابت أم متغير ؟ وإذا كان الوجود ماديا فكيف يمكن تفسير النفس وظواهرها كالحياة والإحساس والادراك ؟ .

وبدت فى الفلسفة ظاهرة الاستقطاب بين تغير هيرقليطس (كل شىء فى تغير مستمر) وبين ثبات بارمنيدس (الوجود واحد لا يتغير) ، وذلك لازم عن تنافر مصدرى المعرفة : الحواس والعقل ، ومن ثم بدأت أصول فى مبحث المعرفة (الابستمولوجيا) كما وضعت بذور علم المنطق .

على أنه بدا لبعض الفلاسفة أن الحقيقة لا تنال بالتطرف والاستقطاب وانما بالتوفيق والتلفيق ، فنشأت مذاهب تلفيقية لدى الطبيعيين المتأخرين .

وبدا قصور المادية والآلية فى تفسير ما فى الوجود من ترتيب وتنسيق،إذأن الصدفة لا تخلق نظاما ، فقام انكساغوراس (٥٠٠ — ٤٢٨ ق. م) ليقول انه العقل ألطف الأشياء وأصفاها مفارق للمادة . قادر على تنظيمها عليم بكل شىء ،

فكان لفكرة العقل أو نوس Nous شأن كبير فى الفلسفة ، فهى نقطة البدء فى ظهور المذهب العقلى وفى إحلال الغائية بديلا عن الصدفة العمياء ، وكان قبل ذلك بقليل قد قال هيرقليطس (٥٣٠ — ٤٧٥ ق م) بالكلمة Logos قانونا الوجود وهى فكرة بدورها خطيرة الشأن خصوصا فى الفلسفات الدينية وعلى الأخص المسيحية : دينا وفلسفة .

وكانت المذاهب الفلسفية فى ذلك كله وثيقة الصلة بالعلم بل كانت أم العلوم ، إرتبط العالم الطبيعى بالمذهب الطبيعى لدى الأولين والمتأخرين ، كما أصبحت الرياضة مدخل الفلسفة لدى الفيثاغوريين إذ إنعكس التصور الرياضى عليها ، ووصلت الفلسفة اليونانية قمة التجديد والعقلانية لدى الإيليين ممثلى النزعة الميتافيزيقية فى الفلسفة وكما تعددت المذاهب تشعبت المناهج ، فنهج الطبيعيين غير منهج الرياضيين وذاك مغاير لجدل الميتافيزيقيين وخاصة لدى زينون ، وأصبحت هذه المناهج أصول الجدل كما أصبحت أدق وسائل التفلسف .

٣

السوفسطائية وفلسفة الحضارة :

الانسان مقياس الأشياء جميعا — بروتاغوارس

الفكرة الشائعة عن أن الفلسفة تدور حول موضوعات منعزلة عن حياة الناس وتفكيرهم إنما هى فكرة خاطئة ، فلقد كانت الفلسفة اليونانية دوما مؤثرة فى حياة الناس وتفكيرهم ونظمهم متأثرة بذلك كله ، ينطبق ذلك على الفلسفة اليونانية وعلى غيرها من الفلسفات .

على أن هذه الصلة الوثيقة بين الفلسفة وبين المجتمع لم تبلغ فى اليونان عند مذهب فلسفى كما بلغت لدى السوفسطائية تلك الحركة التى أظهرتها الظروف السياسية والإجتماعية فى القرن الخامس قبل الميلاد ، إذ نعثر

السوفسطائيون * الفلسفة لخدمة العامة ولم يروا فيها رأى الأولين من نظر مجرد فى الوجود .

لقد وصف شيشرون سقراط بأنه أنزل الفلسفة من السماء وأودعها المدن وأدخلها البيوت وجعلها ضرورية لكل بحث فى الحياة والأخلاق ، وتلك العبارة تصدق تماما على السوفسطائيين ، لأن سقراط يختلف معهم مذهبا ولكنه لا يختلف معهم فى موضوع الفلسفة : الإنسان والأخلاق والحياة(1) .

كان الفكر الفلسفى قبل ظهور السوفسطائيين متجها نحو العالم الخارجى مستغرقا فيه، ولكن الظروف السياسية والاجتماعية قد حولت مسار الفكر إلى الإهتمام بالإنسان ، وكان السوفسطائيون هم رواد هذه الحركة ولقد اختلفوا عن الفلاسفة السابقين فى الموضوع والمنهج والغاية ، فهم قد اتخذوا الانسان وحضارته موضوعا لهم بينما شغل الفلاسفة السابقون بالوجود الخارجى ومشكلاته وانتهجوا منهجا تأمليا جدليا من أجل وضع مبادىء عامة لتفسير الوجود، أما السوفسطائيون فقد شغلوا بجزيئات الحياة ومن ثم كان منهجهم واقعيا تجريبيا إن صح هذا التعبير، وهدف الفلاسفة نظرى إذ يتحرون البحث فى الحقيقة أما غاية السوفسطائيين فعملية إذ يلقنون تلاميذهم ما يعينهم على الحياة .

ويعد أفلاطون وأرسطو مسئولين عن الفكرة السيئة التى شاعت عنهم ، إنهم بائعو سلع عقلية لأنهم يتلقون أجرا على دروسهم** ، أو أنهم أدعياء الحكمة

---

* ـ المعنى الحرفى للفظ يعنى أنهم معلمو حكمة أو بيان

1 – Zeller Oulines of the history of Greek philosophy p. 70

** لا نستطيع أن نوافق أفلاطون بنظرته الارستقراطية على أن تقاضى الاجر على التعليم مما يشين ، راجع مناقشة راسل لهذه الفكرة فى كتابه تاريخ الفلسفة الغربية ، ولم يرد الى السوفسطائيين اعتبارهم الا فى القرن ١٩ حينما نشر Grote ،G.جروته كتابه تاريخ الأغريق

أو منتحلوها ، حقيقة لقد كان فى خلقهم ما ساعد على ازدرائهم وهو استعراض علمهم بثقة مبالغ فيها، إلا أنه لا يصح أن تقاس آراؤهم بمعيار الفلاسفة، فهم لم يبدعوا الدجماطيقية المذهبية * المعروفة عن الفلاسفة ، لقد كان ظهورهم تلبية لحاجة فكرية فى المجتمع الاغريقى بعامة والاثينى بخاصة فى القرن الخامس قبل الميلاد .

لقد سبقت الاشارة إلى أن الديمقراطية الاثينية قد أوصلت إلى الزعامة أناساً أميين أو على الاقل غير متخصصين ، كذلك كان الأمر فى المجالس الشعبية حيث كانت تعرض أخطر الموضوعات . فضلا عن أنه أصبح فى إمكان كل مواطن حر أن يجد نفسه بالقرعة قد أصبح قاضيا ، ومن جهة أخرى زادت القضايا أمام المحاكم وشاع الجدل القانونى والسياسى ،فنشأت الحاجة إلى تعلم الخطابة وأساليب الجدل واستمالة الجماهير ومن ثم إلى معلمى خطابة أو بلاغة أو بيان أو أى موضوع يتعلق بمشكلات الحياة العامة . ولقد كان من الضرورى أن يتاح لأبناء الأسر الارستقراطية العريقة الذين هم ضحية الديمقراطية سبل النجاح فى المجتمع الجديد بعد أن لم يصبح العرق أو الحسب وسيلة لذلك ، كان لا بد للشباب الارستقراطى من أساتذة يعينوهم على مواجهة مقتضيات الحياة ،ومن هنا جاءت عبارة السوفسطائيين إن التفوق أو الأريتية <u>Arete</u> إنما ينال بالتعليم .

وهناك ظروف خارجية أعانت على ظهور الحركة ،ذلك أن احتكاك الاغريق بالشعوب الأخرى كالفرس والمصريين والبابليين سواء أكان الاحتكاك بالحرب أم بالرحلات قد أدى بالاغريق الى التساؤل عن اختلاف الأنظمة والعادات والعقائد ، هل يمكن أن تكون أنظمتهم مقدسة وعقائدهم مطلقة وأمم ذات

I - Ibid : p. 72

* أعنى بالدجماطيقيه النزعة التأكيدية أو القطعية أى أن يزعم الفيلسوف أن مذهبه هو الحق وأن سائر المذاهب خطأ ،

حضارات تخالفهم فيها أم هى وضعية متغيرة ؟ هكذا تسرب الشك إلى المبادىء الخلقية والعادات الإجتماعية والمعتقدات الدينية وظهرت فكرة نسبية الأحكام وذاتية المعايير .

هكذا بدا السوفسطائيون ممثلى عصرهم بما فيه من تغير وصراع : القديم بقيمه وتقاليده والجديد بآماله وأفكاره فكانوا أساتذة الجيل الجديد ، غرسوا الشك بديلا عن الدجماطيقية العقائدية ، وكانوا معبرين عن روح حضارتهم فى عصرهم تماما كفلاسفة عصر التنوير فى القرن الثامن عشر ، فحل التسامح فى قبول الرأى ونقيضه عن الحقيقة الموضوعية المطلقة ، يشير بروتاغوارس على سبيل المثال إلى أن الآلهة موجودون بالنسبة لمن يعتقد بذلك غير موجودين بالنسبة لمن لا يعتقد ذلك * ، هذه هى النسبية اللازمة عن عبارته : الإنسان مقياس الأشياء جميعاً ، ثم هو يثير الشك بقوله : إنه لا يعرف عن حقيقة الآلهة شيئا لغموض الموضوع وقصر الحياة ، مثال آخر هو جورجاس : صاحب القضايا المتعارضة وعبارة ما من دليل إلا وينهض مقابله دليل ، حتى أصبحت براعة السوفسطائى تقاس بمقدرته على تدعيم أوهى الدعاوى ، وإن كانت الفلسفة الحقة تدين الشك الهدى ذلك أن الحكمة الأصيلة لا تهدف إلا إلى تحرى الحقيقة لذاتها فإن الحياة العملية تقتضى أسلوب السوفسطائيين ، ولا أعنى بذلك أن يسعى المتقاضى إلى كسب دعواه حقا كان أم باطلا أو إلى إثارة الشك فى القيم ، حقيقة كان مما يؤخذ عليهم أن ألبسوا الباطل ثوب الحق كما كانوا يطفئون الجد فى الجدل بالهزل ويضيعون متعة الهزل باصطناع الجد ، ومع ذلك كله فان علما كالتأريخ - أى كتابة التاريخ — قد أفاد من منهج السوفسطائيين ، فنجد مؤرخا مثل ثيوكيديدس وقد كان من تلاميذهم يعرض

* أو ربما كانت آلهة اليونان كالشياطين أو العفاريت لا تظهر إلا لمن يعتقد فيها
Speak of the devil and you will see him

وجهتى نظر الفريقين المحاربين — أثينا وإسبرطه فيما عرضه من تاريخ الحرب بينهما فقدم بذلك منهجا سليما لبلوغ الحقيقة فى التاريخ .

لقد درج السوفسطائيون على أن يغرسوا فى نفوس الشباب آراء تناقض تماما ما نشأوا عليه ، والشباب بطبيعته متحمس لكل جديد ، فضلا عن أن الديمقراطية قد أوجدت إعتدادا بالفردية وتمجيدا للشخصية ، فنجد بروديكوس ينبه الاغريق إلى حقيقة الألوهية فى أديانهم وأنها وليدة تخيلاتهم ، إذا أراد الإغريق أن يعبر عن شكره وإمتنانه للطبيعة وخيراتها جعل لكل شىء من هذه الخيرات إلها ، فالخمر إله هو ديونسيوس أو باخوس والماء إله هو بوسيدون والنار اله هو هيفيست Hephaest والمحبوب اله هو ديمتر Demeter ، كذلك ذهب هيبياس إلى أن الأنظمة الإجتماعية تخالف قوانين الطبيعة إذ تفرض أوضاعا مضادة لسنن الطبيعة ، فالناس متساوون فى الطبيعة التى لم تخلق أحداً عبداً وإنما ذلك من تحكمات الناس وإلى مثل ذلك ذهب أنطيفون ، فالناس لديه سواسية لا فرق بين إغريقى وبربرى ولا بين نبيل وعبد ، وإذا كان أمثال هؤلاء قد انتقدوا الواقع فإن سوفسطائيين آخرين قد كشفوا النقاب عن هذا الواقع فى السياسة ، فذهب جورجياس وتلميذه كاليكاس إلى أن الحق هو القوة أو أن القوة هى الحق Might is right وأن القوانين تشريعات وضعتها أغلبية من الضعفاء الحيلولة دون تفوق الأقوياء ، وهذه قوانين وضعية وليست طبيعية لأن الطبيعة تقتضى سيادة القوى .

كانت لهذه الآراء جميعا آثارها الايجابية والسلبية ، أما آثارها الايجابية فالسوفسطائية ليست فلسفة حضارة فحسب بل إنها تعد حركة رائدة فى مجالات متعددة ، فهم — وبروتاغوراس على وجه الخصوص — أول من نبه إلى قيمة التربية وأهميتها فى إرشاد النشء ، لقد كان الاثينيون يعتقدون أن الأخلاق ميل طبيعى ولكن بروتاغوراس أكد إمكان ترويض النفس البشرية ونزع نزعات

الشر كما يمكن للطبيب علاج أمراض الجسم ، وأن العقاب يقصـــد به الردع لا الانتقام ، كذلك يعد السوفسطائيون الرواد الأوائل فى علوم اللغة إذ لفتوا النظر إلى أهمية اللغة فى الجدل وضرورة تحرى دقة الألفاظ ، وإذا كان جورجياس قد جعل من الخطابة علما فإن بروديكوس قد جعل من المترادفات مبحثا له أهميته حتى أصبح مرجع المتحاورين فى دلالات الألفاظ وصحة إستعمالاتها(١) ، وقد حدد السوفسطائيون كذلك بعض موضوعات علوم السياسة والإجتماع والتاريخ ، هل الدولة أو المجتمع نظام طبيعى تلقائى أم وضعى تحكمى ؟ بذلك حددوا المشاكل بصرف النظر عن تقييم ما قدموه من حلول .

ومع افتراض سلبية معظم هذه الحلول فانها كانت الحافز وراء ظهور أكبر المدارس الفلسفية فى بلاد اليونان وأعنى بها المدرسة السقراطية الكبرى : سقراط وأفلاطون وأرسطو ، فإن كثيراً من نظرياتهم لاسيما فى الأخلاق والسياسه إنما جاءت ردوداً على آراء السوفسطائيين .

٤
سقراط

لنى كالقابلة العاقر تولد النساء ولكنها لا تلد *

كانت أثينا مركز الفكر بعد حربها وانتصارها على الفرس ، وكانت فى حاجة

---

1 — Zeller : Outlines, P 84

* العبارة تعنى أن لسقراط منهجا أفاد به الغير ولكن ليس له مذهب خاص فى الفلسفة ينفرد به وينسب اليه ، لم تكن له نظرية فى تفسير الوجود بل لانجد لديه نسقا مذهبيا متكاملا فى الأخلاق ، والعبارة قد ذكرها سقراط فى محاوره «جورجياس» إذ أبدى سقراط اعتذاره عن اعلان رأيه فى تعريف العداله بعد أن عاب عليه أحد المحاورين أنه يمتحن الآخرين ويكثر من سؤالهم فرد سقراط بالعبارة المذكورة .

إلى معلم .. على غير شاكلة من قبله من الفلاسفة الذين إهتموا بالعالم الطبيعى ولكنهم أغفلوا الإنسان ، كانت فى حاجة إلى معلم فكر لا معلم بيان على شاكلة السوفسطائيين ، ينطق بالحكمة الأصيلة لا البلاغة الزائفة . وإذا كان هوميروس معلم الإغريق فى طور الأسطورة فإن سقراط معلم أثينا فى طور الفلسفة،لاغرو إذن أن يشطر الفلسفة شطرين ما قبله وما بعده ، لأنه أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض ومن الوجود إلى الإنسان وفقا لعبارة معبد دلفى : إعرف نفسك .

يعتبره المؤرخون الأقدمون معلم نفسه ،ولكن ذلك لا ينفى أنه عرف مذاهب السابقين وفلسفة انكساغوراس على وجه الخصوص فضلا عن إحتكاكه بهم من السوفسطائيين .

إحترف سقراط فى حياته العملية حرفة أبيه ، فكان مثالا ولكنه امتهن فى التفلسف حرفة أمه التى كانت قابلة إذ كان فى حواره مع المتحاورين يشير إلى أنه يولد الأفكار من العقول كما كانت أمه تقوم فيما يتصل بالأجسام ، أو أنه يولد الحقيقة من العقول الحوامل ، وذلك منذ اللحظة التى أشارت فيها كاهنة معبد دلفى إنه أحكم أهل زمانه ، إذ طفق يتحرى حقيقة ذلك باحثا عن العلم أو الحكمة لدى الشعراء والخطباء والسياسيين وأصحاب الحرف،فكان فى بحثه هذا مولدا للأفكار

معلوماتنا عن سقراط تأتى عن طريق أفلاطون وإكسانوفان ، وقد بلغ إعجابهما به وخاصة أفلاطون حد المبالغة أحيانا ، إذ يصفه بأنه أفضل وأعدل وأعقل من عرف، بينما صوره أريستوفان فى مسرحية «السحب» فى صورة هزلية، غير أن ما ذكره عنه أفلاطون أقرب إلى الحقيقة ،فلقد كان سقراط فى حياته العامة مثلا أعلى للمواطن الاثينى ، كان وطنيا باسلا شارك فى حربين الأولى من عام ٤٣٢ إلى عام ٤٢٩ ق. م والثانية عام ٤٢٢ فأبدى شجاعة نادرة وأنقذ كلا من

ألقيبادس وإكسانوفان، كذلك كانت له مواقف مشهودة فى المجلس الشعبى ومجلس القضاة جاهر فيها بالحق حين عارض فى قادة الأسطول أمام جماهير المجلس الثائرة، وعارض حكم الطغاة الثلاثين الذين أقامهم الاسبرطيون بعد هزيمة أثينا، ولكن الأهم من ذلك وهو ما خلد ذكره هو أنه كان يحث مواطنيه على الفضيلة ويرشدهم إلى الخير ويستحثهم على ذلك كما تستحث النحلة الفرس على الحركة على حد تعبيره.

أما عن فلسفة سقراط فيمكن النظر اليها من أبعاد ثلاثة :

١ — شخصية المرشد : حيث الجانب العملى يطغى على الجانب النظرى ، إذ كانت شخصية سقراط أبعد أثراً فى نفوس تلاميذه من دروسه النظرية ، فإذا أضفنا أن معظم محاورات سقراط تدور حول موضوعات أخلاقية هى بطبيعتها وثيقة الصلة بالحياة العملية اتضح ما نعنيه من ظهور مدارس سقراطية تعنى بالعمل على حساب العلم ، فالفضيلة عند انتستانس هى الشىء الوحيد الضرورى للحياة وان كانت المدرسة القورينائية خالفت مبادىء سقراط فإنها لم تخالفه منهجا أى أن يكون موضوع الفلسفة الرئيسى متصلا بالعمل .

٢ — منهج سقراط : قد يفوق منهج الفيلسوف مذهبه ويعد مع ذلك من أعظم الفلاسفة ، ويعد سقراط على رأس هؤلاء ، إنه لم يخلف لنا فكرا بقدر ما قدم لنا منهجا للتفلسف قدمه فى مرحلتين : مرحلة سلبية يتصنع فيها الجهل ويلقى الأسئلة على محاوريه مدعيا طلب التعلم منهم ، ومازال فى أسئلته فى تركيب محكم تخفى سخرية لاذعة وراء سذاجة مقصودة مستخدما كثيراً من التشبيهات والأمثلة من الواقع المحسوس مما يضفى على الحوار صورة حية تمكن الحاضرين من متابعة المناقشة دون أن يدع للمتحاور معه فرصة أن ينحرف عن الموضوع حتى يوقعه فى الحيرة والتناقض ، وهو يتبع ذلك غالبا مع أدعياء العلم والحكمة ،

ذلك جانب التهكم .

وفى المرحلة الثانية وهى مرحلة إيجابية تسمى التوليد يساعد سقراط محاوره على الوصول إلى الحقيقة بنفسه ، ولا يفرض سقراط رأيه فى الموضوع الذى أثاره والذى انتقد فيه رأى من يحاوره .

قيمة هذا المنهج وهو أهم ما قدمه سقراط للفلسفة أنه أول من طلب الحد الكلى بالاستقراء ، إذ يقوم العلم على دعامتين : يكتسب الحـــد بالإستقراء * ويركب القياس بالحد ، وقد ميز سقراط بين موضوع العقل وبين موضوع الحس وذلك بما بينه من أهمية تحديد الألفاظ تحديدا دقيقا حتى تتفق عليها العقول فيمتنع الخطأ والالتباس ، وبذلك ينبه إلى أهمية طلب ماهية الشىء (١) .

٣ ــ المذهب : كانت محاورات سقراط ومناقشاته تنتهى أحيانا بلا نتيجة ، إذ يرفض كل ما وصل اليه محاوره من آراء أو تعريفات ولا يقدم هو شيئا** ، وتبقى المسألة معلقة ، وربما كان ذلك من دوافع تشهير أريستوفانيس به فى مسرحية السحب ، ما الذى خلفه سقراط إذن فى مجال المذهب ؟ وما هى فلسفته الخاصة ؟ لانجد إلا قضايا بسيطة مثل : الفضيلة علم والرذيلة جهل ، أى أن الشرير إنما يقدم على الشر لجهله بالخير ولو علمه لما سلك سبيله ، بذلك وحد سقراط بين العلم والعمل أو بين المعرفة والفضيلة ، وهناك إعتراض على ذلك ، فلا ذاتية بين الفضيـــلة

---

* أى أن الوصول الى التعريف بالحد انما يتم بواسطة الأمثلة الجزئية ومنها الى القاعدة الكلية أو التعريف العام الذى يشمل كل الجزئيات .

(١) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ص ٥٢ ــ ٥٣

** الأمر الذى استثار غضب أحد المحاورين ، وكان الموضوع يتصل بتعريف العدالة فتحداه محاوره أن يقدم الاجابة بدلا من امتحانه محاوريه وإحراجهم .

والمعرفة ، فقد يعلم الإنسان ولا يعمل ، أو يعمل على خلاف ما يعلم أنه حق وخير ، يقول أرسطو : جهل سقراط أن نفس الإنسان ليست مركبة من العقل وحده ، فليست كل أعمال الإنسان خاضعة للعقل ، وإنما تحكم العواطف بعض أعماله فيقع فى الخطأ مع علم العقل بذلك ، قضية أخرى يشير اليها اكسانوفان عن سقراط هى تحديد سقراط الخير بأنه النافع ، وهو لم يحدد تحديداً دقيقا مفهومه النفع وإن كانت الخلفية الثقافية تكشف لنا عن إرتباط الخير والجمال بالنفع، وإن كان من المستبعد أن نعد سقراط رائد المذهب النفعى أو المذهب البرجماتى «العملى» فى مجال الأخلاق .

هكذا يتضح أن قيمة سقراط فى الفلسفة تتصل بمنهجه كما أن قيمته فى الحضارة الإغريقية تتصل بشخصيته ، فقد كان معلم الإغريق فى مرحلة الفكر والنضج كما كان هوميروس معلمها فى مرحلة الأسطورة أو الطفولة .

بقيت بعد ذلك مسألة إعدام سقراط ، وهى التى أضفت عليه تلك الهالة من القداسة فى نفوس المثقفين بعامة ودارسى الفلسفة بخاصة على مر العصـــور ، والصورة قدمها لنا أخلص تلاميذه أفلاطون ، وهى بقدر ماتضفى من قداسة على سقراط بوصفه شهيد الكلمة وحرية الرأى بقدر ما يشير أصبع الاتهام إلى أثينا ونظامها الديمقراطى ، ولا شك أن أثينا قد أخطأت فى حق نفسها * بقدر ما أجرمت فى حق سقراط حين أعدمته ، ولكن لاشك أيضا أن ظروفا أحاطت بالمدينة

---

* عبر سقراط عن ذلك بقوله فى محاكمته : إن كنتم تظنون أنكم بقتلى ستخلصـــون المدينة فانكم مخطئون ، فليس هذا هو الحل ، الأسهل والأفضل أن تصلحوا أنفسكم لا أن تمنعونى ارشادكم ، إن قتلتمونى آذيتم أنفسكم .

وبسقراط مما دفعها إلى هذا الجرم بالرغم من محاولتها إجتنابه والتخلص منه *

٥

أفلاطون

انى أحب الحق وأحب أفلاطون ولكنى أحب الحق أكثر مما أحب أفلاطون
أرسطو

أول فيلسوف قدم مذهبا متكاملا جامعاً جميع مباحث الفلسفة من الوجود (الله - العالم - الانسان) إلى المعرفة ثم الأخلاق والسياسة وفلسفة الجمال ،وأول اثنين هما أعظم فلاسفة اليونان بلا جدال ، وأبعد الفلاسفة الأوائل أثراً فى الفكر الفلسفى قديمه ووسيطه وحديثه .

تمثل أفلاطون ثقافة عصره ، تتلمذ على سقراط ولكنه عرف فلسفة كل من قبله ، شهد حكم الطغاة الثلاثين عقب هزيمة أثينا من إسبرطه ، بعضهم من أقربائه وقد عرضوا عليه المشاركة فى الحكم ولكنه آثر التريث ، طغوا وبغوا وصادروا

* لم يكن مجلس القضاء متحمسا لاعدام سقراط ، كان يمكنه أن يقبل الحكم بالنفى ، ولولا سخريته من المحكمة ورفضه الامتناع عن التدريس لما صدر الحكم باعدامه ، وكان يمكن للمدينة أن تسكت على هروبه لوكان قد قبل ذلك ، ومن ناحية أخرى وكما سبقت الاشارة أن سخط الجماهير على سقراط ليس بسبب ما وجه اليه من تهم:افساد عقول الشباب والسخرية بآلهة اليونان واشارته الى اله آخر ولا بسبب من اثارهم ممن أحرجهم فى محاوراته من أدعياء العلم بقدر انفعال الجماهير بسبب الصلة التى كانت بين سقراط وبعض الطغاة الذين فرضتهم اسبرطة على أثينا بعد هزيمة الأخيرة لمعانا فى اذلالها فضلا عن تهكم سقراط من بعض جوانب ديمقراطية أثينا ، اجتمع كل ذلك فى وقت كانت النفوس مفعمة بالأسى والحزن والغضب والسخط بسبب الهزيمة والخراب فاندفعت الجماهير بانفعالاتها العمياء لتصب ذلك على معلمها ومرشدها فى يوم أغبر من عام ٣٩٩ ق.م .

الأملاك فسخط عليهم الشعب وقامت الديمقراطية ولكنها أعدمت أستاذه سقراط عام ٣٩٩ ق. م فتملكه الغم والحزن وغادر أثينا إلى ميجارا التى سافر اليها بعض تلاميذ سقراط ملتفين حول اقليدس الميغارى ، مكث أفلاطون بها ثلاث سنين سافر منها إلى قورينا (فى ليبيا) حيث كان أرستيبوس أحد تلاميذ سقراط قد أنشأ بها مدرسة ، سافر أفلاطون إلى مصر حيث درس على الكهنة العلوم الرياضيه والمعارف التاريخية وأخذ بنصيب من الفلك كما استفاد من تعـــرفه على ديانة المصريين ونظام الحكم والأخلاق، غادر مصر عقب حرب أخرى بين أثينا وأسبرطة عام ٣٩٥ ق. م كانت مصر فيها حليفة اسبرطة، بدأ أسفاره مرة أخرى بعد الحرب إلى جنوب إيطاليا حيث المدرسة الفيثاغورية ثم إلى صقلية حيث استقدمه ملك سيراكوزه ولكنه غضب عليه لآرائه الاصلاحية فأبعده إلى جزيرة متحالفة مع اسبرطة ، فعرض فى سوق الرقيق حيث افتداه رجل عرفه فى قورنيا وعاد إلى أثينا عام ٣٨٧ لينشىء الأكاديمية * وقد ظل يدرس بها أربعين عاما كما قدر لها أن تبقى تسعة قرون تدرس فيها الرياضيات والفلك والموسيقى والجدل والأخلاق والسياسة والجغرافيا والتاريخ والطب والتنجيم فضلا عن الفلسفة، فكانت جامعة وعت تراث اليونان من هوميروس إلى سقراط فى شتى مجالات المعرفه .

أقام أفلاطون فلسفة متكاملة ذات طابع تلفيق جمع أصولها من مذاهب شتى، عن الفيثاغورية تأثر بنزعتها الدينية واعتقادا فى الخلود فضلا عن إعتبار الرياضيات مدخل التفلسف وبذلك ارتبط الجانب الروحى بالجانب العقلى، وعن بارمنيدس اقتبس فكرة ثبات الحقيقة وأبديتها، وأن كل تغير تظهره الحوادث المتغيرات فهو محض وهم أو تخيل ، وهو وان وافق هيرقليطس فى أنه لا شىء ثابت فى العالم

---

* أنشئت فى حديقة أكاديموس فسميت باسمه .

المحسوس فلكي يستخلص أن المعرفة الحقة لا يمكن أن تكون حسية وإنما لا بد أن تكون عقلية ومن إنكساغوراس أن ما ينظم الكون إنما هو عقل مستقـل متمايز عن المادة ، ولكن سقراط هو صاحب الفضل الأكبر عليه منهجا وروحا وأخلاقا ، فلقد حوله سقراط من الشعر إلى الفلسفة ، وإن بقي له أسلوبه الأدبي الرفيع،وهكذا صبت فى شخص أفلاطون وفكره كل روافد الفلاسفة السابقين عليه

صاغ مؤلفاته فى شكل حوار فلسفى، وجعل من سقراط الشخص الرئيسى فى كل محاوراته حتى تعذر فصل أفكاره عن آراء أستاذه ، ويورد أحيـانا بعض القصص أو الأساطير ليشرح بالرموز مايصعب عرضه بالاستدلال كما فى أسطورة الـكهف .

قيمة منهج أفلاطون من الناحية الفلسفية تتلخص فيما يأتى :

١ — المنهج التلفيقى من حيث مصادر أو أصول فلسفته : إستطاع أفلاطون بالرغم من المصادر المتباينة لفلسفته أن يجمعها فى نسق مترابط يخضع فيه المحسوس للمعقول والجزئى للكلى ، ويجمع بين تغير هيرقليطس وثبات بارمنيدس ويؤلف بين الوحدة والكثرة . وطبع كل ما تلقاه بطابعه .

٢ — المنهج الجدلى من حيث عرض فلسفته : ويعد أفلاطون أول من صاغ الجدل (الديالكتيك) صياغة فلسفية محددة إرتبط فيها المنهج بالمذهب حتى أصبح كالنغم بالنسبة للحن يتعذر الفصل بينهما ، فمنهج صاعد من المحسوس إلى المعقـول تترقى فيه النفس من الإحساس إلى المعرفة الظنية إلى العلم الإستدلالى حتى تصل الى التعقل المحض مدفوعة فى ذلك بقوة باطنة وجدل صاعد ، كذلك الأمر فى التعلق بالجمال من تعلق بجسم معـين إلى التعلق بجمال الأجسام ثم ترتفع من الجلول الي الدالة فتتعلق النفس بصفات هـذه الأجسام ثم تصعد إلي جمال

النفوس أو الأرواح حتى تصل الى الجمال الدائم أو مثال الجمال ، كذلك يرتبط الموضوع بالمنهج فى جدله النازل من المثل الى العالم المحسوس ، ومن خلال منهج الجدل ربط أفلاطون بين مباحث الفلسفة جميعا اذ ربط الوجود بالمعرفة كما ربط نظريته فى النفس بكل من الأخلاق والسياسة .

بذلك يعد أفلاطون الرائد الأول لمجموعة من الفلاسفة اتحد لديهم المنهج بالمذهب فلم يصبح المنهج مجرد قالب لعرض المذهب وانما أصبحت هناك وحدة لا تنفصم بين الجدل وموضوعه سابقاً بذلك كلا من أفلوطين قديما وهيجل وماركس حديثا بصرف النظر عن اختلاف مفهوم الجدل لدى كل منهم .

٢ — الثنائية : أقام أفلاطون ثنائية واضحة بين عالم المثل والعالم المحسوس فى مجال الوجود ، بين المعرفة العقلية والمعرفة الحسية فى مجال المعرفة ، بين النفس والجسم فى الإنسان ، بين اليوتوبيا (المدينة الفاضلة) وما هو واقع فى السياسة ، يقول زيلر : فلسفة أفلاطون نسق مثالى قائم على ثنائية واضحة بين الروح والمادة ، المثل والعالم ، النفس والجسم .

أما قيمة فلسفة أفلاطون من حيث المذهب فتتلخص فيما يلى :

١ — الميتافيزيقا : تشرح نظرية المثل الوجود بجوانبه الثلاثة : الله والعالم والنفس ، وإن كانت الألوهيه لديه لا تتجاوز مفهومه لمثال الخير ، كذلك « الصانع » لا يفيد معنى الخالق بالمفهوم الدينى ، ومع ذلك فلا شك أن أفلاطون قد تجاوز بمعنى الألوهية فكر الفلاسفة السابقين عليه ، كما أضفى عليها دلالة أخلاقية ، وبذلك قدم أول نظرية فى الفلسفة عن العناية الالهية ، وأدان المعتقدات الشعبية عن ارضاء الالهة بالقرابين مع تلوث النفس بالإثم .

واذا كان أفلاطون لم يقدم مفهوما متميزا واضحا للألوهية ، والواقع أنه

يجب ألا نتوقع ذلك إلا فى الأديان السماوية وفى فلسفات قائمة عليها، فإن نظريته فى النفس وأدلته على بساطتها وخلودها لقيت مجالا أرحب فى كل من الفلسفتين المسيحية والإسلامية كما أن روحانيته إذا قورن بمن قبله - بل وبكثير عن بعده - قد حببته لدى فلاسفة هاتين الفلسفتين

٢ ـ المذهب المثالى : يعد أفلاطون رائد المذهب المثالى * فى الفلسفة ، ومذهبه فى ذلك متكامل واضح المعالم ، سلب أفلاطون العالم الواقعى المحسوس كل حقيقة وجعله مجرد شبح أو خيال بينما جعل الحقيقة كلها سواء فى مجال الوجود أو المعرفة فى عالم تصوره أفلاطون قائما وله وجود موضوعى سابق على هـــذا العالم ، وأيا ما كان النقد الموجه إلى موضوعية عالم المثل فإن منطلق هـذه النظرية من حيث تعذر معرفة حقيقة الأشياء الخارجية معرفة يقينية مازال له مايبرره .

٣ ـ اليوتوبيا : ربما كان تأثير أفلاطون الإلهى فى الفلسفتين المسيحيـــة والإسلامية بأشد مما له فى حضارته ، فلا نجد لنظريته فى الألوهية أو خلود النفس

---

* المذهب المثالى هو مذهب يؤكد جانب العقل أو الروح فى مقابل المادة أو الجسم ، يمكن أن تعد المثالية بمعنى ما مقابلة للمادية ، بينما يؤكد المذهب المادى ما هو مكانى حسى جسمى واقعى تؤكد المثالية ما يتجاوز المكان والجسم وما هو معيارى غائى ، يرد لفـــظ Idealism إلى لفظ idea ومن ثم ترتبط المثالية بالتصورية أو بلفظ ideal فترتبط بالمثال تدور المثالية حول هذه المحاور الثلاثه : الفكرة (أو التصور) أو المثال idea ـ العقـل mind ـ الروح spirit ، المثالية الموضوعية لدى أفلاطون من ناحية مبحث الوجود تقوم على أساس أن ما فى الأعيان إنما يتحدد وجوده وصفاته بمشاركته بما فى الأذهان القائم فى عالم المثل ، من ناحية مبحث المعرفة لو لم تكن النفس عارفة بالأشياء فى عالم سابق لما أمكنها معرفة الأشياء الخارجية - راجع Runes : Dictionary of philosophy 136 وراجع أيضا المعجم الفلسفي ليوسف كرم ص ٤٣ ، ٤٤ ، ١٢٤ .

تأثيراً فى معتقدات الاثنين ، ولم تصدع آلة المدينة بتأثير نظرية أفلاطون، ربما كان للسوفسطائيين أثر أقوى .

ولكن مدينته الفاضلة جاءت رد فعل لما روعه من فساد أنظمة أثينا السياسية أما الدكتاتورية فقد جاءت نتيجة إزاحة طبقة التجار وأصحاب الأموال عن السلطة لطبقة الارستقراطيين التى ينتمى هو اليها ، ذلك أن حقـــد الأوليغركية يدفعها إلى القضاء على الطبقة العريقة فى رأيه فتندفع الى مصادرة الأملاك والقتل والنفى ، وأما الديمقراطية فقد جاءت نتيجة تملق الزعماء العامة فيوزعون الاموال ويغدقون المناصب على غير الاكفاء فتنقلب الحرية الى فوضى * وتختلط المعايير وتؤول السلطة الى أراذل الناس ، حينئذ وحين يزداد كل شىء عن حده فإنه ينقلب الى ضده اذ يؤدى الافراط فى الحرية الى الاستعباد وحكومة الطغيان ، فأشد أنواع الحكومات استبدادا تنشأ من أشد أنواع الحرية تطرفا .

أريد أن أقول ان نقطة البدء فى يوتوبيا أفلاطون — كما هـو الحال فى كل يوتوبيا — فساد أوضاع سياسية قائمة فسادا يؤدى الى اليأس من اصلاح الواقع فتكون نقطة البدء من المثل الأعلى لا من الواقع، من العقل لا من التجربة ، وبذلك يكون أفلاطون متمشيا تماما مع فلسفته المثالية : المثل حقيقة ، العالم الخـارجى أشباح ، اليوتوبيا صلاح والواقع فساد .

---

* وتتسلل الفوضى من الأسرة ومن الدولة إلى الأفراد فيتعود الأب النزول إلى مستوى أبنائه ، ويضع الابن نفسه فى مستوى أبيه فلا يستحى منه ، ويتملق الأستاذ طلابه ويحتقر الطلاب أستاذهم ، ويضع الشاب نفسه فى مستوى الشيخ فلا يستنكف أن يعارضه قولا وعملا ولا يتحرج الشيخ عن تقليد الشبان ويتساوى الذكور والاناث وتشيع علاقتهما بعضهما ببعض وتوشك الأوضاع أن تنفجر لما تدعيه الديماجوجية من حرية باسم الديمقراطية (راجـــع : الجمهورية ص ٥٦٢) .

وإذا كانت اليوتوبيا تبدأ من التصور فذلك لا يعني أنها خيال محض ، إذ اقتبس أفلاطون في جمهوريته كثيراً مما عرفه عن إسبرطة من نظام دقيق صارم وان أدى إلى الغاء الحرية ، ومن إعدام المشوهين من الأطفال ومن تكفل الدولة بتربية النشىء ومن مساواة مطلقة بين الرجل والمرأة .

وإعجاب أفلاطون بنظام إسبرطة العسكري قد أدى إلى التساؤل : هل كان يريد أفلاطون لموطنه أثينا أن تصبح إسبرطة أخرى ؟ هل كان أفلاطون غافلا عن خلو إسبرطة من المواهب ومن المفكرين بسبب نظامها العسكري ؟ وإن عقمت إسبرطه عن إنجاب فلاسفة فكيف يتصور أفلاطون أن يصبح الفلاسفة حكاما أو الحكام فلاسفة ؟ .

ترك أفلاطون علامات إستفهام أثارت عليه كتاب الديمقراطية المحدثين من أمثال كارل بوبر ولويس ممفورد ، يقول الأخير : إن عقلا من أرجح عقول اليونان كان عاجزاً عن إدراك مصدر ما أوتيه من صفات جليلة ، لقد بخس القيم التي أوجدها آباؤه وأسلافه ، لقد طمس على بصيرته حين تعمد أن يحط من قدر أثينا وحين أشاد بمزايا كريت وإسبرطه كما تمثلت في تشريعات ليكرجوس البشعة .. لقد جهل تماما أن الفرص التي هيأتها أثينا لأبنائها هي وحدها التي أتاحت النضج الكامل لمثل عقليته وعبقريته حتى بالرغم من كل ما فيها من المثالب والعيوب . لقد تصور أن بلوغ الكمال لا يكون إلا بالتضحية بالفرد من أجل المدينة بل التضحية بكل مواهب الفرد وقدراته ، لقد أنطق سقراط ليتغنى بنظام مثالي لو كان قد تسنى تطبيق أو تحقيق هذا النظام لما أمكن أن يظهر رجل كسقراط ، إذ كان وفقا لمبدأ التخصص الذي أكد عليه أن يظل سقراط نحاتا فلا يشتغل بتربية المواطنين عن طريق الحوار ، وما كانت حكمة سقراط لتجد سبيلا الى الافصاح عنها لو أنه

أمضى حياته طبقا لفلسفة أفلاطون . وان الطاعة العمياء لا تتلاءم مع تقـــدم الإنسان ولا حتى مع وجوده(١) .

٤ — الفن : يعد أفلاطون أول من صاغ نظرية في فلسفة الجمال بصرف النظر عن موقفه من الفن ومن الشعر ، منطلق موقف أفلاطون من الفن من جانبين :

الأول جانب ابستمولوجى أو نظرية المعرفة : بصدد هـذا الجانب يقـدم أفلاطون الى الفن انتقادين :

أ ـ يستند الفن الى منطق الخيال لا الى منطق العقل ، ومن ثم لا يرقى الفن الى مستوى العلم القائم على العقل .

ب ـ ان الفن قائم على التقليد ، واذا كانت الطبيعة تقليدا لعالم المثـل وكان الفن تقليدا للطبيعة كان الفن تقليداً لتقليد* ومن ثم فإن الفن أدنى من العـــلم الطبيعى وهذا بدوره أدنى من الميتافيزيقا .

ومن ناحية أخرى اذا كانت الطبيعة صنع الله والصناعة صنع الإنسان وكان الفن تقليدا للصناعة كان فن الفنان أدنى من صنع الإنسان .

هذا نقد يتعلق بالفن من حيث صورته أو مقولاته وينبثق من مفهـــوم أفلاطون لنظرية المثل .

---

(١) لويس ممفورد : ترجمة ابراهيم نصحى المدينة على مر العصور جـ١ ص ٣١٢ـ٣٢١

* هناك مثال السرير ـ صورة واحدة مطلقة لكل ما يستريح عليه الانسان .. هذا من صنع الله ، وهناك ملايين من السرائر من صنع النجار كلها تشارك فى مثال السرير وتقلده ثم يأتى الفنان ليقلد صنع النجار، كل تقليد فهو درجة أدنى راجع الكتاب العاشر من الجمهورية

Pesald Vesene : Man and culture pp. 15 – 81 مراجع أيضا

الثانى : جانب أخلاقى : يلجأ الفن وخاصة الشعر إلى تزييف حقائق الأشياء وبين الفن والشعر صلة وثيقة ، إذ الفن شعر صامت كما أن الشعر فن متكلم ، وكلاهما يستند إلى فكرة التقليد أو المحاكاة ، ولكن كلا من الفنان والشاعر إذ يقلدان لا يصفان الأشياء كما هى وإنما يضفى كل منهما من ذاته أو من شيطانه ليزيف حقيقة الأشياء مستنداً إلى الخداع ، وإنك إن نزعت عن الشعر إيقاعه وأوزانه وقوافيه — وسائل الخداع — لما بدت لك بعد ذلك إلا معان سطحية تافهة بل ولا أخلاقية ، لقد سممت أشعار هوميروس عقول اليونان وأفسدت ضمائرهم بما تروى عن الآلهة والأبطال من أخبار الخصومات وقبيح الأفعال وبما لا تفتأ تردده من أن الرجل العادى يعمل لخير غيره وشقاء نفسه مما يوهن عزيمة الإنسان عن فعل الخير وبما يثير من شهوات .

يعمل الشعر على إثارة العواطف وشلل العقل ، يجعلنا نستحسن ونصفق لما نستنكره فى الواقع ، ولا يعمل الشاعر بما يقول : لا يقود الجيوش ولا يشرع القوانين وإنما يكتفى بتمجيد القواد والحكام .

وأما خداع الفنان أو المصور فإنه يبرزها مشوهة فى غير نسبها الحقيقية من حيث الشكل أو المقدار ولا يخدع إلا عن بعد ولا ينخدع به إلا الجاهلون .

هكذا نظر أفلاطون إلى الفن والشعر من منظور أخلاقى سياسى فبالغ فى إدانتها ، ولقد كان يعتبر الشعر كالأسطورة : طوراً تجاوزه مسار الفكر البشرى إلى الفلسفة ، تماما كما تجاوز الفكر الإغريقى فى مرحلته الكلاسيكية مضمون أشعار هوميروس .

تعقيب : بلغ أفلاطون بالفلسفة قمة ما بلغته الحضارة الإغريقية لا ينافسه فى ذلك إلا تلميذه أرسطو ، كان أثره فى الفكر الإنسانى بالغا حتى وإن خالف الناس آراءه فى المثل وفى السياسة وفى الفن وربما فى الحب أيضا .

تبقى كلمة عن الأكاديمية ، لقد بقيت بعد وفاة أفلاطون عام ٣٤٧ ق . م أكثر من تسعة قرون إلى أن أغلقها الإمبراطور جاستنيان عام ٥٢٩ م ولكنها إختلفت عليها عدة تيارات من تيار شكى فى عهد رئاسه أرسيلساوس إلى طابع التأويل الرمزى لمعتقدات يهوديه فى عهد فيلون ثم أتيحت لها شهرة جديدة فى عهد إبرقلس كذلك تناوب على رئاستها رؤساء أسيويون ومصريون .

٦

أرســـطو

« لا يمكنك أن تتحدث عن أرسطو بغير اسراف، لانك ستشعر انك أمام عملاق جبار ، ومع ذلك فهو مخطىء فى معظم ما قال ، اذا نظرت الى الافـــق الفسيح الذى جال فيه بنظراته ونظرياته لا يسعك الا العجب والاعجاب، ولكنك اذا نظرت اليه بعين العلم فاحصا كل نظرية على حده مختبرا ما ترتب عليهـــا من نتائج فلا يسعك الا أن تسدل عليه ستار الاهمال،ذلك انك لن تجد كشفا واحدا من الكشوف العلمية العظيمة يمكن ان يرجع فيه الفضل اليه او ان يرد الى احد تلاميذه .

ج . هـ . لويس

نقاس عظمة المفكر بمدى أصالته من جهة وبسيادة فكره على اللاحقين عليه من جهة أخرى ، بهذا المقياس جاء أرسطو ليمثل ذروة الفكر اليونانى من جهة ولتنقضى ألفا سنة حتى يستطيع الفكر الغربى أن يتخلى عن نفوذه ويتحرر من آرائه ، بل لازالت كثير من نظرياته موضع إعتبار خاصة تلك العلوم التى لا يلغى الجديد فيها القديم كالأخلاق والسياسة ، أما آراؤه فى الطبيعة أو علم النفس فلا شك أن العلم الحديث قد تجاوزها فلم يعد لها إلا قيمة تاريخية ، وإن كان ذلك لا يلغيها فى نطاق الدراسات الفلسفية .

جاء أرسطو فى عصر منحنى خطير * ، إذ كان المجتمع الإغريقى يشهد تحولا سريعاً فى أنظمته ، نظام دولة المدينة على وشك الإنهيار والمعتقدات الدينية تضعف وتتدهور ، مقدونية فى شمال اليونان تقيم قوة عسكرية لتبسط نفوذها على شبه الجزيرة اليونانية وتقضى على حضارة أثينا وذلك فى عهد أثنين من الطغاة : أمينياس وفيليب ، وكان ذلك يعنى أن أثينا التى كانت مدرسة لكل بلاد الإغريق قد تخلت عن مجدها إلى الأبد بعد أن تهاوت ديمقراطيتها ونظام دولة المدينة، إذ فرضت عليها الوحدة السياسية .

كان أرسطو يمثل قمة الفكر الإغريقى التى لابد بعدها من نزول ، إذ كان ضياع نظام دولة المدينة يعنى أن الحضارة الإغريقية قد فقدت أهم مقوماتها .

لم يكن خلاف أرسطو مع أفلاطون يقف عند حد ماهو معروف فى الفلسفة من إختلاف التلميذ النابه مع أستاذه ومخالفته فى آرائه ليقيم نظرية أو مذهبا جديداً ، ولكنه إختلاف يرجع إلى إهتمامات أرسطو قبل التحاقه بالأكاديمية ،

* لم يكن أرسطو أثينيا بل ولد فى اسطاغيرا عام ٣٨٤ ق. م وهى مدينة أيونية قريبة من مقدونية على بحر ايجه ، وكان نيقوماخوس والد أرسطو طبيبا للملك المقدونى امنتاس الثانى مما قربه من البلاط المقدونى ، رحل الى أثينا فى سن ١٨ سنة بعد أن توفى أبوه ودخل الاكاديمية وتفوق على كل تلاميذ أفلاطون حتى سماه العقل أو القراء لكثرة إطلاعه ، ومع انتقاد أرسطو لأستاذه أفلاطون فى حياته فيبدو أنه بقى فى الأكاديمية حتى وفاة أفلاطون ، وعبارته المشهورة : انى أحب الحق وأحب أفلاطون ولكنى أحب الحق أكثر مما أحب أفلاطون ، لم يستطع البقاء فى أثينا ذلك ان الحزب المناوىء للمقدونيين فى أثينا بقيادة ديموستين بدأ يتعقبه لصلته بالبلاط المقدونى ، فقصد آسيا الصغرى حتى استقدمه فيليب اعهد اليه بتثقيف ابنه الاسكندر فى سن ١٣ سنة فظل معه اربع سنين ، وعاد الى اثينا بعد ان خضعت للمقدونيين عام ٣٣٥ ق م حيث انشأ اللوقيون، وكانت دروسه على قسمين صباحية الخاصة من التلاميذ ومسائية العامة ، وكان يلقى دروسه وهو يمشى فسمى اتباعه بالمشائين

فهو من أسرة تشتغل بالطب ، وقد تجاوز أرسطو ما يقتضيه الطب من فكر علمى عملى إلى اهتمام شخصى بمشاهدة أنواع النبات والحيوان ، بل يقال إن الاسكندر قد أصدر أوامره إلى الصيادين والحراس أن يجمعوا لأرسطو كل عجيب غريب من الكائنات الحية سواء فى البر أو فى البحر ، فإن من يحتقر النظر فى هذه الكائنات فأولى به أن يحتقر بنفسه(١) ، كل ذلك كان خليقا أن يجعل أرسطو مخالفا أستاذه الذى كانت فلسفته مستمدة من خلفية رياضية نظرية لم تثر كثيراً اهتمام التلميذ ولم يقدر لها تلك الأهمية التى عقدها أفلاطون للرياضيات ، كان من الطبيعى إذن أن يكون منحنى تفكير أرسطو واقعيا بقدر ما كان أفلاطون مثاليـا ، بل كان من المتوقع أن يكون أرسطو تجريبيا أكثر مما وجدناه ، وأن تكون فلسفته علمية على نحو أميل مما هى عليه لولا عاملين :

الأول : يرجعه بعض مؤرخى الفلسفة إلى تأثير أستاذه أفلاطون الذى لولاه على حد تعبيرهم لكان أرسطو عالماً أكثر منه فيلسوفاً(٢) .

الثانى : لم يتمكن أرسطو أن يتجاوز فى كثير من جوانب تفـكيره روح الحضارة الإغريقية التى كانت تقدر العلم النظرى أو العلم لذاته وتبخس من شأن العلوم العملية أو العلم العمل .

ليس غريبا إذن أن يكون أرسطو من الرواد الأوائل فى مجال الأحياء بوجه خاص ثم لا ينعكس ذلك على منطقه ، وإلا لكان الاستقراء لا القياس أهم صور الاستدلال لديه وأدناها من اليقين ، حقيقة لقد انعكس ذلك على تصوره لعلم النفس وعلى تصنيفه لأنواع النفوس ، ولكنه مع ذلك اتجه بعلم النفس اتجاهـا

---

(١) ول ديورانت وترجمة محمد بدران : قصة الحضارة مجلد ٢ ج٢ ص ١٥٨

(٢) المرجع السابق ص ٤٩٦ وكذلك سارتون تاريخ العلم ج٣ ص ١٥٩

نظريا وتبنى له منهجا جدليا لا تجريبيا ، لقد شدت اهتماماته التجريبية مسار فلسفته فأبعدته عن المنحنى الافلاطونى ، ولكنها لم تشده بقدر كاف وإلا لأصبح رائد التجريبية فى المنطق والعلية فى الفلسفة .

يتلخص الطابع العام لمنهج أرسطو الذى إتبعه فى فلسفته فيما يأتى :-

١ — أنه كافلاطون قد عالج مباحث الفلسفة جميعا على نحو متسق متكامل ، يبدو الإتساق بين المنطق مدخل العلوم وآلتها وبين الميتافيزيقا قمة العلوم ، يدور المنطق حول الماهية وتدور الميتافيزيقا حول الجوهر ، يبدو الاتساق بين الطبيعة والنفس إذ يطبق نظريته فى الهيولى والصورة والخاصة بتفسير الجسم الطبيعى على النفس فيجعل النفس صورة الجسم ، هناك اتساق بين الأخلاق والسياسة فالأولى مقدمة الثانية ، تعنى الأولى بخير الفرد بوصفه انسانا وتعنى الثانية بخير الفرد بوصفه مواطنا .

٢ — بينما تبنى أفلاطون منهج الجدل فقد اتخذ أرسطو لنفسه منهجا أقام فيه من نفسه حكما بين جميع مذاهب السابقين بما فى ذلك أفلاطون ويتبع أرسطو فى ذلك خطوات أربعة .

أ ـ أنه يحدد موضوع البحث تحديداً دقيقا إذا يقول : من الضرورى أن نبدأ العلم بالفحص عن مسائله لأن العقل إنما يبلغ الاطمئنان بعد حل الصعوبات التى تعترضه ، والباحث الذى لا يبدأ بتحديد المشكلة كالسائر دون هدف لا يعرف أين يتجه ، أما الذى يبدأ بمناقشة الصعوبات فهو الذى يحدد لنفسه غاية ، وفى موضع آخر يقول بصدد تحديد الغاية : إن عملنا كعمل الرماه عليهم أن يحددوا الهدف قبل أن يلقوا بالسهام .

ب ـ انه يسرد آراء السابقين عليه سرداً نقديا إذ يمحص الحجج المتعارضة كلها

جـ - أنه يسجل الصعوبات التي اعترضت كل مذهب من المذاهب التي تتناول موضوعا واحداً وبذلك اتخذ لنفسه موقفا أفضل وأحكم فضلا عن أنه ألقى الضوء على كل جوانب المشكلة وعرف أصلح المناهج لها .

د - أنه يقيم بعد ذلك نظريته مستفيداً من كل آراء السابقين متجنبا أخطاءهم .

---

* يشير الدكتور محمود زيدان في كتابه منـاهج البحث الفلسفي إلى منهج آخر لأرسطو ، إنه المنهج التمثيلي أو ما يسميه مفكرو الإسلام قياس الغائب على الشاهد ، وجد أرسطو الغائية متحققة في بعض أفعال الإنسان فطبقها على الكون بالاجمال، وجد أرسطو أن الكون الذي يحكمه العقل والغائية أكثر معقولية من كون تحكمه الصدفة العمياء والضرورة التي لا عقل لها حسب تفسير الماديين والآليين، الموجودات عند أرسطو مرتبة درجات أدناها المادة الأولى وهي مادة خالصة وأسماها المحرك الأول وهو صورة خالصة وبينها موجودات من مادة وصورة ، والكائنات الحية مكونة من مادة وصورة وصورتها هي النفس ، النفس النباتية تهدف إلى النمو والتكاثر ، النفس الحيوانية تهدف إلى نفس أهداف النبات مضافا إليها حياة الحس ، النفس الإنسانية تهدف إلى الحياة وفقا للعقل كمال الإنسان ، قسم أرسطو الكون إلى ما تحت فلك القمر وهو يشمل الكائنات الحية وغير الحية ، وما فوق فلك القمر ، عالم الأفلاك متحرك عاقل ، لأن كل ما هو سماوي فهو لدى اليونان روحاني عاقـل ، تسعى الكواكب والنجوم في مداراتها إلى الإتجاه بحركتها الغائية إلى التشبه بمحركها الأول الذي هو عقل محض ، والقول بأن بعض الكائنات كالنبات يسعى إلى تحقيق غاية لا يعني أنها واعية بتصرفاتها وأهدافها وإنما مجرد أن يتميز عالم الحياة وأدناه النبات عن عالم الجماد ، كما أن القول بالغائية لا يلغي الاستثناء فالطبيعة فهناك زلازل وبراكين وحروب ومجاعات وأطفال يولدون مشوهين ولكنه استثناء لا يهدم القاعدة ، هناك غائية كذلك في سلوك الإنسان وهي الخير الأقصى المتمثل في السعـادة المرادفة لديه للفضيلة ، والفضيلة العقلية أو النظرية أسمى من الفضيلة الخلقية أو العملية لأن الأولى تحقق كمال الإنسان وغايته، هناك غائية كذلك في السياسة التي تهدف إلى خير المواطن وسعادته . وإذا كان أرسطو لم يتجاهل الاستثناء من صدفة عمياء كما أنه مسلم بالتفسير الآلي في عالم الجماد وبذلك تفادى نقد الآليين والماديين فإنه يمكن نقد المنهج من أساسه الميتافيزيقي : إذ ليس من الضروري أن يكون شكل كل المظاهر التي نعرفه . راجع د محمود زيدان مناهج البحث الفلسفي ص ٣٧ — ٤٨ .

نموذج لمنهجه مطبقا على العلم الطبيعى :

أولا : حدد أرسطو موضوع الفلسفة الطبيعية ، فهى تتعلق بالموجودات التى فى مادة ، ويلاحظ أن كل مادى فهو متحرك : سواء بالقوة أو بالفعل ،ومن ثم فإن موضوع هذه الفلسفة الموجودات المتحركة حركة محسوسة .

ثانيا : يصنف آراء السابقين فيجدهم قد تشعبوا إلى طرائق أربعة :

١ - من ذهب إلى تفسير الوجود بمبدأ واحد ثابت لا يتغير وهم الايليون

٢ - من ذهب إلى تفسير الوجود بمبدأ واحد متغير كطاليس (الماء) وإنكسيمانس (الهواء) وهيرقليطس (النار) .

٣ - ومنهم من ذهب إلى القول بمبادىء متعددة متناهية العدد كانبادوقليس (العناصر الأربعة) .

٤ - ومنهم من قال بمبادىء متعددة غير متناهية العدد وهؤلاء ينقسمون فريقين :

أ - من جعل هذه المبادىء غير متناهية العدد لكنها متفقة جنسا كديمقريطس الذى قال بالذرات .

ب - من جعل هذه المبادىء غير متناهية العدد ولكنها مختلفة كيفا مثل انكسيمندريس وانكساغوراس، هكذا صنف أرسطو آراء من سبقه من الفلاسفة تصنيفا جدليا لا تاريخيا .

ج - ينقد أرسطو آراء الايليين فيرى أن موقفهم بانكار التغير والكثرة يؤدى إلى إنكار موضوع العلم الطبيعى، وينتقد القائلين بمبدأ واحد متغير أنهم لم يلاحظوا أن التغير بين الموجودات جوهرى كيفى وليس عرضيا كميا ، وينتقد القائلين بمبادىء متعددة لأنهم عجزوا عن تفسير وحدة الكائن العضوى .

د- يخلص أرسطو من هذه الإنتقادات إلى عدة نظريات مبتكرة لم يسبقه اليها أحد ، فأنتقاده الايليين أدى به إلى فهم الوجود على أنه يقال على أنحاء متعددة وليس على نحو واحد، ومن هنا جاءت نظريته فى المقولات التى تعد من أهم آرائه فى المنطق ، ومن إنتقاده الطبيعيين أقام نظرية الهيولى والصورة ليفسر الوحدة والكثرة ، والثبات والتغير .

ثالثا : حدد أرسطو منهج العلم كما حدد موضوعه ، غاية العلم عنده بوجه عام التعرف على العلة ولكن لكل علم منهجا خاصا ، وقد كان هذا حريا به أن يكتشف علم المناهج ، وهو وان لم يتوصل إلى ذلك فإنه يسجل له الفضل فى :

١ - أنه أسس علم المنطق ، ومع كل الانتقادات التى يمكن أن توجه من المحدثين إلى منطقه فإن فرعا من فروع المنطق الحديث لم يستطع أن ينسخ منطق أرسطو أى أن يكون بديلا عنه ، إذ لا غنى عن دراسة منطقه قبل دراسة أى فرع من فروع المنطق الحديث : الاستقرائى أو الرمزى .

٢ - أنه وضع تصنيفا محدداً للعلوم مقسما إياها إلى علوم نظرية وعملية محدداً منهج كل علم وموضوعه مرتبا هذه العلوم فيما بينها وفقا لمنهجها وتدرجها من المحسوس إلى المجرد بالنسبة للعلوم النظرية أو من خير الفرد إلى خير الدولة بالنسبة للعلوم العملية .

ويلاحظ فى تصنيف أرسطو للعلوم أنه أقحم عليه تقييما خلقيا (أشرف - أكمل - أسمى) وقد تجلى ذلك فى مظهرين :

أ - إعتباره شرف العلم من شرف موضوعه ومن ثم فإن ما بعد الطبيعة هى أشرف العلوم لسمو موضوعها من ناحية ولبعد هذا الموضوع عن التغير ، إذ التغير عنده مظهر من مظاهر النقص وهي مسلمة لايصح أن تكون موضع تسليم مطلق

ب - إعتباره المجرد أسمى من المحسوس ، فالعلم الرياضى أسمى من العلم الطبيعى لأنه أقل منه حساً وأكثر منه تجريداً ، وتقييم العلم وفقا لموضوعه المحسوس أو المجرد مسلمة لا نسلم بها ، ولكنها العقليه الإغريقية التى احتقرت العمل ، وقد كان أرسطو فى ذلك موافقا لها مشايعا أستاذه أفلاطون أكثر من أن تنعكس عليه الروح العملية لأسرته التى كانت تشتغل بالطب .

يتلخص الطابع العام لفلسفة أرسطو من الناحية المذهبية فيما يأتى :

١ - فى مجال علم المنطق:

فهو مؤسس هذا العلم بلا جدال ، وإن كان قد أفاد من محاولات السابقين وبخاصة الايليين الذين لهم الفضل فى تنبيهه إلى نظريته فى المقولات، وإلى أفلاطون حيث أمكن لأرسطو أن يتجاوز القسمة الثنائية لدى أستـــاذه إلى نظريته فى التعريف بالحد .

وتبدو كتب أرسطو المنطقية مطردة فى موضوعاتها على نحو منطقى ابتداء من المقولات إلى العبارة (بحث فى القضايا) ومن القضايا يتشكل الاستدلال وهـو موضوع التحليلات الأولى ثم يصنف الاستدلال وفقا لدرجة اليقين فيه، فإن كانت مقدماته يقينية فذاك موضوع « التحليلات الثانية »، وإن كانت مقدماته ظنية فذاك موضوع الجدل ، وان كانت سفسطه فذاك موضوع « الأغاليط » .

يغلب على منطق أرسطو الصوريه التى جعلته يعد القياس أكـــمل صور الاستدلال دون الاستقراء ، ولكن صورية منطق أرسطو ليست كاملة وتلك كانت نقطة البدء فى العصر الحديث لدى أصحاب المنطق الرمزى ، كما أن اهتمام أرسطو بالقياس دون الاستقراء كان منطلقا لدى أصحاب المنطق الحـــديث كى يكملوا ما أهمله أرسطو من استقراء هو منهج العلوم التجريبية .

لقد ساد منطق أرسطو الفكر الغربي — والإسلامي إلى حد ما — قرونا طويلة ، ولا يعد أرسطو مسئولا عما انتهى اليه منطقه من آليه كانت من مظاهر تدهور الفكر في العصور الوسطى .

ولا يمكن الفصل بين منطق أرسطو وميتافيزيقاه ، كما لا يمكن الفصل بين مبحث الحد لديه واشتراطه في التعريف أن يكون بالجنس والفصل أو بالأحرى بالماهية وبين مبحثه في الجوهر في فلسفته الأولى * .

٢ – في مجال الميتافيزيقا (ما بعد الطبيعة) :

قسم أرسطو العلل إلى أربعة ، وجعل المحرك الأول مجرد علة غائية لا فاعلة فجاءت الألوهية لديه قاصرة عاجزة .

لم يتخلص أرسطو من التصور اليوناني ، أو بالأحرى التصور الشرقي البابلي عبر الفيثاغورية والأفلاطونية أن كل ما هو سماوي فهو روحاني ، ومن ثم جاء تصوره للكواكب ككائنات عاقلة كذلك جاء تصوره للشمس ضمن مجموعة الكواكب التي تدور حول الأرض ، وغني عن البيان رفض العلم لهذه التصورات تماما كما ترفض الأديان السماوية تصوره للألوهية وقدم العالم .

قدم أرسطو تحليلات ميتافيزيقية لعدة مصطلحات كالجوهر والعلية والمكان والزمان والخلاء والحركة ، وقد أصبحت هذه الابحاث تشكل جزءا هامـــا من

---

* أدرك ابن تيميه ذلك ومن ثم انتقد موقف الاسلاميين الذين يقبلون منطق أرسطو ويرفضون ميتافيزيقاه فمنطق أرسطو يلزم عنه القول الماهية أي بأن الأشياء تفعل بطبعها وفقا لماهيتها دون تدخل قدرة الهية أو تسخير الهي فضلا عن أنه أي المنطق يلزم عنه في الميتافيزيقيا القول بقدم العالم .

راجع كتاب ابن تيمية الرد علي المنطقيين .

مباحث الميتافيزيقا بل طغت حينا من الدهر على كل بحث فلسفي .

لم يجد الفلاسفة التجريبيون في العصر الحديث إبتداء من جون لوك حتى الوضعيه المنطقية مروراً بهيوم مناصا من بيان زيف هذه المصطلحات من أجل التخلص من السيطرة الميتافيزيقية لأرسطو بينما اتجهت الفلسفة العلمية إلى تقديم تعريفات تخضع لتصور العلم فتعدلت العلية إلى القانون وأصبح لكل من الزمان * والمكان مفهوم مغاير تماما لما تصوره أرسطو .

خلاصة القول لقد كان من المتعذر على العقلية الإغريقية مهما بلغت من الشموخ لدى أرسطو أن تقدم تصوراً ناضجا للألوهية إذ قدر لهذه العقلية أن يكون الدين أضعف جوانبها ، بل إن فلسفة أفلاطون الإلهية ــ وبما تنطوى عليه من تصور العناية الإلهية التي أنكرها أرسطو إذ العالم لديه أدنى من أن يعنى به المحــــرك الأول ــ لأ كثر نضجاً من فلسفة أرسطو بفضل ما تسربت إليهـا من عناصر روحية شرقية ، ومن ثم لم تستطيع الهيات أرسطو أن تصمد أمام غزو الأفلاطونية المحدثة ــ ليس في تصور المسيحيين والإسلاميين من الفلاسفة فحسب ــ حيث نسبت أفكار لأفلوطين إلى أرسطو ــ بل غزت الأفلاطـــونية اللوقيون ذاته في عهود بعض خلفائه (١) .

---

* على سبيل المثال المفهوم الفلكي للزمان لدى أرسطو وارتباطه بالحركة أي حـركة الافلاك أو الأجرام ومن ثم فلا معنى للزمان بدون الكواكب وحركتها ولما كان العالم لديه قديما جاء تعريفه للزمان أنه الصورة المتحركة للازلية ، مفهوم الزمان في الطبيعة الحديثة بعد نظرية النسبية أنه البعد الرابع للمكان .

(١) لم يصبح رؤساء اللوقيون وأعضاؤه مشائين خلصا منذ القرن الثاني ق . م ، بل لا يعد بطليموس وجالينوس مشائين الا بقدر محدود . راجع : سارتون « تاريخ العلم حـ ٣ ص ١٨٧ » .

٣ - فى مجال علم النفس :

يمكن أن يعد أرسطو مؤسس علم النفس بمفهومه الفلسفى ، وربما كان علم النفس لديه خاصة بصدد حديثه عن أقسام النفوس وخصائصها من أكثر الموضوعات التى أفاد منها أرسطو الفيلسوف من أرسطو العالم ، حقيقة إن تعريفه النفس وثيق الإرتباط بنظريته فى الهيولى والصورة كما أن نقده الجدليين والماديين بصدد صلة النفس بالجسم ذو طابع جدلى فلسفى ، ولكن حديثه عن كل من النفس النباتية والنفس الحيوانية بلغ من دقة الملاحظة حدا لا يمكن أن يكون معه وليد التأمل العقلى وحده ، ولا زالت لكثير من ملاحظاته وإنتقاداته للاتجاه المادى على الخصوص قيمتها ، بل لازالت نظرية أرسطو فى الصلة بين النفس والجسم وترابطهما والتفاعل المتبادل بينهما تفوق ما ذهب اليه بعض المحدثين الذين اتجهوا اتجاها بشريا جسميا بحتا فلم يدركوا أثر الانفعالات النفسية على الوظائف الفسيولوجية أو اتجهوا اتجاها نفسيا بحتا فغاب عنهم أثر الظواهر الفسيولوجية على سلوك الإنسان

على أنه ما أن يتجاوز أرسطو مجال النفسين النامية والحاسة إلى النفس الناطقة حتى يضعف أثر الخلفية التجريبية ، فلا نكاد نجد إلا تصورات ميتافيزيقية بحته من حديث عن العقل الفاعل والعقل المنفعل . وهى تصورات لا أساس لها من الواقع والتجربة بل لا أساس لها من الاتجاه الروحانى الذى نلمسه لدى أفلاطون ، ومن ثم جاءت هذه التصورات يشوبها كثير من الغموض والإلتباس عاصة بصدد مشكلات جوهرية كخلود النفس أو فنائها بفناء الجسم *

---

* وحين شايعه فى ذلك بعض فلاسفة الاسلام ترددوا الى تردد وتخبط ، على سبيل المثال رأى الفارابى فى خلود النفس ، تارة يجعل الخلود للنفس البشرية الفاضلة دون الشقية وتارة يجعله للنفوس جميعا ،

٤ - فى مجال علم الاخلاق :

ترجع فلسفة الأخلاق فى رأى مؤرخى الفلسفة إلى سقراط ،ولكن أرسطو هو أول من قدم دراسة فلسفية متكاملة منهجا وموضوعا عن الأخلاق ، ولقد انتقد أرسطو أستاذه أفلاطون بصدد المنهج اللازم للأخلاق ،فحديث أفلاطون عن مثال الخير أو الخير فى ذاته فى نظر أرسطو غير متحقق فى الواقع ولا يمكن أن يصل اليه إنسان ، ومن ثم فلا يصح إتباع الجدل النازل بصدد الأخلاق أى الانتقال من المبادىء أو الأصول العامة إلى ما هو خير جزئى فى عالمنا ، ولكن العكس هو الصحيح أى استقراء الواقع وملاحظة مفهوم الناس للخير والسعادة ثم الصعود منها إلى الخير الأقصى أو الخير الكلى ، يجب إذن الإبتداء بالوقائع الملموسة لأن الواقع هو المحك فى معرفة الخير من الشر ، يعتبر أرسطو أن ذلك هو المنهج اللازم للأخلاق بإعتبارها علما عمليا * ، وبذلك قطع أرسطو كل اتصال بين الأخلاق وبين أية أصول أو مبادىء ميتافيزيقية يمكن أن تكون مؤثرة فى سلوك الإنسان كالإيمان بالعناية الإلهية وخلود النفس وما يلزم عن ذلك من ثواب أو عقاب .

هناك عدة ملاحظات على هذا المنهج :

١ - أنه مع نقد أرسطو العنيف لأستاذه أفلاطون بصدد مثال الخير أو الخير فى ذاته وبصدد اقحام أفلاطون فى رأيه المسائل الميتافيزيقية فى موضوعات الأخلاق ، فإن أرسطو نفسه لم يستطع أن يتحرر مما إنتقد أفلاطون عليه ، فهو

---

* يقول أرسطو : لو سلمنا بالخير مثلا مفارقا كان من الواضح أن الانسان لا يستطيع أن يحققه ولا أن يحصل عليه ؛ ونحن انما نبحث عن الخير الذى يمكن تحقيقه واكتسابه ، اذ ما الذى يعود على النساج أو النجار من معرفة الخير بالذات ؛ وهل كان الطبيب أو القائد يصبحان أفضل لو أن كلا منهما عرف مثال الخير ؟

يعتقد أن السعادة نعمة من الآلهة وأن من السعادة أن ترضيهم إذ الحكيم محبوب من الآلهة ويلزم عن هذا أنه أسعد الناس (١) .

٢ — أن أرسطو كان معبراً فى فصله بين الميتافيزيقا والأخلاق أحسن تعبير عن الروح اليونانية ، إذ لا صلة بين الأخلاق والدين لدى معظم الإغريق ، كيف وآلهتهم نفسها لا ترعى قيم الأخلاق .

٣ — بالرغم من أن الأخلاق من أكثر مباحث الفلسفة مشكلات وإختلاف آراء وتعدد نظريات . ربما لا يزيد عليها فى ذلك غير الميتافيزيقا — فإن المسار العام للأخلاق سواء لدى القدامى أو المحدثين قد شايع رأى أرسطو وجانب إتجاه أفلاطون إذ لم يجد معظم فلاسفة الأخلاق مسوغا لربط الأخلاق بالميتافيزيقا أو الدين

٤ — أنه ترتب على ذلك عدة تناقضات فى صميم فلسفة الأخلاق ، فهى من جهة علم عملى وهذا صحيح ولكن لا نتوقع من جهة أخرى أن يصبح من درس فلسفة الأخلاق أو حتى تخصص فيها أفضل خلقاً بعدها عما كان قبلها ، فى هذا المعنى أجاب هيوم حين سئل عن ضعف أثر كتابه فى الأخلاق فى سلوك الإنسان : إننا فلاسفة نبحث فى الأخلاق وليس من مهمتنا أن نحث على مكارم الأخلاق فذلك شأن الوعاظ ! من الغريب أن أدرك أرسطو ذلك التناقض بين كون الأخلاق علما عمليا وبين أنها لا تؤدى إلى عمل ، إذ يشير فى نهاية كتابه فى لهجة تنم عن المرارة والأسف : (لو كانت الكتب والخطب وحدها تكفى لردنا أخياراً لكانت مطلب الناس جميعاً) ، ولكنه لم يدرك أن ذلك راجع إلى الميتافيزيقا أو أصول الإعتقاد التى تجاهلها ، إذ ما من شىء يحرك الإرادة البشرية التى بدورها تؤثر فى السلوك مثل الاعتقاد .

---

1 — The Ethics of Aristotle Book X ch. q p. 308 .

٥ - تعبر فلسفة أرسطو الأخلاقية عن وجهة نظر « الرجل العادى » أو « المتوسط » لا لأنه جعل الفضيلة وسطاً عدلا بين رذيلتين فذلك حق ، وإنما لأنه حاول أن يجد توازنا بين الخيرات المادية الخارجية وبين الخيرات الداخلية النفسية ، فلا يكون الرجل سعيداً بدون تحقق الصحة أو المال أو الاسرة السعيدة هذا من جهة ، ومن جهة أخرى وحد أرسطو بين الفضيلة والسعادة وجعلهما مترادفين مع أنه لا ذاتية بين الفضيلة والسعادة بل أنهما كثيراً ما يتعارضان ، ولكن أرسطو أراد أن يقدم فلسفة أخلاقية تصلح لأغلبية البشر الذين يقفون عند حد متوسط من الأخلاق لا يتجاوزونه إلى « فدائية » سقراط ولا يهبطون إلى درك « ابتذال » أرستبوس . ومن هنا استمدت فلسفة أرسطو الأخلاقية قيمتها .

٥ - فى مجال السياسة :

من الطبيعى أن يقدم أرسطو نظرية ناضجة خصبة فى السياسة ، إذ لم تعرف حضارة أخرى النشاط السياسى الذى عرفته حضارة الإغريق ، فعرف أرسطو أنظمة السياسة بكافة أشكالها من حكم الفرد إلى حكم الديمقراطية ومن الارستقراطية إلى حكم طبقة التجار ، ومن شخصيات مستنيرة إلى زعماء ديماجوجيين ، لقد درس أرسطو ١٥٨ دستوراً سياسيا لأنظمة المدن اليونانية وكتب عنها لا غرو أن تصبح لآراء أرسطو السياسية قيمتها إلى اليوم * .

والسياسة عند أرسطو إمتداد الأخلاق أو أن الأخلاق مقدمة السياسة ، وبذلك أراد أن يخضع السياسة لقيم الأخلاق ، وهو أمر بلا شك يحمد عليه خاصة إذا قارناه بكتاب محدثين فرقوا بين أخلاق الفرد وأخلاق الدولة

---

* يقول جورج سارتون « لم يظهر كتاب فى السياسة يجاريه حتى العصر الحديث » راجع تاريخ العلم الترجمة العربية جـ ٣ ص ٣٣٤

وإستباحوا الدولة امداو قيم الأخلاق بإسم مصلحة الدولة ابتداء بمكيافيل وانتهاء بماينكه مؤرخ النازية ولا زالت الأيام حبا لى !

والسياسة عند أرسطو واقعية إذا قورنت بيوتوبية أفلاطون فليس لديه من نظام مثالى مطلق ، وانما يتقرر صلاح الحكومة وفقا لطبيعة الشعب ، بل لقد أخذ على أفلاطون أنه توهم شكلا واحداً ثابتا لكل المجتمعات فى كل الظروف . والسياسة عند أرسطو واقعية لأنها لا تبدأ كما هو الحال لدى أفلاطون من تصور محض وإنما استخلصها أرسطو من صميم العلاقات القائمة بين أفراد المجتمع فى الأسرة مثلا يحدد أرسطو لكل فرد فيها دوره الذى ينبغى ألا يحيد عنه مراعيا طبيعة كل من الرجل والمرأة ، بين الأب والإبن ثم بين السيد والعبد ، حقيقة إنه أسرف فى تصور الطبيعة النوعية لكل جنس حتى بدت نظريته عنصرية خاصة حين تصور العبيد آلات حية وحين تصور البرابرة أدنى من الإغريق ، ولكنه بصدد العبيد بالذات كان فى ذلك معبرا عن روح عصر حضارته ، ومع ذلك فلم يفرض أرسطو — كما فعل أفلاطون — نظاما للتربية مخالفا للطبيعة البشرية ، فخطأ أرسطو فى أنه تصور الطبيعة البشرية للعبيد أو البرابرة على النحو الذى تصوره لا أنه عرف الطبيعة البشرية التى تقوم على المساواة وتقتضيها ثم أراد أن يخالفها ويفرض عليها نظاما وضعيا مصطنعا ، فالقاعدة العامة لديه سليمة وهو أن صلاح النظام يتوقف على استجابته لأحكام الطبيعة البشرية ، فى ضوء ذلك اعتبر المبادلة أو المقايضة نظاما طبيعيا بينما اعتبر النقد وسيلة مصطنعة ثم حذر أن تنقلب الوسيلة إلى غاية، وإذا كان النقد أداة مصطنعة للتبادل وليس مصدر انتاج فإنه أعتبر الربا نظاما غير طبيعى لأنه مولود غير شرعى لأب عقيم هو المال .

الأسرة نظام طبيعى ومن ثم فإن الغاء أفلاطون لوظيفة الأسرة إذ تتكفل الدولة بتربية الأطفال هو نظام معارض للطبيعة وعبارته الشهيرة بصدد تساويه

الأبناء إذ تتبناهم الدولة جميعا : ان ابن الجميع ليس ابنا لأحد ، الملكية نظام طبيعى ومحاولة أفلاطون حرمان طبقة الحراس من التملك شيء غير طبيعى ، الدولة كذلك نظام طبيعى وليس عقداً متعارفاً بين حاكم ومحكومين يمكن تصور الغائه أو عدم وجوده ، فمعيار الصلاح فى أنظمة المجتمع والسياسة فى مسايرة الطبيعة البشرية لا فى إملاء نظام مصطنع يتصور اليوتوبى أنه يقوم به ما هو معوج .

والسياسة عند أرسطو تحكمها قيم الاخلاق ، لا لأن السياسة إمتداد للاخلاق فحسب أو لأنه لم يفرق بين أخلاق الفرد وأخلاقيات الدولة فقط وانما لأنه تبنى نظرية « الوسط العدل » الأخلاقية بصدد السياسة ، أنه إن كان لا بد من تحديد أصلح نظام فإنه حكومة الطبقة الوسطى لأنها تحول دون غوغائية الديمقراطية واستبداد الارستقراطية . أو الحكم الفردى .

هكذا نجد لأرسطو آراء مازالت لها قيمتها بل وربما تجاوزت آراء كثير من المحدثين من حيث قيمتها ، لولا بعض زلات أخذت عليه إذا لم يتجاوز العقلية الاغريقية سواء بصدد الرق أو بصدد احتقار العمل اليدوى وازدرائه الأجر على العمل يدويا كان أم عقلياً .

---

* كانت نظرة أرسطو الى فكرة الاجر ارستقراطية ، وصم السوفسطائيين لانهم يتناولون الاجر بأنهم بائعو سلع عقلية وكان يرى أن العمل طلبا للدخل يحرم صاحبه من حرية التفكير .

الفصل الخامس

المظهر الثانى : التـــأريخ

اعرف نفسك ولكى تعرف نفسك اعرف التاريخ

أوجست كونت

التأريخ * ـ مثله فى ذلك مثل الفلسفة ـ من مظاهر الفكر التى كان للاغريق فضل السبق إليها ** ذلك أن ظروف نشأة الفلسفة هى نفسها التى أدت إلى ظهور فن كتابة التاريخ . فكل من الفلسفة والتأريخ نتاج لنزعة الإنسانية ، والإهتمام بالإنسان لا يعد مقصوراً على الحاضر فحسب وإنما على الماضى كذلك ، ليس مصادفة إذن أن تظهر الفلسفة والتأريخ فى قرن واحد ، إنه القرن السادس قبل الميلاد ، بل أن يكون ظهور طاليس فى نفس المدينة التى نشأ منها هيكاتيوس Hecataeus ، إنها مدينة ملطية , وليس غريباً كذلك أن يزدهر فن تدوين التاريخ على يد أحد تلاميذ السوفسطائية ـ وأعنى به ثيوكيديدس ـ مادام الإنسان محور التفكير والإهتمام .

ويشـــار عادة إلى هيرودوت (٤٨٤ - ٤٢٦ ق . م تقريبا) على أنه أبو التاريخ *** ، أما حصيلته التاريخية التى مكنته من تدوين الصراع بين الفرس واليونان والذى يمثل فى حقيقته أول صراع بين الشرق والغرب فترجع فى بعضها

---

* التاريخ بدون همزة History ولفظ Historia يرجع إلى أصل يونانى ، التأريخ بألف مهموزة Historiography يعنى كتابة التاريخ أو تسجيله وتدوينه .

** تعد بعض أسفار التوراة (أسفار موسى الخمسة ـ يشوع ـ صموئيل) التى ترجع إلى القرن التاسع قبل الميلاد أول تسجيل تاريخى غير أنها مجرد قصص دينى .

*** شيشرون هو من أطلق هذا الاسم على هيرودوت .

إلى أسفاره الكثيرة ، إذ زار مصر فضلا عن مناطق كثيرة من الإمبراطـــورية الفارسية وبلاد الإغريق ، ومن ثم فلم يكن تاريخه مقصوراً على الجوانب السياسية أو العسكرية وإنما جاء شاملا لعادات الشعوب وعباداتها ولغاتها وطرائق حياتها، بل إن ما سجله مما شاهده فى مناطق من كل من فارس وشمال البحر الأسود ومصر يعد أول وثائق سجلها أجنبى لتلك البلاد ، فهو ليس « أبو التاريخ » فحسب بل انه أبو « الأثنوجرافيا » كذلك ، إذ سجل نتيجة ملاحظة دقيقة إختلاف طرائق الحياة وأسلوب التفكير لدى كل من الشرق والغرب. ومع أنه كان يسجل أحداث الصراع بطبيعة الحال من وجهة نظر اغريقية الا أنه كان الى حد ما محايداً وموضوعيا الى حد أن اتهمه بلوتارك بأنه يميل الى البرابرة .

ولا نتوقع من هيرودوت أن يتجاوز تفكير عصره فيسجل الأحداث كعالم متحرر من الاراء الخرافية والغيبية المنتشرة بين معاصريه ، بل انه يتعذر فى هذه المرحلة المبكرة من التأريخ أن يتحرر المؤرخ مما هو محبب لدى عامة الناس من القصص وما فيها من غرائب ترضى الخيال ، ومن ثم فقد جاء فى رواياته مصدقا حيث كان ينبغى أن يكون ناقداً بينما كان شاكا حيث كان ينبغى أن يكون مصدقا (١) . كذلك جاء تفكيره موافقا عصره من إيمان بتسلط القدر على مصائر

---

1 — Gomperz : Greek Thinkers Vol. 1 p. 507

ومما يذكر فى ذلك أنه صدق الناس فى وجود حيات ذات أجنحة فى بعض الصحارى ومن نمل أكبر من الثعالب وأن نطفة الزنجى أو الحبشى سوداء ! بينما لم يصدق أن الليل يصل إلى ستة شهور متصلة فى المناطق الشمالية ، ومع ذلك فقد كان يحكم عقله أحيانا فيشـك فى بعض معتقدات الاغريق أو يرى أن آ له الأولمب من وضع هوميروس وهزيود كما كان يعرض أحيانا التفسيرات الواقعية المعقولة الى جانب التعليلات الغيبية الخرافية راجع قصة الحضارة مجلد ٢ جزء ٢ ص ٣٣١

الناس سواء ما يصيبهم من خير او ما ينزل عليهم من شر دون سبب مفهوم إلا تقلبات الحظوظ التى ليس للانسان عنها من مفر .

على انه ان كان لهيرودوت اخطاء منهجية بصدد تصوره لكتابة التاريخ فإن له مأثرتين :

١- انه كان ينتقل من مجرد الوصف إلى التعليل * بل إنه حاول ان يتجاوز تسجيل احداث الصراع بين الشرق والغرب مثلا بين الفرس والإغريق إلى تحرى أسباب هذا الصراع من اختلاف فى اسلوب حياة وتفكير كل من الشعبين .

٢ ـ انه لم يجعل التاريخ مقصوراً على الوقائع السياسية وانما تجاوزها الى الجانب الحضارى من التاريخ ، وان اضطره ذلك الى ان يعرض لفـــترة زمانية ولشعوب ممتدة الى اكثر مما يتطلبها البحث التاريخى الدقيق ، ومن ثم جاءت اخطاؤه فى وصف طبائع الشعوب اقل من اخطائه فى التاريخ .

ويعد ثيوكيديدس Thucydides (٤٧١ - ٤٠٧ ق.م) ثانى اثنين من اعظم مؤرخى الإغريق ،اذ سجل وقائع الحرب البيلوبونيزية (٤٣١ - ٤٠٤ ق.م) بين اثينا واسبرطه ، وهى الحرب التى اشتركت فيها معظم المدن الاغريقية حتى كانت بمثابة حرب اهلية شاملة ، ولما كان ميدان الصراع بينها محصورا فقد جاء عرضه اكثر دقة من هيرودوت ** ، غير ان انتساب المدينتين الى حضارة

* استهل كتابه بهذه العبارة : هذا عرض لتأريخ هيرودوت الهليكرنسى يقصد به ألا يمحو الزمان ما قام به الهلينيون والبرابرة من أعمال مجيدة عجيبة ويقصد به بنوع خاص ألا تنسى الأسباب التى من أجلها شنوا الحرب بعضهم على بعض .

** يقول ثيوكيديدس فى مقدمة كتابه : انه لم يضح بالحقيقة من أجل الطرافة أو التشويق .. وأنه اعتمد على أصح المعلومات .. ووصل الى نتائج غاية فى الدقة .. وان فقد كتابه الطرافه والمتعة بسبب خلوه من القصص الخيالية المثيرة للعواطف فإنه لما رأى ...

واحدة وأن إختلف نظام حكم كل منها جعل ثيوكيديدس لا يهتم بالجانب الحضارى وإنما بمجرد سير المعارك وما يتصل بها من جوانب سياسيه ، ذلك أن قصر الفترة الزمنية نسبيا — سبع وعشرون سنة — وضيق الرقعة المكانية قد مكناه من تسجيل عميق للعامل السياسى ومصالح المدن والقوى الخارجية التى تدخلت فى الحرب ومن ثم إستطاع أن يحيط بمعظم الظروف المحيطة بنشوب الحرب .

كان ثيوكيديدس أقرب إلى روح المؤرخ الحديث من هيرودوت بتحرره من سرد القصص وتشككه فى الغيبيات وسخريته من النبوءات والعرافات حتى جاء عرضه علميا فى غير جفاف ، إذ إستطاع أن يعرض من الخيال دقة تصوير الواقع وما فيـــه من مآسى ، وبذلك إستبقى عنصر التشويق بعد أن إحتفظ بالحقيقة المجردة الخالدة على مدى العصور ، وليس هناك ما هو أكثر حيوية من ذكر الحقيقة . وبذلك لم يكن مجرد راوية وإنما يعد مبتكر التأريخ النقدى ، لقد أراد بروح العالم وبصيرة الفنان أن يسجل السبب الحقيقى للحرب مستبعدا تدخل قوى غيبته مسجلا مسار التاريخ من خلال قوة الإنسان وضعفه .

وتلميذ السوفسطائيين قد أفاد من تعليمهم فقدم مادة تاريخية فيها وجهتى نظر الفريقين المتحاربين ، إذ الحقيقة فى التأريخ لا تقتضى الدجماطيقية المذهبية وإنما تتكافأ الأدلة ما دام الصراع قائما ، فبينما هو أثينى فقد قدم وجهة نظر إسبرطة فى الصراع فى غير مسخ ولا تشويه ، كذلك كان يقدم الآراء المتعارضة فى مناقشات

= الباحثون الذين يرغبون فى الوصول إلى حقائق الماضى الصحيحة ليستعينوا بها على تفسير حوادث المستقبل التى تشبه بلا شك حوادث الماضى ان لم تكن صورة مطابقة لها ، لذا رأى الباحثون أن فى ذلك فائدة لهم فإنى أرضى بذلك ، فلم أكتب كتابى ليكون أقصوصة يصفق لها الناس ويستحسنونها بضع لحظات وانما كتبته ليكون ملكا لكل العصور .

المجلس الشعبي في أثينا ، وبينما هو معجب ببركليس كشخصية مستنيرة فإنه لم يتحامل على الزعماء المهرجين من أمثال كليون ، ولم يشذ عن سرد الرأى وضده إلا نادرا وذلك حين عرض لخطب ثلاثة ابركليس (الحث على حرب إسبرطه - الدفاع عن سياسته بعد انتشار الوباء — الخطبة الجنائزية) ويتجلى حياده حين يصف خصائص الديمقراطية الإثينية إذا قورنت بالحكم الاستبدادي في إسبرطه .

ووريث تعاليم السوفسطائيين يرى في التاريخ مظهراً لتمجيد البطولة وأن الحق هو القوة ، تلك القوة الممثلة في أبطال التاريخ الذين يتحكمون في مساره ومن ثم جاء اهتمامه بتأريخ الرجال لا بتسجيل مظاهر الحضارة .

ولقد تأثر بسحر بلاغة السوفسطائيين كذلك حين جعل من شخصياته في خطبهم أفصح الناس كما لو كانوا جميعا قد درسوا في الخطابة لدى جورجياس لا يفرق في ذلك بين إسبرطي لا يعرف إلا لغة الحرب وبين اثيني تعلم على أيدي السوفسطائيين (١) .

ولقد قارن سارتون (٢) بين كل من هيرودوت وثيوكيديدس ، فمن الناحية الزمانية جاء الأول ممثلا لعصر الملاحم متأثراً بهوميروس مع أنه جاء في نهاية ذلك العصر ، ومع أنه لا يفصله عن ثيوكيديدس إلا عشرون عاما الذى جاء ليمثل نهاية عصر ازدهار حضارة الإغريق ، ومن الناحية المكانية جاء هيرودوت من تخوم الهيلينية فجاء نصف شرقي في تفكيره وتصويره بينما جاء الثاني من أثينا صميم الهيلينية — فقد كان هيرودوت محباً للعجائب والغرائب بينما كان ثيوكيديدس واقعيا ، وثقافة هيرودوت من رحلاته بينما شكل أساتذة الخطابة والبيان والمسرح ثقافة تلميذ السوفسطائيين ، لقد سجل هيرودوت التاريخ كما تسجلها الملاحم بينما انطق ثيوكيديدس حوادث التاريخ كما ينطق كتاب التراجيديا شخصيات الممثلين .

---

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة

(٢) سارتون : تاريخ العلم جـ٢ ص ١٩٦ - ١٩٨

الفصل السادس

المظهر الثالث : المسرح

« يتعلم الإنسان الحكمة فى مدرسة الاحزان »

الكورس فى مأساة أوريست لاسخيلوس

المسرح بدوره مما انفردت به العقلية الإغريقية ، وإذا كانت الفلسفة قد قامت لتعوض قصور أديان اليونان بصدد تقديم حلول تشبع تطلع الإنسان نحو معرفة أسرار الوجود والحياه ، فإن الفلسفة لا تكفى لتسد فراغ الدين ، لأن الفلسفة الخاصة فضلا عن أن مهمتها نظرية تأملية وليست عملية تهذيبية ، ومن ثم ظهر المسرح المأساوى ليكمل مهمة الفلسفة فى تعويض قصور أديان اليونان ، لا غرو إذن أن يصدر تشريع أثينى منذ عام ٤٢٠ ق . م بمنح إعانة لمشاهدى المسرحيات تمكينا للعامة من حضورها من جهة ، ولأنها لم تكن تعد ترفا وإنما لأنها تصقل الشعور وتهذب الوجدان وأن مهمتها على حد تعبير أرسطو هو تزكية النفس وتطهيرها من جهة أخرى ، وغنى عن البيان أن هذه المهمة فى حضارات الشرق كانت موكولة للأديان .

١ ـ التراجيديا : نشأت الفلسفة حين تجاوزت العقلية اليونانية مرحلة الأسطورة إلى الفكر ، أما بداية المسرح فقد كان فى منشئه جزءا من مهرجان الربيع حيث كان المغنون يقدمون الجدى قربانا للاله ديونسيوس ـ إله الخمر والخصوبة ـ ثم تطور إلى مسرح مأساوى أو تراجيديا حيث أصبحت الموضوعات غاية فى الجد

والعمق بعد أن كانت دراما ساتيرية * تنطوى على إسفاف وابتذال ** ولقد كانت المأساة إبان إزدهار المسرح مقتبسة من الملاحم والفولكلور الشائع *** ولكنها لا تعالجه على نحو هوميرى قيني وانما على نحو يثير فى المشاهد التأمل والتفكير فى صميم مشكلات النظام الكونى وحياة الإنسان : علاقة الإنسان بالقوى المسيطرة على الكون ، وعلاقة ذلك كله بالقدر ، وكان ذلك كله يأتى على لسان الكورس أو متضمنا فى نص التراجيديا .

وكانت تقام مسابقات جديدة كل عام يسهم فيها مائتين وثمانين من المنشدين والراقصين ، وكل مسابقة فى المسرحيات الفكاهية ـ أو الكوميديا ـ تتطلب ست عشرة مسرحية جديدة ومائة وأربعين من المغنيين والراقصين، ويذكر فيرجيسون أنه فى خلال قرن واحد كتب وعرض على المسرح فى أثينا ألفان من نخبة المسرحيات على حين أنه قدمت ستة آلاف قطعة موسيقية ، وكان على ألفين من منشدى أثينا أن يستظهروا كلمات الأغانى والأناشيد الجماعية فى المسرحيات وأن

---

* دراما ساتيرية Satyric Drama نسبة إلى ساتير Satyr وهو التيس أو الجدى رمز القوة الجنسية فى طقوس اله الخصب ديونسيوس .

** حول نشأة التراجيديا اليونانية راجع بحث زيجل عن التراجيديا فى دائرة المعارف الكلاسيكية وراجع أيضا د . لويس عوض فى نصوص النقد الأدبى (اليونان) ص ٣٠٥ . ٣١٠ .

*** استمد المسرح أصوله من الطقوس الدينية حيث كان يوضع تمثال للاله ديونيسيوس ويضحى أمامه بتيس يقطع لربا واله الخمر فى نشوته ، وكانت دار التمثيل تعد كالمعبد فى قداستها وكان ذلك يجرى احتفالا بالإله ديونسيوس وفيه يمثل عذاب الإله وموته ثم استبدل به عذاب بطل من أبطال الأساطير من أجل قيمة ما ومن هنا جاءت عبارة أرسطو ان هدف المسرح هو تزكية النفس أى تطهيرها من الشرور بتمثيل عذاب الإله أو البطل وموته .. ثم تجاوز هذه الموضوعات إلى غيرها راجع **Murray : Greek Literature p. 212**

وراجع أيضا : ول ديورانت : قصة الحضارة مجلد ١ ج ١ ص ٤٢٠

يدربوا على الموسيقى وتشكيلات الرقص ، وفى ذلك كله تدريب للذوق الفنى من أرفع طراز (١) .

ولقد كان المسرح معبراً تماماً عن طبيعة الروح الإغريقية التى لا تجد حرجاً فى تقديم الآلهة فى صورة مهزوزة ، وإستمد المسرح مادته من مآسى الحروب ، فليس كالحرب مادة للمأساة ، ومن ثم إقتبس من ملاحم هوميروس فضلا عن أنه بلغ أوجه عقب إنتصار أثينا على الفرس .

والمسرح بعد ذلك تعبير عن الروح الإغريقية فى نزعتها الإنسانية ـ أى أن يكون الانسان ومشكلاته محور الموضوع ، إذ الإنسان هو موضوع المأساة ، تتبعه الأقدار وهو يحاول أن يفلت منها ليؤكد إرادته ، وإذا لم يقدر على دفع الأقدار فإنه إن أخطأ فقد بلغ من النبل مرتبة أسمى من القوة الغاشمة للأقدار التى تدفعه دفعاً إلى الخطيئة ثم تعمل على القصاص والانتقام منه ، يعمل القدر على هدم سعادة الإنسان ومن ثم فليس فى الحياة من أمان ، ينشد الكورس فى مسرحية أوديب عبارة كانت لدى الإغريق مثلا يجرى على ألسنتهم : لا تقل على إنسان ما إنه سعيد مادام على قيد الحياة ! عقلية لا تدرك فضلا عن أنه تؤمن بشىء إسمه العناية الالهية * .

يعد أسخيلوس ** أبو المسرح المأساوى ، ألف أول مسرحيه له عام ٤٩٩

---

(١) لويس ممفورد : المدينة على مر العصور ص ٣٠٢

* تصوير تعدد الآلهة ، والصورة المهزوزة عن الآلهة التى تعرض فى المسرحيات فضلا عن هذه الصورة القاتمة عن القوة الغاشمة للقدر كل هذه العوامل دعت إلى إعراض الفكر الإسلامى عن المسرح اليونانى .

** اسخيلوس **Aeschylus** (٥٢٤ ـ ٤٥٦ ق . م) من بلدة اليوسيس **Eleusis** بالطقوس الدينية المليئة بالأسرار ، فاز بالجائزة عن مسرحيته الضارعات ، سبقه من شعراء =

ق. م وهو فى السادسة والعشرين، نال أول جائزة فى المسابقات فى عيد ديونسيوس أو عيد الربيع - عام ٤٨٤ وظل سيد المسرح بلا منازع حتى انتزع منه سوفوكليس الجائزة عام ٤٦٨ ق . م وظل يكتب للمسرح حتى وفاته .

ألف أسخيلوس تسعين مسرحية لم يبق منها إلا سبع : الضارعات - الفرس - سبعة ضد طيبة . بروميثوس * فى الأغلال - ثم ثلاثيته مأساة أوريست : أجا ممنون - حاملات القرابين - الصافحات وتعد هذه الثلاثية ذروة أعماله إذ أنه جعل لهذه المسرحيات الثلاثة موضوعا واحداً وبطلا واحداً فى مراحل أوحلقات ثلاثة تبلغ من قوة الحبكة كأنها مسرحية واحدة من ثلاثة فصول ** .

= المسرح بتسبيس Thesdis ، أضاف اسخيلوس الى الكورس أوجوقة المنشدين ممثلاثانيا بعد أن كان واحداً ومن ثم ظهر قالب الحوار أو الديالوج ، وبذلك تحولت المأساة من مجرد أناشيد الى دراما فيها حوار وفيها حبكة فنية وتأزم المواقف والصراع وبذلك بلغت المسرحيات مرحلة النضج : كذلك أدخل نظام الديكور أو رسم المشاهد على خشبة المسرح

* تتمثل فى هذه المسرحية تصور الاغريق للالهة ، فبروميثيوس اله النار قيده زيوس الى صخرة لأنه علم الانسان النار ، ويتحدى هو زيوس اذ أنه علم الانسان من أجل ارتقائه ولا يجد بروميثوس وسيلة لخلاص بها نفسه ، وتتعجب سائر الآلهة : هل الانسان جدير بأن يعذب من أجله اله ويصلب دون أن يموت ؟ الانسان اذن هو المحور الذى تدور حتى الآلهة فى فلك مشكلاته ومن أجله تعذب ، يكافح اله من أجل ارتقائه ويتحدى فى سبيل ذلك ارادة رب الارباب الذى كتب العذاب على الانسان وعلى من يسعى أن يخلص الانسان حتى لو كان الها مثله !!

** تدور هذه المسرحية بدورها حول الانسان ، انه أوريست الانسان النبيل الذى يجد نفسه مكروها على ارتكاب أبشع جريمة قتل ، ألا وهى قتل أمه لأنها قتلت أباه وعشقت غيره ، والأم قد قتلت زوجها أجا ممنون لأنه بدوره قد قتل ابنته فانتقمت الأم منه ، ويظل أوريست ممزقا بين آلهه الانتقام وبين الصافحات أو راجيات العفو Eumenides ، وتعقد المحكمة العليا لمحاكمة أوريست وتتساوى الاصوات فتتدخل الربة أثينا بحكمها فتغلب جانب العفو وتهدأ ثائرة ربات الانتقام وليعلن أن نظاما جديداً قائما على العفو قدولد منذ ذلك اليوم.

وأسخيلوس قد طور التراجيديا من حيث المضمون كما طورها من حيث الشكل ، ولا تستمد المسرحية . قيمتها من أحداث مثيرة أو من إجادة التمثيل فحسب وإنما من مغزى الأحداث أو تلك الفلسفة الكامنة وراء حركات الممثلين وغناء المنشدين ، وقد تذكر هذه الفلسفة على ألسنة الكورس تفسيراً لوقائع المأساة وتوضيحا لما هو متضمن فى أحداثها ، وهى بذلك لا تثير الانفعـــال من صميم المأساة فحسب ولكنها تدعو إلى التأمل والتفكير فى مشكلة الإنسان ،هكذا تمتزج فى مسرحياته الفلسفة بالشعر والمأساة بالموسيقى والغناء (١) .

بلغ سوفوكليس (٤٩٦ - ٤٠٦ ق . م) بالتراجيديا الذروة وقد انتزع الجائزة من أسخيلوس عام ٤٦٨ ق . م ، وقد كتب فى حيـــاته أكثر من مائة وعشرين مسرحية ، نال الجائزة ٢٤ مرة وبقى سيد المسرح الاغريقى ثلاثين عاما وإن كان سيده على الاطلاق ، وقد بقيت من مسرحياته سبعة : المرأة أجاكس ، مأساة أوديب وهى ثلاثية : أوديب الملك - أوديب فى كولونس - أنتيجونى ، جوكستا - الـكترا ، من الناحية الفنية زاد عدد الممثلين إلى ثلاثة ، وتوارت إلى حد ما أهمية الكورس أو المنشدين ، اذ لم تعد عنده ضرورة لشرح المشكلة أو الموضوع إلا بالقدر الذى لا يمكن أن يستخلصه المشاهد ، وهو إن استخدمه فى دور رئيسى فإنما ليبلغ بالمأساة حد الذروة ، كأن ينشد الكورس نشيداً مرحا قبيل وقوع الكارثة ليزيد من وقعها ، كذلك تتجلى المقدرة الفنيـة فى أن تستغرق العقدة المسرحية كلها ولا يستطيع المشاهد أن يتنبأ بالأحداث اللاحقة وإن كانت هذه الأحداث مرتبطة فيما بينها برباط حتمى ، تتجـــلى عبقريته الفنية كذلك فى

---

(١) د . لويس عوض : المسرح العالمى (من أسخيلوس الى أرثر ميلر) ص ٥ - ١٦ نشر دار المعارف .

استخدام طريقة الاندفاع إلى وسط الأحداث من بداية المسرحية ، أى مفاجأة المشاهدين بالمشكلة التى يأتى ذكر أسبابها السابقة فيما بعد ، فمثلا يستهل مسرحية أوديب بالتفاف الشعب حول قصر الملك أوديب بعد أن قتل أباه وتزوج أمه وأنجب منها أربع لتعلن عرافة معبد دلفى أن المحنة فى صورة وباء قــد حاقت بالمدينة بسبب وجود قاتل الملك السابق فيها ، ويلعن أوديب القاتل ويصمم على البحث عنه .

وسوفوكليس أكثر عمقا فى معالجة موضوع صراع الانسان مع قوة القدر لأنه أكثر قدرة على تصوير التغلغل فى النفس البشرية لتصوير مأساة الانسان ، ومن ثم صلحت كثير من مسرحياته كى تكون مادة الدراسة السيكولوجيه وأن يشتق من أسمائها بعض مظاهر الاضطراب النفسى :أوديب (كراهية الأب وحب الأم) ـــ الـــكترا (كراهية الأم) ، سيكولوجية الغيرة فى مسرحية المرأة التراقينية التى أرسلت إلى زوجها قميصا مسمما لأنه أحب غيرها .

ومرة أخرى يدور موضوع المسرحيات حول الانسان فى صراعه مـــع الأقدار ، وإذا كان أبطاله يخطئون ويتعذبون وينزل عليهم عقاب السماء ، أو تلاحق اللعنة الأبناء فتأخذهم بجزيرة ذنوب الآباء فدور القدر جزء من الأحداث ولكن الموضوع الذى هو مركز الاهتمام إنما هو الانسان ، ذلك الانسان الذى يواجه المصائب والنكبات ، وفى مسرحية أوديب إستفسار من العملاق الخرافى عن لغز الانسان ، وفى مسرحية أنتيجونا ينشد المرتلون : ما أكثر العجائب فى هذا العالم ولكن لا شىء أعجب من الانسان ، يشق طريقه المحفوف بالأخطار يفلح الأرض .. يصيد الطيور ووحوش الغاب وأسماك البحار .. يروض الخيل والثيران ، يتجنب ريح الشتاء ، يتحمل الوباء .. ينجو من كل ما يصيب ولكنه لم يجد دواء يرد عنه غائلة الموت . إنها مشكلة الانسان ، المأساة كامنة فى حياته

تحل الكارثة بالأبرياء كما تنزل بالأشرار . تلاحق المحنة الآباء إلى الأبناء ، كان من الأفضل للإنسان ألا يولد وإن ولد فمن الأفضل أن يموت لحظة ولادته .. يجيء الشباب بالحماقات فتجتمع شرور ما لها من مزيد : حسد وصراع وقتل وحروب وختام ذلك شيخوخة توهن الجسم فتضاعف الأحزان حتى يقضى عليه بالموت .

هكذا جاء المسرح معبرا أحسن تعبير عن حال مجتمع افتقد الايمان وافتقد الاعتقاد بعناية الله ، فلم يجد فى الحياة إلا شقاء خاتمته الموت ، افتقد العزاء حين استسلم لخواء الاعتقاد بان لا شيء بعد هذه الحياة .

وربما كانت مسرحيات يوربيدس * أكثر انتشاراً من كل من أسخيلوس وسوفوكليس لا لأنه أقدر فنيا منهما وإنما لأنه أصدق منهما تعبيراً عن الروح الإغريقية وتمثيلا لخصائصها ، أما من ناحية الصناعه الفنية فقد كان أسخيلوس ملهما بينما كان هو متكلفا إذ يؤخذ عليه انه كان يقدم لمسرحيته بشرح لموضوعها وانه كان يقحم الخطب التى تعرض آراءه السياسية والاجتماعية بما لا يتناسب مع سياق المسرحية وربما يكون عادة على حساب الحبكة الفنية ، كذلك كان سوفوكليس اكثر منه تمكنا وسيطره على كل مقومات المأساة ، أما يوربيدس فقد كان مسرفا

* يوربيدس (٤٨٠ - ٤٠٦ ق . م) قدم أول مسرحياته فى نفس العام الذى توفى فيه اسخيلوس ، ألف ٧٥ مسرحية بقى منها ١٨ مسرحية أهمها الكستيس - عذارى باخوس ميديا - هيبو ليوس - هيكابى - ابنا هرقل - الضارعات - الطروايدات - الكترا - هيلين جنون هرقل - الفينيقيات ، يصفه أرسطو بأنه اكثر شعراء التراجيديا تراجيدية لأنه أقدر على اثارة الرعب والفزع بوسائل متنوعة وأقوى تأثيراً على مستمعيه ، اتهمه أرسطو بالملحمية لأنه يسرف فى تقديم آرائه الاجتماعية والسياسية فى صورة خطابية راجع عنه : د عبدالله المسلمى . يوربيدس (منشورات جيل ورسالة ليبيا)

فى افتعال الإثارة أو الأسلوب . حتى إذا بلغت المأساة عقدتها أفلت من يديه الزمام فلا يجد إلا « الإله الماكينة » أى تدخل قوة إلهية لحل مشكلة أو عقدة مسرحية تفوق طاقة البشر، ولكنه مع ذلك كله كان أصدق تمثيلا منهما عن الحضارة الإغريقية فى العصر الذى نشأ فيه .

تتلمذ يوريبدس على عدد من السوفسطائيين نذكر منهم بروتاغوراس وبروديكوس وبث آراءهم فى مسرحياته وانتهج نهجهم فى الشك فى المعتقدات والميل إلى هدم كل ما هو قديم فى جرأة بالغة ، ومع ذلك كله ومع خصومة سقراط السوفسطائيين فقد كان يوريبدس صديقاً لسقراط وكان الأخير حريصاً على حضور مسرحياته * .

أما أنه تتبلور فى مسرحيات يوريبدس خصائص الروح الإغريقية وخاصة فى عصره فنى الجوانب الآتية :

١ — أنه بمسرحياته يمثل النزعة الإنسانية أهم سمات الفكر الإغريقى .

٢ — أن مسرحياته تعبر عن روح عصره بما ذاع فيه من سفسطة كفلسفة حضارة .

٣ — أن مسرحياته نذير إنهيار قيم الحضارة الإغريقية بمـا بشر به من قيم جديدة .

لنتناول كل جانب منها فى إيجاز :

---

* بلغت صلة الصداقة بينهما الى حد أن ظن بعض الناس أن سقراط قد شاركه فى التأليف ونسب الى سقراط القول انه لا يتردد أن يسير الى بيريه مشيا على قدميه كى يشهد مسرحية من مسرحيات يوريبدس .

١ – النزعة الانسانية :

أول كاتب يعرض للمشكلات الإنسانية ، لمآسى الحب فى مختلف صوره : فراق الحبيب – إعراض الحبيب – إغراء الحبيب – الغيرة فى الحب إلى حد العداء بين الأب والإبن ، وقد فاق يوربيدس كلا من أسخيلوس وسوفوكليس فى تصوير الموضوعات الإنسانية مستقصيا جوانبها النفسيه لدى نماذج مختلفة من الناس : من الفلاح (زوج الكترا) إلى ملوك الإغريق وطروادة ، وصور النساء فى مختلف حالاتهن : فى الحب – فى الغيرة – فى الانتقام ، لم يدع فضيلة أو رذيلة للانسان إلا عرض لها عرضا واقعياً ، لم تستغرقه مشكلات الوجود بما تنطوى عليه من عموم وثبات، إذ آثر عليها حالات الإنسان بما فيها من فردية وتغير ، لم يشغله صراع الإنسان مع الأقدار وإنما آثر عليها مواقف الإنسان إزاء مشكلات الحياة .

٢ – التعبير عن روح عصره :

أثارت حركة السوفسطائيين الشك فى القيم والمعتقدات كما هو معلوم، وقد عبر يوربيدس عن ذلك شكلا وموضوعا فى مسرحياته . أما من ناحية الشكل فقدكان يعدل فى الأساطير كما يشاء على غير ماوردت فى الملاحم الهوميرية، إذ أباح لنفسه أن يبتكر أساطير لم يكن لها وجود وإن كانت حول شخصيات لها وجود أسطورى، ذلك أنه إذا كانت المعتقدات قد فقدت قداستها موضوعا فليس هناك مايبرر المحافظة عليها نصا أو شكلا ، وأما من ناحية الموضوع فجرأته البالغة فى التهجم على الآلهة وانتقام المعتقدات ، فى مسرحية هيبولتيس ينشد المنشدون فى نهاية المسرحية : أيتها الآلهة يامن أرقصت الإنسان فى الشرك، إنى أقذف فى وجهك بكرهى وإحتقارى وفى مسرحية هيكيبا : ماذا أقول يازيوس ، أأقول إنك تنظر إلى الخلق ؟ أم أن قولنا أن هناك عددا من الآلهة ليس إلا وهما وخداعا وكذبا نستمسك به ولا

يحدثنا نفعا ، ويعبر عن ذلك بصيغة أخرى فى مسرحية ميلانى بقوله : أهزيوس إن كان ثمة زيوس ، لأنى لا أعرف عنه إلا ما يقوله الناس عنه *

ولم تكن جرأة يوربيدس مقصورة على ما يرد فى مسرحياته على لسان أحد الممثلين أو المنشدين من عبارات فيها تطاول على الآلهة وإنما كان يتعمد أن يعرض المسرحية على نحو يكشف عن سخافة الإعتقاد فى الآلهة ، ترتكب كل الرذائل والموبقات وترضى عن الخيانة والفساد وتنزل الكوارث بالناس **

ومن الطبيعى أن يندد يوربيدس بالمتنبئين والعرافين ، أولئك الذين ينطقون بقليل من الحق وكثير من الباطل ، والذين يستنزلون الغيب من السماء بالفحص فى أحشاء الطيور !

٣ — فى التبشير بقيم جديدة :

تلميذ السوفسطائيين كان صديق سقراط ، يفضح معتقدات الإغريق ليستبدل بها ما هو أسمى وأقدس : لا تقل إن فى السماء آلهة .. ليس فى السماء زان ولا زانية

---

* لاحظ وجه الشبه بين هذه العبارة وبين قول بروتاغوراس : لا أعرف إذا كان الآلهة موجودين أم لا .. إنهم موجودون بالنسبة لمن يعتقد ذلك غير موجودين لمن لا يعرفهم

** يشير كتاب الغرب بشىء كثير من الاعتزاز إلى حضارة الإغريق التى حرصت على أغلى ما فى الحياة من حرية ولم تقبل حكم الطغاة المستبدين كما هو حال شعوب الشرق القديم التى أسلمت فى نظرهم للخرافات والأوهام ولم تدرك إلا قليل من الحياة العقلية . على أنه إذا كان الاغريق لم يؤلهوا ملوكهم كما فعلت حضارات الشرق وخاصة مصر فإن حضارة الإغريق قد ارتكب الخطأ المقابل . رفعت الإنسان إلى مقام الاله وهبطت بالآلهة إلى مقام البشر، لقد تحرر الاغريق من نظام الملوك أشباه الألهة ليقعوا فريسه الاعتقاد فى ألهة أشباه البشر ، تحررت العقلية الاغريقية من استبداد الملوك وتردت إلى خواء المدنيـــة فمزقهم القلق كما مزقتهم الحروب الأهلية .

ولا آلهة سجانون وآلهة مسجونون ، هذه خسة ودناءة بل هى إقاصيص مختلقة .. هل فى السماء آلهة ؟ كلا ليس فى السماء آلهه . ولا تسمحوا الحمقى أن يضلوكم ويخدعوكم بهذه الخرافات الباطلة *

وإذ ينكر ذلك كله يقول : ياذا العرش الرفيع الذى يعلو على العالم .. يامن لا نعرفك ويصعب علينا أن نتصورك ، يا منسق الموجودات ، ويا عقل عقولنا اليك يا الهى إرفع صوتى بالثناء لأنى أرى فيك الطريق الصامت الذى منه تأتى العدالة قبل أن يصل إلى نهاية أجله كل من يحى ويموت ** .

كذلك ندد يوربيدس بالحرب واصفا أهوالها ومصائبهـــا : كيف تعمى عيونكم ، يامن تدكون المدن وتخربون المعابد وتدمرون القبور مثوى جثث الموتى من الأجداد ، ألا تعلمون أنكم عما قريب ستموتون *** ثم يتغنى بالسلام ويكاد يتغزل فيه كأنه عشيقته : . إنك تفيضين بالخير العميم كأنك تأتين من نبع عميق ، ليس فى العالم جمال كجمالك ، ليس لك مثيل حتى بين الآلهة الأخيار ، إن قلبى يكاد ينفطر لطول غيابك ، لقد وهن العظم منى ولم تعودى ، وهل يضعف بصرى قبل أن ترى عيناى زهرتك وجمالك ، هل يقضى على المشيب والأحزان قبل أن تسمع أذناى مرة أخرى أغانى الراقصين الشجية ووقع أقدام من تطوق رؤوسهم أكاليل الغار ؟ ألا عودى إلى مدينتنا أيتها الحبيبة المقدسة ولا تقيمى بعيدة عنا يا من تطفئين الحقد ، ان العداوات والأحقاد ستفارقنا إذا أقمت معنا

---

* من مسرحية الكترا .

** من مسرحية الطروادیات .

*** من مسرحية الطروادیات وكذلك مسرحيات أندروماك وهرقل .

وسيخرج من أبوابنا الجنون وصليل السيوف (١) .

وإذا كانت دعوته الى السلام لم تثمر فذلك خطأ الإغريق ، ولكنها على الأقل دعت سيراكوزه إلى أن تطلق كل أسير أثينى يتغنى بأناشيد يوريبيدس لأنه انتقد أثينا فى حملتها على سيراكوزه ، وأما دعوته إلى المساواة بين شعوب البشر فكانت إرهاصا لعصر الهيلينستيه وسبقا على الرواقية ، كما كانت أقواله التى تلتمس فيها بذور التوحيد بشيراً بظهور المسيحية ، من أجل ذلك ذاع صيته بعد موته وأعتبره أغريقو العصر الهيلنستى هو وسقراط أعظم من أنجبتهم بلاد اليونان ، ولقد خيم النسيان على مسرحيات أسخيلوس وسوفوكليس بينما ظلت مسرحياته تمثل عاما بعد عام .

ومن أجل ثورته على القيم ودعوته إلى قيم جديدة اعتبره كتاب عصر التنوير فى القرن الثامن عشر فى أوربا أعظم كتاب المسرح على الاطلاق ، وهو يمثل مثلوم فلسفة الشك والاعتداد بالعقل وتمجيد الإنسان .

هكذا بدأ يوريبيدس من جهة ممثلا لروح الإغريق ومن جهة أخرى ثائراً على حضارة عصره متمردا ساخطا عليه ، داعيا إلى أفكار جديدة لا يقوى عليها الإغريق لأنها تخالف طبيعتهم التى تجاوزها يوريبيدس من أجل انقاذ حضارة بلده فلما لم يستجيبوا له تجاوزهم مسار التاريخ إلى غيرهم ، فحمل مشعل الفكر الإغريقى من بعدهم الرومان حينا وشعوب الشرق فى العصر الهيلنستى أحيانا وإنتقلت عاصمة الفكر من أثينا إلى الإسكندرية ، كذلك شأن الحضارات حين تسرى فى روحها أدواء تعجز عن ان تبرأ منها حتى تفتك بها وتأتى عليها لينتقل المجد إلى أمم غيرهم ثم لا يكونوا أمثالهم .

---

(١) ول ديورانت . قصة الحضارة مجلد ٢ ج٢ ص ٣٠٢ .

٢ ـ الكوميديا :

يقول أرسطو فى فن الشعر : إن الملهاة قد تطورت من أولئك الذين كانوا يقودون موكب عضو التذكير وهم جماعة يحملون عضو تذكير مقدس * ! وينشدون أناشيد لديونسيوس إله الخصب والخمر ، وكان القضيب رمز الصلات الجنسية من مستلزمات هذا الموكب لأنه ينتهى بزواج رمزى يهدف إلى تشجيع الإنجاب بطرق سحرية ، ومن ثم كان الزواج والانجاب هو الخاتمة الطبيعية للانجاب قديما .

هذه الطقوس القضيبية جعلت الكوميديا بذيئة فاحشة إذ تذكر فيها الصلات الجنسية صراحة وتباح أفحش الألفاظ ، ويلبسون ثياب الجدى وعضو تذكير صناعى من الجلد .

ولا يعرف متى تميزت الملهاة (الكوميديا) عن المأساة (التراجيديا) قبل القرن الخامس قبل الميلاد . ويشير أرسطو أنها ظهرت أولا فى صقليه عام ٤٨٤ ق م ، وقد استمرت على طابعها من تمثيل الدعارة والسباب المقذع والقول الفاحش ، وتتردد فيها عبارات تثير الاشمئزاز عن الجنس بشتى صوره (اللواط ـ الاستمناء ..) وعن عمليات الهضم والاخراج وما يصحبها من غازات ، يقول

* يتعذر على القارىء الشرقى أن يستسيغ مفهوم الاغريق للقداسة ، وكما كانوا لا يجدون فى القرصنة عملا غير مشروع فى وقت يستنكر فيه أفلاطون أو أرسطو تقاضى الأجر على التعليم ، فانهم ماكانوا يعرفون الاحتشام فى المسائل الجنسية . ليس هذا فحسب بل خلعوا على الدعارة قداسة لأنها نشأت عن استخدام الكاهنات فى طقوس الاخصاب والانجاب وأصبحت معابد ربات الحب مناجم للعشاق وجعلوا للدعارة آلهة ! ، حقا الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا .

ول ديورانت (١) عن أريستوفان * : إذا ما استطعنا أن نسد أنوفنا حتى لا يؤذيها لحنه وبذاءته فإننا نستطيع أن نقرأ مسرحياته بكثير من البهجة الدائمة .

وإذا تجاوزنا عن جانب الابتذال الخلقي في الكوميديا فقد أمكن أن يقدم أريستوفانيس مسرحيات هادفة ، تدعو إلى السلم وتسخر من الطغاة والزعماء المهرجين (كليون في مسرحية « الفرسان » و « البابليون » وإلى أن ينتقد الحياة في أثينا نقداً مراً حتى في أوقات الحرب ، إذ تتحمل أثينا وزعماؤها وزر الحرب بالقدر الذي تتحمله اسبرطه ، وكان يدعو إلى مجتمع صالح يسود فيه الرخاء والسلام .

ومع ذلك فإنه يتعذر أن نتصور دعوة هادفة تنبثق من مسرحيات فاحشة ، فإن هاجم الديمقراطية فليس ذلك بسبب عيوبها ولكن لأنه وأمثاله من الشعراء والكتاب يميلون مع المال ، والمال لدى الاستقراطية لا مع فقراء الديمقراطية ، ومن ثم بدأ أريستوفانيس محافظا معتبرا المجددين أصحاب بدع (أو تقاليع) ، ثم هو قد عرض بسقراط في مسرحية السحب غير مميز بينه وبين السوفسطائيين تعريضا أشار إليه سقراط في دفاعه وكان من الأسباب التي أساءت إلى سمعته وألبت القضاة عليه .

وعلى أية حال ، وعلى حـــد تعبير ول ديورانت (٢) : إذا أردت أن تعرف الأثينيين حق المعرفة فلا بد أن تقرأ مسرحيات أريستوفانيس ، إذ كان المواطن

---

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة مجلد ٢ جزء ٢ ص ٣٢٦ .

* أريستوفانيس (٤٥٠ — ٣٨٥) أهم شعـــراء الكوميديا ، أهم مسرحياته : السحب ــ الضفادع ــ الطير الزنابير ــ ليزيستراتا (أو برلمان النساء) ــ السلام ــ الفرسان ــ البابليون .

(٢) ول ديورانت : قصة الحضارة ، مجلد ٢ جـ ٢ ص ٣٢٤ .

الأثيني يرى نفسه ويرى مدينتـــه ـ ويرى عيوب نفسه وعيوب مدينته ـ على المسرح عملا بالقول المأثور : إعرف نفسك .

لقد كان المسرح من مظاهر حياة الإغريق ، كان تعبيراً عن ازدهار الحضارة عندهم ، فلقد كانوا يواجهون حقائق الحياة والموت ومشكلاتهما عليه ، ولكن هذا الازدهار لوخرف من زخارف الحياة الدنيا كان يخفي وراءه تمزقا نفسيا وانحلالا روحيا ، ولقد أصاب أفلاطون فيما قاله في كتاب القوانين إن أشد ما نكبت به المدينة لم يكن التلاحي (عصر الملاحم) بل التلاهي (عصر الملهاة)(١).

(١) لويس ممفورد وترجمة ابراهيم نصحي : المدينة على مر العصور ص ٢٦٤ .

الفصل السابع

المظهر الرابع : الفن (فلسفة الجمال ـ الفنون)

إن الإلهام الذي يأتي الفنان من الآلهة ـ حتى وان
اعتبر جنونا ـ لهو أسمى من كل حكمة بشرية
أفلاطون

ـ ١ ـ

في فلسفة الجمال :

المشكلة الفلسفية التي تشكل مدخلا لفهم مســـار التيارات الفكرية المتعلقة بفلسفة الجمال لها نظير في فلسفة الأخلاق ، فكلاهما من مباحث القـــيم ، كانت المشكلة بصدد فلسفة الأخلاق . هل يمكن قيام الأخلاق على أسس ميتافيزيقية ؟ وهل يستند السلوك الخلقي إلى الدين ؟ وكان ثمة تياران متعارضان : الأول من الفيثاغورية إلى سقراط ثم إلى أفلاطون ويقيم صلة بين الأخلاق والدين، والثاني وقد كان هو التيار الغالب لأنه أكثر تعبيراً عن الروح اليونانية وهو التيـار الأرسطي .

المشكلة بصدد فلسفة الجمال هي : هل يلتزم الفن بقيم الأخلاق ومعتقدات الدين أم أن الفن للفن ومن ثم لا ينبغي أن يكون للفن من غاية سوى المتعة بالجمال ؟ مرة أخرى كان ثمة تياران متعارضان في الفكر الاغريقي وليس مصادفة أنهما متوازيان مع تياري الأخلاق :

التيار الأول : من الفيثاغورية إلى سقراط ثم أفلاطون ثم لدى أفلوطين في العصر الهيلينستي ويتبنى نظرية الفن للأخلاق .

التيار الثانى : من ملاحم هوميروس إلى السوفسطائية ثم أرسطـــو ويقبض نظرية الفن للفن ، ومرة أخرى ساد هذا التيار الحضارتين الاغريقية والأوربية الحديثة تماما كما سادت نظرية أرسطو بصدد الأخلاق بعد انتقاداته لنظرية المثل بصدد الأخلاق ، نتتبع هذين التيارين فى إيجاز :

التيار الأول : الفن منبثق من الدين ومن ثم ينبغى أن يلتزم ويخضع لقيم الأخلاق : صلة الفن بالدين فى المجتمعات الشرقية القديمة قضية فى غنى عن الشرح، وكما تسربت الأخلاق الدينية إلى الفيثاغورية عبر الأورفية ـ وأصولها الشرقية واضحة ـ كذلك تسربت نظرية الفن للأخلاق إلى الفيثاغورية ، ثمة أربعة محاور رئيسية فى المذهب الفيثاغورى وثيقة الاتصال بعضها ببعض ومتفاعلة بعضها فى بعض : الفلسفة ـ الرياضيات ـ الموسيقى ـ الدين ، بصـدد الجمال ثمة رابطة بين الانسجام الموسيقى وبين التناسب الهندسى ، ومن ثم يرفض الفيثاغوريون الرأى الذى يسمح بقيام الفن على أساس من المزاج ، ثمة رابطة أخرى بين جمال النغم الموسيقى وبين التطهير الدينى ومن ثم كان للموسيقى دور فى طقوسهم الدينية ، ومن جهة أخرى الفلسفة لدى الفيثاغورية بدورها « تطهير » وهى طريق الحياة وليست مجرد حب استطلاع كما هو الحال لدى المدارس الأخرى المعاصرة لها .

فإذا انتقلنا إلى سقراط تحددت آراؤه فى النقاط الآتية :

١ ـ أن الفن لابد أن يخدم الحياة الإنسانية أو بالأحرى الحياة الأخلاقية إذ الجمال عنده صفة للافعال التى تتصف بالخير والنبل ، ولا بد من تكريس الجمال لخدمة الأخلاق أى اصلاح النفوس وتحقيق الفضيلة ، فطبيعة الجمـــال والخير واحدة عند سقراط .

٢ ـ أن الجمال الروحى أسمى من الجمال الحسى وأن مهمة الفنان أن يتوجه إلى

إختيار والملامح والتعبيرات الإنسانية الدالة على الفضيلة والانفعالات السامية .

٣ ـ إنتقد سقراط الشعراء والفنانين فى عصره ، أما الشعراء فلأنهم يقولون مالا يعقلون ويستثيرون العاطفة إلى حد يفقد الانسان معه إتزانه العقلى وتمسكه بالقوانين المقدسة ، وأما المثالون والرسامون فإنهم يكتفون بجمال المظهر ولا يتعمقون فى الجمال الروحى الباطنى ، وإنما يقتصر إهتمامهم على إثارة اللذة الحسية فى جمهور المتذوقين بينما الفصل بين الجمال وبين قيم الحق والخير إنما يؤدى إلى التدهور الفنى والانحلال الخلقى معاً (١) .

ننتقل بعد ذلك إلى أفلاطون الذى يمثل ذروة ذلك الاتجاه الذى لم يكتب له النجاح ، وتتحدد آراؤه فى أبعاد ثلاثة : الدين ـ نظرية المعرفة ـ الأخلاق ، البعد الأول يتعلق بمصدر الفن وأنه إلهام ، البعد الثانى يتصل بالفن من زاوية نظريته فى المثل والبعد الثالث ويحدد غاية الفن لديه :

١ ـ الفن إلهام : يصل أفلاطون بين الفن من جهة وبين كل من الأخلاق والدين من جهة أخرى ، يشير أفلاطون إلى مصدر الفن بما فى ذلك الشعر فيرى أنه الإلهام ، وإذا كان الناس يسمون الإلهام الإلهى هوسا أو جنوناً **mania** ويعتبرونه شراً فإنهم يخطئون لأن أعظم النعم تأتينا نحن البشر من هذا القبس الإلهى ، إنه هبة من الآلهة وأسمى من كل حكمة بشرية ، ومن ظن أنه يستطيع أن يتقن الشعر أو الفن دون إلهام مستمد من ربات الفن أو الشعر وأن المهارة العقلية كافية لتكوين الشاعر أو الفنان فهو مخطىء ، فشعر الملهمين أعظم من

---

١ ـ يراجع فى ذلك محاورات : هيباس الكبير ـ جورجياس ـ القبيادس ـ خارميدس ـ المأدبة . وراجع ايضا الدكتورة أميرة حلمى مطر : فى فلسفة الجمال من أفلاطون الى سارتر ص ٢٥ ـ ٣٢ دار الثقافة ـ القاهرة .

شعر المثقفين . إذ الفن قد هبط على الإنسان من السماء حين ألـــقى به الإله بروميثيوس من السماء .

ولنا على نظرية افلاطون ملاحظتان :

ا ـــ أراد أفلاطون أن يعارض برأيه هذا السوفسطائيين الذين اعتبروا الجمال كسائر القيم من المواضعات البشرية ولا ترجع لمصدر إلهى أو دينى .

ب ـ أن رأى السوفسطائيين وثيق الارتباط بنظرتهم إلى غاية الفن أنه مجرد إشباع لذة حسية ، ومن ثم فان اعتبار مصدر الفن إلهاماً إلهيا لدىأفلاطونلا بد أنيهدفإلىالجمال الروحى لا الحسى من جهة وأن يؤكد جانب الصدق لا الخداع فى الفن ومن ثم فانه يربط الفن بالأخلاق من جهة أخرى .

<u>الفن محـاكاة :</u> ولهذه النظرية جانبان :

ا ـ جانب ينظر فيه أفلاطون إلى الفن من خلال نظرية المثل لديه وفى ذلك جاءت عبارته أن الفن تقليد لتقليد ، إذ الفنان يقلد عالم الطبيعة وهـــذا بدوره تقليد لعـــالم المثل ، ومن ثم فإن الفن معرفة من الدرجة الثانية ، وقد اعتبر أفلاطون بذلك من بخس قيمة الفن .

ب ـ جانب ينظر فيه أفلاطون إلى الفن من خلال الأخلاق : إنه إذا كان الفن محاكاة فليس كل محاكاة عيبـا أو نقصا ، وإنمـا تكون المحـاكاة كذلك إذا لم تصحبها معرفة وثيقة بحقيقة الأصل الذى تحاكيه ،فتكون مجـــرد تقليد قائم على التمويه خال من الحق والجمال ، ذلك هو التقليد الذى يسر له الأطفال والجهـال ولكنه لا يعبر عن الجمـــال الفنى الحق ، إنه نوع من الخداع إذ يوهم صاحبه المشاهدين أو المستمعين أنه يقدم لهم الخير والمتعة بينما هو خادع مزيف يموه

الخير والجمال ، من ذلك فنون السفسطة والشعر التمثيل ـ التراجيديا ـ والكوميديا والاتجاهات الحسية فى التصوير والنحت ، وكلها تهدف إلى اللذة باثارة الانفعالات لا إلى طلب الكمال ، إن وسيلة الفنان فى الخلق الفنى هو الوهم ولا يعيب الفنان أنه صانع أوهام بقدر ما يعيبه أنه يخلط بين الحقيقة والوهم ويدعى أن ما يقدمه للناس إنما هو الحقيقة ، إن شاعر التراجيديا يجعل الممثلين فى المسرح يندمجون فى دورهم إلى حد يتوهم فيه المشاهدون أنه قد تغيرت طبيعتهم ، فعندما ينشد الشاعر أو الممثل شعراً مؤثراً تمتلىء عيناه بالدموع وعندما ينشد شعراً مفزعاً أو مرعباً يقف شعر رأسه من الخوف ويخفق قلبه ، ولا تهم الشاعر فى ذلك كله معانى الفضيلة والخير وإنما مجرد التأثير فى المشاهدين، يعرض عليهم الجرائم المروعة والانفعالات العنيفة والعواطف الملحة التى لا بد أن تؤثر فى سلوكهم . وإن فى غياب الممثل أو الشاعر عن وعيه بذاته وخروجه عن موقف الاعتدال والثبات ابتعاد عن الحق وفقدان لاتزان العقل وتهاون فى التمسك بقيم الجمال والخير وذلك كله نقص فى الفن (١) .

هكذا ينظر افلاطون إلى الفن من خلال تربية النشىء فى الجمهورية فيرى استبعاد تمثيل دور الأشرار لئلا يلتصق ذلك بنفوسهم فتصبح لهم طبيعة وسجية ، فلا يصح تمثيل دور إمرأة غجرية تعتدى على زوجها أو تتطاول على الآلهة ولا دورها حين تولول فى المصائب ، كما لا يصح تمثيل ادوار السفلة من الناس ولا

---

١ ـ الدكتورة أميرة حلمى مطر : فى فلسفة الجمال : من أفلاطون إلى سارتر ص ٥٤-٥٥ ويقول هاريسون كانت القبائل البدائية تحاكى فى طقوسها الحيوان الذى تتخذه طوطمها وكانت من فرط محاكاتها تظن أنها اتحدت به ومن ثم فان محاكاة من هو أدنى منه خلقا لا بد أن يدفعه إلى أن يصبح كذلك .

الهائين ولا تقليد أصوات الحيوان ، وإن من يمثل دور من هو دون منه خلقا لابد أن يشعر بالخجل ويزدرى نفسه ، وإن لتمثيل الأدوار المفزعة أو المحزنة آثارا مدمرة النفس مؤدية إلى ضياع اتزان العقل .

على أن أفلاطون يتخذ معيارا ثابتا فى التمييز بين الفن السوء الذى يرفضه وبين الفن الخير الذى يمجده ، انه إذا كان الفن محاكاة لما هو حسى جزئى متغير فذلك فن سوء وأما إذا كان الفن محاكاة المثل الكلية والحقائق الثابتة التى تتضمن قيم الحق والخير فذلك فن يدعو إليه أفلاطون ، ومن ثم أعجب أفلاطون بالشاعر بنداروس لما كان يتضمنه شعره من دعاء وتضرع للآلهة المنعمة على البشر واعجب بشعر تيرتايوس لما كان يحفل به من حث على المثل العليا فى الأخلاق والوطنية ، ثم أشاد أفلاطون بالموسيقى لأنه نظر إليها نظرة الفيثاغوريين فى أنهـــا وسيلة لتطهير النفس وتهذيبها بل إنها وسيلة فى العلاج .

التيار الثانى :

لم تكن لدى هوميروس نظرية فى الفن وإنما كانت ملاحمه ذاتها مادة تفاوت حكم الفلاسفة عليها بين من نظر إليها بمعيار الدين والأخلاق فأدانها كأفلاطون وبين من نظر إليها من زاوية الفن للفن فاعتبرها عملا رائعا كأرسطو .

أما السوفسطائيون فتتخلص آراؤهم فى الفن فيما يأتى :

١ ـ أن الجمال كسائر القيم من مواضعات البشر ومن ثم فإن الحكم عليه ذاتى وفقـا لعبـارة بروتاغوراس . الإنسان مقياس كل شىء .. ولا يرد الجمـــال إلى مصدر دينى أو علوى .

---

١ ـ المرجع السابق ص ٦٠ ـ ٦٢ ، ٦٦ ـ ٧٤

٢ - أن غاية الفن هو التأثير على السامعين وإثارة المتعة الحسية فيهم يستوى في ذلك الشعر والخطابة والنحت والتصوير .

٣ - إنه إذا لم تكن لدى السوفسطائيين حقيقة خالدة ثابتة فإن الفن لا يهدف إلى محاكاة الحقيقة ، على العكس فإن الفن الذى يخدع لهو أشد حكمة عندهم من فن لا يخدع واشعار هوميروس نموذج لذلك .

ننتقل بعد ذلك إلى أرسطو الذى أضفى على الفن مفهوما ما زال سائدا إلى اليوم فى أوساط الفن والأدب ، منطلق أرسطو فى نظريته فى الفن من أسس أربعة :

الأول : إن الإنسان الذى زودته الطبيعة باليد أقوى الأساليب يستطيع أن ينتج من الفنون ما يكمل به الطبيعة ويقومها ، لم يصبح المنطلق الفلسفى للفن ذلك الذى أضفـــاه أفلاطون عليه فجعل من الفن تقليداً أى مسخا للطبيعة ، حقيقة ما زال الفن عند أرسطو « محاكاة » ولكن لفظ المحـاكاة اتخذ مفهوما آخر عند أرسطو يضفى عليه سحرا ولا يلحق بالفن عيبا ، ذلك أنه ليس من مهمة الفنان أو الشاعر أن يتحرى الحقيقة ، تلك الحقيقة التى تجعل العمل الفنى محاكاة الواقع أو تصويراً له ، ليس ذلك من مهمة الفنان ، ربما كان ذلك عمل المؤرخ ، وإنما مهمة الفنان تصوير الواقع والممكن ، وعالم الممكن أكثر ثراء من عـالم الواقع ، لا حرج على الشاعر إذن أن يقدم الخرافات فذلك غـــير قادح فى القيمة الفنية لشعره ، ولا يعيب الشاعر أو الفنان ، بل ربما كان ذلك من مظاهر عبقريته أن يصور الأشياء التى لم تحدث ، وأن تكون اجادته بحيث يستطيع تصويرها كأنها قد حدثت فعلا ، حقيقة إن ذلك قد يعنى أن الشاعر يعطل ملكة النقد المنطقى فى المستمعين أو المشاهدين حين يجعلهم ينسون أنهم يقرأون أو يشاهدون شيئا لا يمكن حدوثه ، وكان ذلك من أهم مآخـذ أفلاطون عـلى الفن : أنه يستند إلى

الخيال لا الى منطق العقل ومن ثم لا يعد الفن علما لأنه لا يرقى إلى مستوى العلم القائم على العقل ، ولكن مؤسس علم المنطق لا يطبق منطقه على الفن ، وإنما ينظر إلى الأمر من زاوية أخرى ، فما دام مجال الفنان هو عالم الممكن . وذلك أكثر ثراء من عالم الواقع ، وما دام ليس من مهمة الفنان أن يتحرى الواقع أو الحقيقة فان ميدان الشعر لدى أرسطو أرحب من ميدان التاريخ ومن ثم فان الشعر لديه اكثر فلسفة من التاريخ لأنه أكثر منه كلية .

هكذا اتفق الفيلسوفان على أن الفن « محاكاة » وهكذا اختلفا، فاعتبر أفلاطون ذلك عيبا بينما اعتبر أرسطو المحاكاة ميلا فطريا فى الإنسان هادفا إلى نوع من العلم غير ذلك العلم القائم على العقل ، واعتبر افلاطون قيام الفن على أساس من الخيال عملا مخربا للفكر ، بينما اعتبر أرسطو فى عدم معقولية الفن وعدم واقعيته بسحر الطلاوة وجمال السحر الذى يعطل فى الانسان ملكة النقد هو سر سموه ، بل إن معيار إجادة الفنان بقدر ما يعطل فى الإنسان ملكة النقد فيجعل المشاهد ـ فى المسرح ـ ينسى أن ما يشاهده لا يمكن حدوثه ، أما إن أخفق فى ذلك فذلك يعنى فشل عمله الفنى

الثانى : هدف الفن هو التمتع بالجمال ليس غير : وإذا لم تكن من أهداف الفنان فى فنه تحرى الصدق أو تصوير الواقع كما هو ، كما أنه لا شأن له بمنطق العقل فذلك يجر إلى صلة الفن بالأخلاق ، وكان أفلاطون قد أراد أن ينزع عن الفن أو الشعر جانبه اللاأخلاق وأن يجعله هادفاً إلى الخير ، ومن ثم فضل الترانيم الدينية والأناشيد الوطنية على شعر المآسى والملاهى ، وطالب أن يكون رائد الفن أو الشعر الحق والحق الصريح ليس غير ، ومن ثم هاجم أفلاطون الهجاء الذى يتعارض مع القيم التربوية لمواطنى المدينة الفاضلة ، أما أرسطو فقد

هذه تلك الغاية الاخلاقية غريبة عن روح الفن ومن ثم ينبغي الا تفرض عليه ، إذ ليس من هدف الفنان إلا الجمال ليس غير وإثارة المتعة الجمالية بعمله الفني، بذلك يصل إلى مرتبة الامتياز النوعي ولا شأن له بعد ذلك بهدف أخلاق ، بذلك بلغ هوميروس الذروة من الناحية الفنية في ملاحمه بصرف النظر عما تشيعه من لاأخلاقيات الالهة والناس ، ولا يلتفت أرسطو إلى أن يوربيدس قد أفسد أخلاق الأثينيين بمسرحياته عن الحب ، فليس من أهداف الشعر أو المسرح أو الفن عند أرسطو أن يجعل المواطنين افضل ، إذ المسرح ليس مدرسة كما أن الشاعر ليس بمعلم (١) .

على أن ذلك لا يعني أن أرسطو يرضى بالابتذال أو الاسفاف في الفن ، وأن يسخر من الفضيلة وأن يمجد الرذيلة ، إذ لا يصح لديه أن يعرض الانحطاط الخلقي ضمن مشاهد المسرحية إلا لضرورة ، وإنما قصد أرسطو - ما أصبح بعد ذلك شعاراً للفن على مدى العصور وفي معظم الحضارات - الفن للفن ، فكان بذلك أول من استبعد التقويم الأخلاقي عن مجال النقد الفني أو الأدبي تماما كما كان أول من إستبعد الدين عن الأخلاق ، وأصبح رأيه في ذلك دستورا لفلسفة الأخلاق كما أصبح رأيه في الفن شعارا له ، وخفت صوت أفلاطون وربما قد مات - لا لأن نظرية أرسطو أكثر إستحقاقا للخلود وإنما لأنها اصدق تعبيراً عن روح الحضارة الغربية - اغريقية قديما وأوربية أمريكية حديثا - ، أما رأى افلاطون النابع عن مصدر شرقي - عبر الأورفية والفيثاغورية - فلم يجد تقديرا حتى لدى الشرقيين في تيار جرفهم نحو تقليد أعمى للغرب .

---

(١) أرسطو وتحقيق دكتور عبد الرحمن بدوى : فن الشعر ص ١٤٩ وما بعدها راجع كذلك مقدمة كتاب ابن رشد : تلخيص كتاب ارسطوطاليس في الشعر للدكتور محمد سليم سالم .

٣ ــ فائدة الفن « التطهير » * Catharsis : على أن القول « الفن للفن » لا يعني أن ليس للفن من قيمة عملية ، وإنما يهدف الفن إلى التطهير ، ولا يعني أرسطو بذلك مفهوما أخلاقيا ، وإنما كان اللفظ متداولا كمصطلح طبي وكمصطلح ديني قبل أن يصبح هدفاً عملياً للفن ، ويقصد به « غسل » النفس البشرية مما تصيبه بها أحداث الحياة من هموم ومتاعب وآلام ، ولقد عرف أفلاطون ذلك ومن قبله الفيثاغوريون بصدد الموسيقى وما يمكن ان تحدثه في النفس من تطهير نفسي تؤهل لتزكية خلقية ودينية ، أما بصدد المسرح وما يثيره من انفعالات عنيفة فقد وجد فيه أفلاطون أنه يضعف الرجل إذ تجعله يذرف الدموع كالمرأة ويثير الاضطراب النفسي ويهيج الأهواء ويعزل العقل عن كبت الشهوات ، أما أرسطو فقد وجد في الفن والشعر ما وجده أفلاطون في الموسيقى دون غايتها الأخلاقية أو الدينية . فالتراجيديا تطلق الخوف والشفقة الكامنتين بإثارة خوف وشفقة مسرحيتين ، وأن ذلك كفيل بالتنفيس عن هذه العواطف ومن ثم يتم التطهير ، وبذلك تكون التراجيديا دواء من ذات الداء ، وأنه بعد الاضطراب الذي تحدثه التراجيديا من اثارة الانفعالات العنيفة يحدث سكون نفسي دفعة واحدة وذلك نوع من العلاج الذي يؤدي إلى شفاء النفس ، وهكذا تحدث التراجيديا نوعا من التطهير بما يجده المشاهد من راحة نفسية مصحوبة بمتعة جمالية عقب الانفعال العنيف .

ورأي أرسطو له قيمته من وجهة نظر علم النفس الحديث حيث الكبت ضرر

* الرأي الذي شاع في العصور الوسطى هو الدلالة الأخلاقية للفظ « التطهير » ولكن جاكوب بيرنيس وجه الانظار منذ عام ١٨٥٧ أن دلالة اللفظ صحية ، لأن أرسطو نشأ من أسرة طبية ولأن اللفظ ورد في مؤلفات ابقراط . د. محمد سليم سالم : مقدمة كتاب تلخيص كتاب أرسطوطاليس في الشعر ص ١٩

نفسي وحيث التنفيس عن الانفعالات صحة ، ولكن هذا الرأى ليس صحيحا فى اطلاقه ، لأن اطلاق الانفعالات فى غيبة العقل يفقد الأخير إمكان استعادة السيطرة عليها .

وإن اقمص المشاهد لشخصية ممثل ازاح عنه أرسطو قيد الأخلاق إنما قد تدفعه إلى أن يستبدل الخيال بالواقع فيحي فى الخيال أو أن يستبدل الواقع بالخيال فيرتكب الجرائم العنيفة عقب مشاهدة الأفلام والمسرحيات ، وفى ذلك انحلال خلقى فضلا عن مرض نفسى . وانما يتم التطهير بالمعنى الذى فهمه الفيثاغوريون وأفلاطون إن التزم بمضمون دينى وهدف خلقى وذلك ما تجاهله أرسطو .

— ٢ —

الفنون :

اشأ الفن فى معظم حضارات الشرق القديم منبثقا عن الدين مرتبطا به ، كذلك الحال فى مبدأ أمر الاغريق إذ عرفوا النحت والتصوير من مصر وحضارات الشرق القديم ، ومن ثم لم تفرق تماثيل العصر العتيق عن مثيلاتها فى مصر * ، ولكن منذ القرن السادس قبل الميلاد بدأ الفن الإغريقى يتخذ طابعا مستقلا عن النفوذ الشرقى مبرزا خصائص الروح الإغريقية التى تنحو نحواً دنيوياً اكثر منه دينيا ، وتهتم بقيم الحياة ومباهجها أكثر مما تهتم بقيم الدين وشعائره ، فن جهة شرع نحاتو الإغريق فى إقامة تماثيل للفائزين فى الألعاب

---

* الثوب ملتصق بالبدن يشكل معه كتلة واحدة ولا يبرز منه شيئا ، الشكل العام جامد صارم خال من الرشاقة ، الساقان مشدودتان ، الذراعان متدليات إلى جانب ، الوجه خال من التعبير .

الأولمبية تعكس جمال الأجسام وكمالها مدركا خصائص الحركة فى تعبيرات الوجه وثنايا الجسم وقوة العضلات مراعيا أصول التشريح ، وبرزت الروح الإغريقية كذلك فى رسم وتصوير الإلهات والفتيات بما يبرز فتنتهن ورشاقتهن مستغلا ثنايا الثياب وشفافيتها لإبراز مفاتن الجسم ، ولم يكن ذلك بطبيعة الحال لهدف دينى إذ ترى على المزهريات رسوم لشباب يعانقون عشيقاتهم دون حياء ، فلم يكن هنـــاك من حرج فى تصوير أى موضوع جنسى * ، وإذا كان الفن التراجيدى قد تجاوز الواقع إلى الخيال فإن الفن التشكيلى قد تجاوز الواقع إلى المثال ، وإذا كان الفن المسرحى يجد فى تمثيل ما هو قبيح جمال فإنك لا تجد فى الفن التشكيلى رسما لعجوز أو مشوه أو قبيح ، وإنما وجد هــذا الفن ضالته فى اللاعبين الرياضيين باعتبارهم مظهرا لكمال الأجسام بما فيها من تناسب وتناسق .

هذا وقد إزدهر الفن على مرحلتين ، مرة حين هاجر مئات من الفنـــانين الايونيين إلى اثينا بعد أن غزا الفرس المستعمرات الايونية عام ٥٤٦ ، ووجدوا تشجيعا من بيزستراتوس إذ أنشأ عام ٥٣٠ قبل الميلاد معبد زيوس الاولمبى عند اسفل الأكروبول ، ومرة أخرى بلغ فيها الفن الاغريقى عصره الذهبى فى عصر بركليس الذى جمع أموال خزائن الحلف ليعيد تشييد أثينا وتجميلها فتلمع أسماء أشهر نحاتى اليونان على الإطلاق من أمثال فيدياس ، وتخلد أهم آثار اليونان

---

* الحضارة الاغريقية هى أول حضارة قدمت فى الفن أسلوب « الموديل » إذ لما أراد المثال زكسيس zeuxis أن يرسم صورة لربة الجمال « هيلين » كى توضع فى معبد هيرا طلب أن تقف أمامه أجمل خمس حسناوات فى المدينة عاريات واختار من كل واحدة أجمل أجزاء جسمها لتكتمل صورة ربة الجمال .

كتمثال اثينا فى البارثنون وزيوس فى أوليمبيا **

ويعبر الفن الاغريقى وخاصة النحت عن الروح الإغريقية فى مظاهره الآتية :

١ — يعبر الفن الإغريقى وخاصة النحت عن عالم المادة ، ويعنى بالجسم عناية لا تدع مجالا لتجاوزه والنفاذ إلى عالم الروح ، يثير الفن التشكيلى فى المشاهد اعجابا بالتناسق والتناسب ولكنه لا يدع للخيال مجالا أن يسبح فيما وراء عالم المادة ، فشكل المبانى وطرازها محصوران فى حدود ضيقة ، والبهو الداخلى خال من النوافذ التى تصل المشاهد بالعالم اللامتناهى ، والهياكل مزدحمة بتماثيل لا يتناسب حجمها مع حجم البناء الكلى ، والسقوف لا تعرف القباب ، والالتواءات والانثناءات منحنية فى تحديد دقيق لايسمح باتجاه الفكر إلى العمق ، كل شىء فيه منكمش على ذاته لا تبدو فية قوة صاعدة إلى السماء .

٢ — يعبر الفن الإغريقى عن النزعة الإنسانية : فتماثيل الآلهة تقرب الإله من الإنسان أو تجعل الإله إنسانا فى حضارة عبدت الإنسان وجعلته محورا لكل شىء ومقياسا لكل شىء ، الإنسان فى حروبه وشهواته ، الإنسان الذى لا يتصور شيئا وراء هذا العالم أو هذه الحياة ، ومن ثم بدأ الفن معبرا عن الانغلاق والتحديد ، عن الانعزال والتجسيم ، عن زخرف الحياة وزينتها ولا شىء وراء هذا العالم أو بعد هذه الحياة (١) .

** قال بيتهوفن عن هذا التمثال : ولو أن رجلا قد تراكمت عليه الهموم وتجرع فى حياته كأس المصائب ثم نظر اليه لنسى ما أصابه من متاعب .

(١) راجع رأى شبلنجر عن الفن فى الحضارة الأبولونيه فى كتابه تدهور الغرب وراجع كذلك شبلنجر للدكتور عبد الرحمن بدوى ص ١٢٩ — ١٣٢ .

الفصل الثامن

المظهر الخامس : العلم

«كان العلم اليوناني إحياء أكثر منه اختراعاً»

جورج سارتون

يشير الذين فتنوا بما أسموه « المعجزة الإغريقيـــة » ، إلى أن العلم بوجه عام وبدون تحديد من نتاج العبقرية الاغريقية ، ولا شك أن الإغريق قد تفوقوا فى علوم تؤهلهم طبيعة فكرهم إلى التفوق فيها ولكنهم قصروا فى علوم لم تؤهلهم طبيعـــة تفكيرهم إلى أن يتفوقوا فضلا عن أن يبتكروا فيها ، فهم قد برزوا فى الهندسة التى تعد بلا شك إحدى مبتكراتهم ولكنهم لم يتفوقوا فى علم رياضى آخر ألا وهو الحساب ، كان نهجهم فى التفكير نظرياً تأملياً إستنباطيا فكانت الهندسة ذات الطبيعة البرهانية إبتكاراً لهم حفظـــه لهم تراث الإنسانية بينما لم يبلغوا فى الحساب شأو الهنود لأنه علم يتصل بالحياة العمليـة والعمليات التجارية التى ترفع عنها مفكرو اليونان بل إن مدرسة كالفيثاغورية - وقد اعتبرت العالم عددا وكان ذلك حرياً بها أن تسهم بجديد فى علم العدد - قد إهتمت بخصائص الأعداد من ناحية عقلية أقرب إلى التعاليم السرية منها إلى إستخدمات الأعداد فى النواحى الحسابيـــة أو العمليـــة أو بمعنى آخر لقد إهتموا بأسرار الأعداد أكثر من إهتمامهم بدلالتها العملية .

وحينما طالب أفلاطون بالاهتمام بالرياضيات ليس فحسب بالنسبة لمن يرغب فى الالتحاق بالأكاديمية وإنما كذلك لمن يتولون شئون الحكم فانه كان بذلك يعنى الرياضة البحتة التى تبصر الإنسان فى نظره بالحقيقـة الخالدة ، ولكنه كان عزوفا

عن الرياضة التطبيقية إلى درجة الحث على نبذ إستعمال أدواتها ماعدا المسطرة والفرجار(١) ، وحينما ربط الرياضة والفلسفة وعد الأولى مقدمة الثانية فإن فيلسوف نظرية المثل إنما يقصد الرياضيات التي تقوم على التصور البحت ومن ثم يمكن فهم جدله الصاعد حيث التفكير الرياضي يؤدي إلى التفكير العقلي الفلسفي *

لا نعني بذلك أن نبخس دور الإغريق في العلم ، وإنما الناس على حد تعبير جورج سارتون فريقان : منهم من ينزع إلى التجريد العقلي ومنهم من يحسب الأمور بحساب الربح والخسارة ويخترع الأدوات.ومؤرخ العلم يتناول الطائفتين مساوياً بينهما .

لنتخير من العلوم ثلاثة أعتقد أن دور الأغريق فيها مشهود وهي الهندسة والفلك والطب ، ذلك أن هناك أسماء قد فرضت ومازالت تفرض نفسها على تاريخ الفكر بعامه والعلم بخاصة حتى عصرنا الحاضر منها فيثاغورس في الهندسة والفلك وابقراط في الطب .

الهندسة

لنشير بصدد الهندسة إلى الملامح الرئيسية الآتية :

---

(١) جورج سارتون : تاريخ العلم ج ٣ ص ٨٣ نقلا عن كتاب « الرياضيات الإغريقية ص ٢٨٧ .

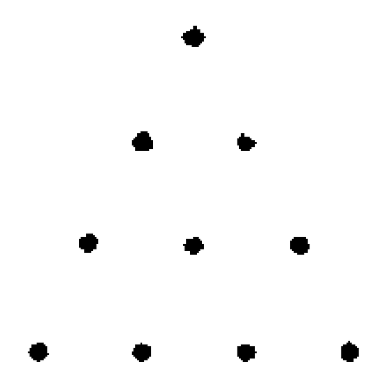
* يقول افلاطون في محاورة الجمهورية : من المناسب ان ينص في قوانيننا على وجوب دراسة هذا الفرع من العلم ، ويجب أن نحمل من يلي مناصب الدولة العليا على أن يدرس الحساب ويتمكن منه ، لا كما يفعل الهواة ، بل عليه أن يواصل دراسته حتى يصل إلى مرحلة تدبر طبيعة العدد بالتفكير البحت ، لا للانتفاع به في البيع والشراء شأن من يعد نفسه ليكون تاجراً أو بائعا متجولا بل في صرف النفس عن عالم المادة إلى عالم الجوهر والحقيقة.

١ — يشار عادة إذا ذكرت الهندسة الاغريقيـة إلى فيثاغورس الذى انعكست على هندسته آثار شرقية، ذلك أنه سافر إلى فينيقيا ومكث فيها زمنا يكفى لأن يتعلم طقوس السوريين ثم سافر منها إلى مصر التى كانت حينذاك مهد التعاليم المضنون بها ويقال إنه درس فيها الفلك والهندسة والأسرار الكهنوتية ، وبعد أن غزا قمبيز مصر عام ٥٢٥ ق م عاد معه فيثاغورس إلى بابل ، وظل هناك اثنى عشر عاما يدرس الحساب والموسيقى وتعاليم المجوس (١) . أريد أن أخلص من ذلك إلى نتيجتين :

ا ـ أن أصولا شرقية كانت منهل الإغريق ولولاها لما كان نبوغهم فيما نبغوا فيه وأنه من سذاجة الأطفال على حد تعبير سارتون أن نفترض أن العلم بدأ فى بلاد الإغريق ، ذلك أن « المعجزة الإغريقية » سبقتها آلاف الجهود العلمية فى مصر وبلاد ما بين النهرين وغيرهما من الأقاليم ، وأن العلم اليونانى كان إحياء أكثر منه إختراعا ... وأن التقدم الهيلينى ما كان مستطـــاعا بدون الأصول الشرقية (٢) .

ب ـ أنه من آثار هـذه الأصول الشرقية أن النزعة الروحية لم تكن منفصلة عن الفكر العقلى الرياضى ، يتضح ذلك فيما عرف بأسرار الأعـداد التى شغفت بها الفيثاغورية ، من ذلك مثلا تقديس العدد عشرة واعتبـاره أكمل الاعـداد وأنه حاصل جمع الاعداد الأربعة الأول :

١ + ٢ + ٣ + ٤ = ١٠



(١) جورج سارتون : تاريخ العلم جزء ١ ص ٤١٧ الترجمة العربية .

(٢) المرجع السابق : المقدمة ص ٢٠ ـ ٢١ .

من ذلك أيضا أن مجمـــوع أى عددين فرديين = ضعف عدد ما زوجي أو فردى :

١ = ١

١ + ٣ = ٢ × (٢)

١ + ٥ = ٣ × (٢)

١ + ٧ = ٤ × (٢)

١ + ٩ = ٥ × (٢)

٢ — إن أهم النظريات التي مازالت تدرس ويرجع الفضل فيهـــا إلى فيثاغورس هي

ا ـ مجموع زوايا المثلث = ٢ ق

ب ـ مربع الوتر فى المثلث القائم الزاوية = مجموع المربعين القائمين على الضلعين الآخرين ، من المحتمل أن المصريين قد عرفوا ذلك فى المساحة ولكن فيثاغورس هو أول من برهن عليها ، إذ كان فكرهم عمليا وكان تفكيره نظريا إستنباطيا .

٢ ـ الفلك :

مرة أخرى امتزج الطابع الشرقى المتمثل فى النزعة الروحية السرية بالطابع الاغريقى المتمثل فى الاتجاه النظرى الاستنباطى دون العمل التجريبى فى علم الفلك لدى الإغريق أو بالأحرى لدى الفيثاغوريين فكانوا نظريين أكثر منهم راصدين، ومضوا يصورون العالم كما تصورتها عقولهم فهم غافلين بالواقع ، فإذا كان العدد ١٠ عددا كاملا لأنه مؤلف من الأعداد الأربعة الأول وكان الكون كاملا وحاصلا على خصائص الكامل فإنه يلزم أن تكون الأجرام السماوية المتحركة

عشرة ، ولما كان المعروف المنظور لديهم منها تسعة فقط فإنهم افترضوا أرضا غير منظورة مقابلة لأرضنا أسفل منها ليكملوا العدد عشرة، ومركز العالم يجب أن يكون مضيئا بذاته لأن الضوء خير من الظلمة ويجب أن يكون ساكنا لأن السكون خير من الحركة(١)، والكواكب كروية الشكل لأن الدائرة أكمل الأشكال، وهكذا جاءت فكرتهم عن الكواكب وعن الأرض ثمرة إيمان غيبي أكثر منه ثمرة استقراء علمي إذ كانت عقيدة « الكمال الكروى » - ان صح هذا التعبير - وما ترتبت عليه من نتائج - صائبة أم خاطئة - محور العلم الفيثاغورى .

ويشبه فيثاغورس موقف الناس ازاء الكون بجمهور الألعاب الأولمبية : أدناهم من ذهب للتجارة والربح وأوسطهم من ذهب للمشاركة فى الألعاب وأما أسماهم فن ذهب للتأمل والنظر .. هؤلاء هم الحكماء .

هذا وقد ميز فيثاغورس تمييزاً جوهريا بين عالمين : عالم السماء وهو عالم أزلى إلهى كامل وهو موطن الآلهة الخالدين ، وعالم ما تحت فلك القمر وهو عالم الكون والفساد حيث تجرى الحركات على غير انتظام ، وقد أثرت هـــذه النظرية على التفكير العلمى حتى زمن جاليليو بل الى ما بعد ذلك ، وكان أثرها فى الفلسفة الاسلامية أو بالأحرى فى نظرية الفيض لدى فلاسفة الاسلام بالغا .

واذا كان الفلك قد ارتبط بهذه المسحة من التصوف فإنه من جهة أخرى قد ارتبط بالموسيقى، وربما كان للنزعة الصوفية دور فى ذلك ، يقول أفلاطون : كما أن العيون قد خلقت لتبصر النجوم فقد وجدت الآذان لتسمع الحركات المنسجمة،

---

(١) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ص ٢٥ . فكرة الأرض غير المنظورة مركز الكواكب ترجع إلى نيكولاوس الفيثاغوري المعاصر لسقراط .

والفلك والموسيقى أختان من علوم الطبيعة كما يرى الفيثاغوريون (١) .

والفيثاغوريون هم أول من سمى العالم بلفظ «كوزموس» ، وفى ذلك دلالة على أن نظام الكون متجانس محكم الترتيب .

خلاصة القول لقد كانت المدرسة الفيثاغورية مهداً لعلم الفلك الرياضى ولعلم التنجيم فى آن واحد ، ومع التناقض بينهما فقد ظلا متلازمين حتى القرن السابع عشر (٢) .

تصوران آخران متناقضان ظلا متلازمين فى الفكر الفيثاغورى وربما أثر على الفكر الإغريقى ، وأعنى بذلك أنه بينما كانت تعتبر حياة التأمل أسمى ضروب الحياة ولذلك أثره فى فكرة السعادة لدى أرسطو ، فإن الموسيقى كانت تستخدم لتطهير النفوس وعلاجها من الشرور كما تستخدم الأعشاب فى علاج الأبدان ، فطلب المعرفة وإن كان لا يقصد به النفع المادى أو العمل فإنه يقدم للإنسان أعظم تطهير ، ولا عجب فى هذه الثنائية إذ كان فيثاغورس مؤسس علم وشيخ طريقة إن صح هذا التعبير .

٣ ـ الطب :

تسيطر فكرة «التناسب» أو «حفظ التوازن» من أجل ما هو حسن على مفكرى الإغريق فى شتى مظاهر الفكر ، فلا تكون الأخلاق لدى أفلاطون إلا بالتوازن بين قوى النفس الثلاثة كى تنشأ فضيلة العدالة ، كذلك الأمر فى السياسة بين طبقات المجتمع الثلاثة : الشعب والجند والحكام ، وفى مسرحية أوريست

---

(١) أفلاطون : الجمهورية نقلا عن سارتون ص ١٢٣ .

(٢) سارتون : تاريخ العلم ـ الجزء الثانى ص ١٢٣ .

تطالب هيئة المحلفين بالميزان ، ذلك الميزان الذى إذا إختل إختلت معه الحيــاة والأحياء ، حيث يحكم ستة من المحلفين بإدانة أوريست لقتله أمه ويحكم ستة ببراءة أوريست لانتقامه لشرف أبيه ، تعادل كامل اترجح الربة أثينــا جانب البراءة تحقيقا للعدالة (١) .

سيطرت فكرة « التناسب » أو « التوازن » بدورها عــلى الطب الاغريقى خلال عصوره، فى مدرسة أقروطونا ولدى الفيثاغوريين بنوا الطب على تناسب الأعضاء فقالوا إن مبدأ الحياة إنما هو الحار ملطفا بالبارد أى بالهواء الخارجى يجذب بالشهيق ويدفع بالزفير ، فإذا إختلت النسبة بينهما كان المرض ، وإذا زاد الاختلال كان الموت . فالحياة والموت تناسب وتناسق، والمرض والموت إختلال التناسب أى إفراط أو تفريط عن الحد الملائم ، والتطبيب حفظ التناســب أو إعادته (٢) .

صحة الانسان إذن فى التوازن بين جوف الجسم وبين الهواء الخــارجى ، إن اختلت لرجحان الأول على الثانى كانت أمراض الحمى ، أو لرجحــان الثــانى على الأول كانت أمراض البرد .

واتخذت فكرة التوازن صوراً مختلفة لدى المــدارس الطبية ولــكنها فى جوهرها ظلت كما هى ، فالصحة لدى أنبادوقليس تابعة للتوازن الناجم عن تناسب العناصر الأربعة : النار والهواء والماء والتراب ، وهى العناصر التى تشــكل الموجودات بما فى ذلك أجسام البشر ، ثم تعدلت نظرية العناصر إلى نظرية الطبائع الاربعة، وأصبحت الصحة فى التوازن بين الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة(٣)

---

(١) د . لويس عوض . المسرح العالمى من اسخيلوس الى ارثر ميلر .

(٢) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ص ٢٤ طبعة ١٩٤٦ .

(٣) جورج سارتون : تاريخ العلم ج٢ ص ٢٣٩ .

والأمر كذلك عنـــد أشهر أطباء الاغريق على الاطلاق وأعنى به ابقراط — معاصر لافلاطون — إذ العافية حال التوازن المستقر ، والمرض إختلال فى التوازن وأهم أعراضه إرتفاع درجة الحرارة ، وحيث لا يكون الاختلال عميقا يمكن استعادة التوازن ، وعمل الطبيب إنما هو تمكين الطبيعة من أداء عملها فى إستعادة التوازن ، لا بالعقاقير فحسب وإنما براحة الجسم وهدوء النفس . اذ الوسائل المساعدة الطبيعة كى تقوم بعملها انما هى وسائل مادية ونفسية ، مادية كأن يلتزم المريض الفراش ويقتصر على أغذية خفيفة ، ونفسية اذ تلتزم النفس بالهدوء والبعد عن الهموم .

وقد لزم عن فكرة التوازن تصورات طبية لها أهميتها فى مدرسة ابقراط على الخصوص ، أهم هذه التصورات هى :

١ — علم المناخ الطبى : اذ قدم ابقراط درسه للأهوية (جمع هواء) والأمواه (أصناف المياه) والأماكن قصد منها بيان أثر البيئة والمناخ على كل من صحة الانسان وأخلاقه ، وتعد من الدراسات الرائدة فى علم « الأيكولوجيا » مقدمة من طبيب .

٢ — الطب النفسى الجسمى « السيكوسوماتى » : اذ لم يكن العلاج كما أصبح الحال فترة طويلة فى العصر الحديث * مجرد علاج لأمراض الجسم ، أو النظر الى كل عضو نظرة جزئية مستقلة عن سائر الاعضاء ، وانما أدرك ابقراط أن بين الجسم والنفس علاقة وثيقة ، كذلك بين أعضاء الجسم ، فلا يمكن أن يكون

---

* يشير سارتون الى أن الطب الحديث قد ركز اهتمامه على الجراثيم وفات الاطباء النظر الى المريض ككل وأن هناك اتجاها الى احياء المبدأ الابقراطى اذ برغم تقدم الطب الحديث فإن فى انتاج ابقراط ما لا يعلى عليه .

أحدهما سليما اذا كان الآخر سقيما ، ويتعذر على الطبيب شفاء أحدهما اذا أهمل الاخر (١) .

واتخذت نظرية التوازن صورتها التى سادت الفكر الانسانى قرونا فى نظرية الامزجة الأربعة : البلغم والدم والصفراء والسوداء وهى النظرية التى شرحها « جالينوس » فى النصف الثانى من القرن الثانى واستمرت سائدة حتى القرن التاسع عشر وربما لا تزال قائمة فى غير نطاق الطب العلمى لدى كثير من الشعوب فى طبهم الشعبى (٢) .

ويذكر لابقراط — الأمر الذى خلده فى تاريخ الطب — الاثار الاتية :

١ — الطب كعلم وليس بجرد ممارسة . اذلم يكن اهتمام ابقراط بممارسة العلاج بقدر اهتمامه بالمنهج العلمى فى العلاج فوضع بذلك أول وثائق اكلينيكية ، اذ دوّن الحالات المرضية المائلة للعلاج وجمعها فى كتابه « الأوبئة » فترك صوراً اكلينيكية لأمراض السل وداء الصرع وغيرهما ، وسجل الملامح التى تعلو سحنة المحتضر أو وجه من اهوله المرض ولا تزال تعرف هذه المظاهر بالمظاهر الابقراطية ، ولم يهتم احد من الأطباء مدة طويلة من بعده بمتابعة هذه الدراسات الاكلينيكية (٣) .

٢ — الصرع مرض طبيعى لا دخل للقوى غير المنظورة فيه : رفض أبقراط تسمية داء الصرع بالمرض المقدس ، اذ ليس ثمة ما يدعو فى نظره من إعتبار أن هناك أمراضا إلهية أو مقدسة وأخرى بشرية أو طبيعية ، بل أن جميع الأمراض طبيعية وليس هذا المرض أعرق فى القداسة أو الالوهية من سائر

---

(١) المرجع السابق نفس الصفحة .
(٢) « المرجع السابق ص ٢٢٩ .
(٣) « المرجع السابق ج٢ ص ٢٤٠ .

الأمراض ، وإنما سببه طبيعى وإنما خلع العامة عليه هذا الأصل المزعوم لجهلهم ولاستغرابهم أعراضه الغريبة ، وأن السحرة هم الذين طبعوا عليه طابعا مقدسا .

٣ — « قسم » أبقراط الطبي : وهو قسم الأطباء حين يشرعون فى ممارسة المهنة والذى لازال قائما إلى اليوم ، إذ قسم أبقراط واجبات الطبيب فى عدة كتب من أهمها : كتاب « القسم » الطبي The Oath يشتمل على حلف أو يمين أو قسم أو ميثاق يلتزم به الأطباء ويلزم به الأساتذة طلابهم ، كما أنه شبه دستور للمهنة يحدد الشروط اللازمة للمهنة وتقاليدها وحماية لقابة الأطباء من الدخلاء غير الأكفاء (١) .

تعقيب : لاشك أن الطب الإغريقى بعامة والإبقراطى بخاصة قد قدم الكثير لتراث الإنسانية الطبي ولكن ذلك لا يجعلنا نغفل تراث الأمم الأخرى وبخاصة المصريين، إذ على حد تعبير سارتون: كان الطب قد بلغ أوجه على أيدى المصريين فى القرن السابع عشر قبل الميلاد أى قبل اليونان بأكثر من ألف ، عام وأن شهرته قد وصلت بلاد الإغريق كما تشهد بذلك المصنفات الابقراطية (٢) .

إنه من الخطأ القول بأن الإغريق قد إبتكروا العلم ، فهم حتى بعد إفادتهم من الحضارات المجاورة لهم لم يبلغوا شأو المصريين فى الطب منذ ألف عام قبل بداية الحضارة الإغريقية ، ولم يصلوا إلى ما وصل اليه البابليون فى الفلك ولا الهنود فى الحساب .

وليست هناك عبقرية مطلقة ، وإنما تكون العبقرية بالقدر الذى تسمح به روح الحضارة لا تكاد تتجاوزها إلا فى القليل ، فتفوق الاغريق فى الهندسة

---

(١) المرجع السابق ج ٢ ص ٢٤٣ ، ٢٤٤

(٢) المرجع السابق ج ٢ ص ٢١٧

النظرية لأن ذلك يتفق مع منحى تفكيرهم الذى يطلب المعرفة لذاتها ، ولكنهم قصروا فيما هو تجريبى ، وحتى فى مجال الطب خضعت تصوراتهم عن المرض والعلاج لأفكار فلسفية مسبقة كفكرة التوازن ، وعلى أية حال لم يبلغ الاغريق فى العلوم الطبيعية ما بلغوه فى الهندسة أو الفلسفة ، بل إنهم إستخدموا فى العلوم الطبيعية منهجا لا يصلح لما هو تجريبى، إذ استخدموا منهج الجدل الفلسفى حيث كان ينبغى أن يستخدموا الاستقراء فكان أن قصرت وتعثرت العلوم الطبيعية، لقد أخطأ الاغريق المنهج ، وموضوع العلم لا ينفصل عن منهجه ، والذين إستنكفوا عن التجربة وإستعمال الأجهزة ما كان يمكن للعلم الطبيعى أن يتقدم لديهم.

وإن التنقيب عن بدايات العلوم الطبيعية الحديثة لدى علماء الاغريق وفلاسفتهم والتماس بذور علم الطبيعة فى آراء طاليس أو علم الكيمياء فى لامتجانسات انكساغوراس أو ذرات ديمقريطس ، وأن العلم فى استحالة الكيف إلى كم كما هو لدى الفيثاغوريين ، وأن القانون العلمى كامن فى فكرة الضرورة لدى الطبيعيين الأولين منهم والمتأخرين ، كل ذلك افتعال وتعسف تحت دعوى إننا نعرف عنهم بأكثر مما عرفوا عن أنفسهم * وذلك من أجل رد فضل ابتكار العلوم كلها إلى الاغريق من جهة ولتصور الانسانية وقد توقفت عن السير من بعدهم زهاء ألف سنة ليستأنف الأوربيون المسيرة من جديد ، إنها « مركزية الذات » لدى بعض الأوربيين .

وإذا كانت الفلسفة لم تزدهر لدى الحضارات القديمة بسبب وصاية الدين ، فإن تعثر كثير من العلوم وخاصة التجريبية لدى الحضارة الاغريقية إنما كان مبرره وصاية الفلسفة ** .

---

* العبارة التى قالها كانط هى : لاننا نعرف أفلاطون بأكثر مما يعرف أفلاطون عن نفسه

** إذ استخدموا الجدل الفلسفى حيث كان ينبغى أن يستخدموا الاستقراء ، وتبنوا النظر حيث كان ينبغى أن يكونوا عمليين .

الباب الثالث

المرحلة الهلينستية

الحضارة الاغريقية في طور النهاية

الفصل الأول

الهلينستية : المنحنى والمسار

عرض اليونان على الشرق الفلسفة وعرض الشرق على
اليونان الدين فكانت الغلبة للدين لأن الفلسفة كانت
ترفا يقدم للأقلين بينما كان الدين سلوى للكثيرين .

« ول ديورانت »

يقصد بالحضارة الهلينستية تلك القرون الثلاثة التي ابتدأت بوفاة الاسكندر عام ٣٢٣ ق. م وانتهت بنهاية حكم كليوباتره في مصر وقيام الامبراطورية الرومانية عام ٣١ ق م. على يد أوغسطس . وليس هذا التحديد حاسما لأن بذور الروح الهلينستية بدأت في الظهور قبل الاسكندر ، كما أن الامبراطور الروماني أوغسطس لا يمثل في الحقيقة فاصلا بين عهدين لأن الحضارة الرومانية ظلت اغريقية الفكر ، غير أن التغير الحضاري والثقافي الذي انبثق عن فتوحات الاسكندر جعل الفترة التي أعقبته ذات طابع متميز عما قبله (١) .

ولكن ماذا تعني لفظة « هلينستية » التي أطلقت على هذه الفترة ؟ اختلف في ذلك الباحثون فمنهم من عدها اسما على ثقافة جديدة مركبة من عناصر يونانية وشرقية ، إذ امتزجت ثقافة الاغريق بثقافة الشرق فانتجت لونا من الفكر ليس باغريقي خالص ولا بشرقي بحت ، حمل فيه الاغريق إلى الشرق شيئا من الفلسفة

---

(١) و. و. تارن وترجمة عبد العزيز توفيق جاويد : الحضارة الهلينستية ص ٣ .

والعلم ، ولقح فيه الشرقيون حضارة الإغريق بشيء من روحانية الشرق وأنظمته وعلمه * .

ومن الباحثين من جعل مفهوم اللفظ مقصوراً على امتداد ثقافة الإغريق إلى الشرقيين ، وظاهر أن هذا التفسير ينكر أثر الشرق فى الاغريق ويريد أن يجعل التأثير مقصوراً على الإغريق فى الشرق ، وأن الاغريق هم الشعب الغالب ولأن اللغة اليونانية قد أصبحت فى ذلك العصر لغة الثقافة والفكر من مرسيليا إلى الهند ، وأنه إن بدت أفكار مخالفة فى طابعها عن روح الفكر الإغريقى فى العصر الكلاسيكى فذلك فلأن الروح الاغريقية قد أصبحت أقل اغريقية نتيجة هـذا الامتداد الطويل إلى الهند .

قريباً من ذلك الرأى من ذهب إلى أن الحضـارة الهلينستية هى الحضارة الاغريقية القديمة ولكنها منقحة بفضل ما أحاط بها من ظروف جديدة .

وذهب تارن إلى أن الهلينستية ما هى إلا عنوان مناسب للدلالة على حضارة تلك القرون الثلاثة التى كانت فيها الثقافة اليونانية تسطع بأضوائها بعيداً عن أرض الوطن الأصلية ، ثم يشير إلى أن هذه القرون الثلاثة قد تميزت فيها مرحلتان مختلفتان : مرحلة اتسمت بالإبداع والابتكار فى العلوم والفلسفة والأدب والنظم والأوضاع السياسية للدول ، فضلا عن مظاهر أخرى اضطلع بها عالم اغريق

* يرى راسل أن الاغريق قد حملوا الى البرابرة العلم والفلسفة بينما أخذ الاغريق من البرابرة الخرافة مشيراً بذلك الى انتشار التنجيم فى الحضارة الهلينستية التى أخذتها من بابل History of western philosophy p. 242 ، لا نوافقه على ذلك لأن كثيراً ممن حملوا مشعل الفكر فى هذا العصر كما سيتضح فيما بعد لم يكونوا من خلص الاغريق فضلا عن أن حضارة الاغريق قد أفادت بشيء أسمى بكثير من الخرافة .

مقدونى حين مد ألوية حضارته إلى آسيا ، ومرحلة ثانية تميزت بالكلل الذى أصاب الدافع الفنى والإعياء الذى اعترى الروح الخلاقة نتيجة رد الفعل الشرقى من جهة وقيام رومة من جهة أخرى إلى أن انتهى المطاف بالدول الهلينستية إلى الدمار لتحل الدولة الرومانية محلها حاملة لواء الثقافة الإغريقية (١) .

على أن رسل قد ذهب إلى تقسيم آخر لتاريخ الاغريق يكشف عن ما يميز المرحلة الهلينستية عما قبلها وما بعدها إذ قسم هذا التاريخ إلى مراحل ثلاثة :

١ — مرحلة دولة المدينة الحـــرة : وقد انتهت بعهد فيليب وفتوحات الاسكندر .

٢ — مرحلة سيادة مقدونية : وقد انتهت بموت كليوباتره .

٣ — الامبراطورية الرومانية .

والمرحلة الثانية منها ما اصطلح على تسميتها بالهلينستية ، وتتميز المرحلة الأولى بالحرية والفوضى بينما تتميز المرحلة الثانية بالخضوع والفوضى أما الثالثة فتتميز بالخضوع والنظام (٢) .

وبصرف النظر عن مدى صحة ما خلعه رسل من صفات على كل مرحلة ، إذ أن هذه الصفات إن صحت فإنها تجعل المرحلة الهلينستية أرق عما قبلها وما بعدها إذ جمعت الخستين : الخضوع والفوضى بينما اجتمعت في الاثنتين الأخرتين احدى الميزتين : الحرية أو النظام ، فإن منحنى المرحلة الهلينستية إنما بدأ تاريخيا حين انطلقت فرقة مكونة من خمسة وثلاثين ألف جندى يقودها الاسكندر الأكبر لتعبر الدردنيل ولتصل إلى حدود الهند فتقضى بذلك على أكبر امبراطورية

---

١ — و. و. تارن وترجمة عبد العزيز جاويد : الحضارة الهلينستية ص ٤٥٥ .

2.— Bertrand Russell : History of western philosophy p. 241.

عرفها الشرق القديم حين هزم الفرس فى ثلاث معارك حاسمة ، وفى خلال عشر سنين من عام ٣٣٤ ق م إلى عام ٣٢٤ كان الاسكندر قد احتل آسيا الصغرى وسوريا ومصر وبابل وفارس وسمرقند حتى وصل إلى حدود الهند .

وما كان الغزو العسكرى وحده أن يقيم حضارة لها طابعها المتميز ، ذلك أن الحروب لا تقيم حضارات ، لولا ما اتبعه الاسكندر من سياسة رشيدة تمثلت فيما يأتى :

١ — أنه أسس فى العالم الشرقى سبعين مدينة على الأقل طبعها بالطابع الاغريقى (١) ، والمدن بلا شك تجسيد مكانى للحضارة ، وقد قدر لإحدى هذه المدن أن تحمل مشعل الفكر الاغريقى بل أن تصبح أهم مركز ثقافى فى العالم إبان المرحلة الهلينستية على الأقل ، ألا وهى الاسكندرية .

٢ — أنه اصطحب معه فى فتوحاته عدداً من الفلاسفة والعلماء والأدباء من بينهم بيرون الفيلسوف الشاك ، وأنه أثناء إقامته بمصر أرسل رجالا يحاولون اكتشاف منابع النيل وأسباب فيضانه ، وأن بعض علمائه كان يدرس بالهند طبيعة التربة وخصائص الأشجار والأعشاب التى لم يعرفها اليونانيون ، وأنه كان يحاول أن يكتشف مصبات الأنهار أو منابعها ومنتهى البحار التى مرت حملاته بها ، وربما كان ذلك من تأثير أرسطو عليه (٢) * ، وربما أفاد أرسطو نفسه فى دراساته لأنواع النبات مما كان يبعث به الاسكندر اليه ، ولكن الذى لاشك فيه

---

١ — د. نجيب بلدى : تمهيد لتاريخ مدرسة الاسكندرية وفلسفتها ص ٢٠ وقد أطلق عليها جميعا اسم الاسكندرية لم يبق منها إلا مدينتنا .

٢ — المرجع السابق ص ١٨ .

* وكان يحتفظ معه بنسخة من الالياذة عليها شروح أرسطو .

أن فتوحات الاسكندر لم تكن مجـــرد غزوة عسكرية لتحطيم الامبراطورية الفارسية .

٣ ـ أنه اتبع فى فتوحاته سياسة المزج بين اليونانيين والشرقيين ، إذ أعلن فى مأدبة أقامها فى أوبيس Opis رجاءه أن تجتمع القلوب فى اتحاد ، وأن يلتئم المقدونيون والفرس فى دولة واحدة ، ثم قرن الرجاء بالعمل حين تزوج من اميرتين فارسيتين احداهما ابنة امبراطور الفرس دارا الثالث ، وحـــين أجبر ثمانين من كبار قواده أن يحتذوا حذوه * ، وبذلك حطم الحواجز الاقليمية التى كانت قائمة بين الاغريق والفرس ومهد السبيل لعالمية العصر الهلينستى ، لا نزعم أنه كانت تحدوه فى ذلك مثل عليا نبيلة ، وانما كان ذلك لأغراض سياسية عملية ؛ على أن العبرة فى التاريخ بالنتائج لا بالبواعث التى هى من شأن المحللين النفسيين ، لقد كان يدرك أن جيوشه ليست من الضخامة حتى تستطيع قهر البلدان المغلوبة من آسيا الصغرى إلى الهند لأمد طويل ، وأن خير وسيلة لسيطرة الاغريق أن تحل المصالحة والزواج محل القهر والقوة .

على أنه كان فى ذلك أنفذ بصيرة وأبعد نظراً من كبـــار حكماء الاغريق أنفسهم ، إذ كان أفلاطون يستحل استرقاق اليونانى لغير اليونانى ولا يستحل ذلك لليونانيين ، وكان أستاذه أرسطو يرى أن الإغريق قد جمعوا بين الشجاعة والحكمة مما يؤهلهم للسيطرة على البرابرة الذين كانت إما تنقصهم الحكمة كشعوب الشمال أو تنقصهم الشجاعة كشعوب الشرق ، ربما كان الاسكندر فى ذلك أكثر منهما حكمة

---

* وقد طلقوا جميعا زوجاتهم الفارسيات بمجرد وفاة الاسكندر الا واحدا منهم !!

المرجع توينبى : تاريخ الحضارة الهيلينية ص ١٥٢ .

وأقل منها تعصباً لأنه كان مقدونيا * ، على أية حال فقد كان ذلك يعني أن يمتزج الدمان وأن تتفاعل الحضارتان لتنجبا الحضارة الهلينستية .

غير أنه من الخطأ أن نزعم أن الاسكندر كان حكيما فى كل تصرفاته ، أو أن سياسته قد أدت إلى قيام حضارة عالمية ، لأن الحضارات لا تنهض إلا إذا كانت معبرة عن خصائص الشعب مستلهمة إمكانياته متسقه مع روحه ، ولقد أكره الاسكندر الاغريق على غير طبعهم حين طالب منهم أن يؤلهوه ومن قواده أن يسجدوا له ، لقد إغتر بما خلعه عليه كهنة مصر أنه سليل الاله آمون ، وربما كان تأليه الملوك شيئا يتسق مع طبيعة شعوب الشرق وخاصة مصر ، أما بالنسبة للاغريق فقد كان ذلك شيئا باعثا على السخط والسخرية ** حقيقة إن آلهة الاغريق تشبه البشر ، وحقيقة لقد أله الاغريق بعض أبطالهم ،ولكنهم لم يكونوا متقبلين - بعد أن تهاوت آلهة المدن بالوحدة التى فرضتها مقدونية عليها - أن تملأ هذا الفراغ عقيدة تأليه الملوك على الطريقة المصرية ، يقول توينبى :ما كان لعقيده الآلهة الملوك الادميين أن تملأ الفراغ الروحى الذى كانت تعانيه النفوس الهيلينية (١) أريد أن أقول إنه إذا كانت فتوحات الاسكندر تشكل منحنى هاما فى مسار الحضارة الاغريقية من مرحلتها الكلاسيكية إلى مرحلتها الهلينستية ، فإن هذه الفتوحات ، إذ تجاوزت بالحضارة الاغريقية نظام دولة المدينة محطمة روحها

---

* كان المقدونيون يتحدثون اليونانية ولكنهم لم يشكلوا جزءا من حضارة الاغريق فى عهدها الكلاسيكى ، كان نظام الحكم ملكيا فى وقت كانت فيه معظم مدن اليونان قد تجاوزت هذا النظام

** يقول تارن : كان تأليه الاسكندر اجراء سياسيا لا صله له بالشعور الدينى ، كان يضمن له عدم انتقاد تصرفاته وأعماله بعد مماته ".. ولكن لم يفكر أحد من الملوك أنه رب معبود حقا ، كان ذلك يثير السخرية لدى الكثيرين (تارن : الحضارة الهليسينية ص ٦٠)

(١) أرنولد توينبي وترجمة رمزى عبدى جرجس ، تاريخ الحضارة الهلينيه ص ١٤٩

التي كانت من ازدهارها إبان مرحلتها الكلاسيكية »، قد عجزت عن أن تقدم بديلا يتسق مع الروح الإغريقية من جهة ومع مقتضيات المتغيرات الجديدة من جهة أخرى، فعادة « تأليه الملوك » مجافية ومنافية للروح الإغريقية التي جبلت على الحرية الفردية، إذ كيف بها تجد نفسها وقد افتقدت الحرية تماما ليحل محلها تسلط ملك لدواعي سياسية تعززها وتؤازرها عقيدة دينية، وإذا كان الإسكندر لم يعمر طويلا وإذا كان الإغريق قد أبوا عليه تأليهه، وإذا كان تأليه البطالمة قد تمكن في مصر امتدادا لتأليه الفراعنة، فإن الإغريق وقد تحطمت آلهة مدنهم وآلهة الأمم منذ فتوحات الاسكندر الأكبر لم يجدوا البديل لا لإشباع وجدانهم الديني فحسب بل ذلك الينبوع الذي منه تنهل حضارتهم أسباب استمرارها، يقول هيجل: إذا كانت الحرية من أهم خصائص الروح الإغريقية، تلك الحرية التي تجلت في حرية الفكر ... فقد بدأت هذه الروح تفقد أهم خصائصها ومقوماتها حين خضعت لقوة الدولة واستبداد الحاكم. (1)

ولم يكن طاب الإسكندر أن يؤلهه جيشه وشعبه هو خطأه الوحيد المجافي للروح الإغريقية، وإنما يذكر شبنجلر أن من خصائص هذه الروح أيضا أن الاغريقي لا يميل الى أن يكون غازيا، حقيقة كان لأسباب اقتصادية بحتة يهجر وطنه ويقيم المستعمرات، ولكنه كان يظل مع ذلك متعلقا بوطنه تعلق الطفل بأمه، إذا أقام مستعمرة حمل إليها عادات وأنظمة وآلهة مدينته. وكان يحب دائما أن يكون

* ارتبط الاغريقي بمدينته برابطة عضوية، حيثما ينتهي بصره وهو واقف عند قمة الاكربول ينتهي وطنه وما جاوز ذلك فغريب عليه لئن لم يكن معاديا له وهكذا يكون الاسكندر قد أكره الاغريق على غير طبعهم حين ساقهم الى الغزو الخارجي.

1 – Hegel, translated by Sibree : Lectures on the philosophy of History p. 115.

البحر وسيلة إتصاله بين وطنه الأم وبين مستعمرته،وحين فرض عليه الاسكندر الغزو فقد كان ذلك هو الاستثناء الذى يدعم القاعدة (١) ، ومن ثم فإنهم ما ان واتتهم الفرصة المناسبة فى اللحظة الحاسمة للتعبير عن طبعهم الذى أكرههم الاسكندر على مخالفته حتى أبوا عليه ان يستمر فى فتوحاته وأكرهوه على العوده وهو فى قمة إنتصاراته .

يتفق كل من شبنجلر وتوينبى على أن فتوحات الاسكندر تمثل بداية النهاية بالنسبة للحضارة الاغريقية ، أما الاول فنى ضوء فلسفته أن الاسكندر قد أكره الاغريق على شىء مجاف تماماً لروحهم إذ أكرههم على الغزو ، وأما الثانى فنى ضوء فلسفته أيضا أن التوسع الخارجى وتكوين الامبراطوريات يمثل نهاية حضارة لا بدايتها وأنها عادة تغطية لاضطرابات داخليه وأن صراع الاغريق مع الفرس ما كان ليقتضى إلا أن يطردوهم عند حدود البوسفور لا يتجاوزها إلى بلاد الشرق، أما وقد جاوزها فقد جر ذلك على الاغريق من المتاعب ما عجزت تماما عن مواجهتها وأنه بموت الاسكندر تجدد الصراع القديم بين المدن الاغريقيه فى صورة صراع بين قواده حول تركته ومن ثم نزف الجرح الذى لم يكد يلتئم حين فرض فيليب المقدونى الوحدة على بلاد الاغريق وذلك بسبب الصراع بين الورثة إلى أن إستسلمت تماما للرومان . (٢)

لقد جاء موت الاسكندر المفاجىء فى ريعان شبابه عام ٣٢٣ ق م ليضيف مشكلات عسيرة الحل على الاغريق ، لقد ترك امبراطورية تشمل مصر ومعظم

1 — Oswald Spengler, translated with notes by Charles Francis Atkinson : The Decline of the West p. 835.

(٢) أرنولد توينبى وترجمة رمزى جرجس : تاريخ الحضارة الهلينية الفصول ٨، ٩، ١٠ ص ١١٤ — ١٦٥ .

آسيا من بحر ايجه الى بلاد البنجاب والى الجنوب من خط القوقاز وبحر قزوين ولشبت الحروب بين قواده ؛ وخاصه ثلاثه منهم ، فحكم السلوقيون شطرا من الامبراطوريه الفارسيه ، وحكم البطالمه مصر وحكم آل انتيجونس مقدونيه واستمرت المعارك بينها ، ومن ناحيه أخرى داعب الأمل المدن الاغريقيه في أن تسترد استقلالها وتتحرر من سيطرة مقدونيه ، وكان ديموستينز Demosthenes يتزعم في أثينا حزبا قويا يثير في الاغريق ذكريات أمجاد أثينا أيام نظام دولة المدينه ، وما كان للماضى أن يعود ، ولم يزد الاغريق إلا تمزقا من عودة الصراع قبل الوحدة من جهه ومن نزاع بين الورثه من جهه أخرى الى أن انتهى الامر بالتهام الدوله الرومانيه لعالم حوض البحر المتوسط بأكله بعد أن سقطت آخر دولة مستقلة وهى مصر عام ٣٠ ق . م

خلاصة القول لقد شكلت فتوحات الاسكندر بداية مرحلة فى الحضارة الاغريقيه وقد كانت مرحلة تعبر عن بداية النهاية .

ولم تكن الحضارة الهلينستية معبرة عن بداية نهاية حضارة الاغريق لأن الاسكندر قد أكرههم على غير مشيئتهم حين ساقهم الى الفتح أو حين أضفى على نفسه صفه الالوهية فحسب ، ولا لأنه بموته قد تركهم شيعا متناحرة بين مدن تسعى الى العودة الى القديم وبين قواد يطمع كل منهم فى أكبر نصيب من التركة وإنما لأن ورثته قد انحرفوا عن سياسة المساواة بين اليونانيين والبرابرة وأعادوا نعرة الاستعلاء وسعوا الى إقامه ملكيات عسكريه قوامها جيش مقدونى يعززه عدد ضخم من المرتزقه مما أثقل إقتصاديات المجتمع الغازى ، وإذا كان الأمر قد استتب على هذا النحو فى مصر تحت سيطرة البطالمه فان آسيا قد عانت من الصراع على السلطه على مدى قرنين من الزمان .

على أن القول إن فتوحات الاسكندر قد شكلت منحنى خطيراً فى مسار الحضارة الاغريقيه لايعنى أن هذا التبدل من حضارة هلينيه الى حضارة هلينستية كان مفاجئاً، وإنما قد تجمعت العوامل جميعاً لتهىء لهذا التبدل ، إذ لم تعد الروح الاغريقية فى المرحله الكلاسيكية قادرة على مواجهة ما تأتى به من متغيرات ، كانت المدينة الاغريقية فى العصر الهلينى مجتمعاً مصمماً على أن يبقى صغيراً من أجل المصالح الذاتية للمواطنين فى المدينة ، وربما ساعدت الحدود الطبيعية على ذلك ، وكانت الحياة السعيدة كما يفهمها الاغريق ويمارسونها تعتمد على الألفة التى تقتضى قلة العدد، كما كانت الديموقراطية المباشرة تعتمد على أن يعرف المواطنون بعضهم بعضاً ؛ ولم تكن لنظرة الاغريق لتتسع لأكثر مما يستطيع مشاهدته من قمة الجبل عند الأكربول .

ومن ناحية أخرى كان المجتمع الإغريقى لايمنح حقوق المواطنة إلا لقلة من مواطنيه بين كثرة غالبة تقوم بمعظم الأعمال الضرورية التى تجعل الحياة ممكنة لا فى مجال الزراعة والحرف فحسب بل فى مجال التجارة ، ولم يكن الإغريقى ليتصور أن يسهم جميع أفراد المجتمع فى الحياة السياسية لمدينته ، كانت الحياة الشريفة فى تصوره مقصورة على قلة من المواطنين لابد أن يتوفر لهم الفراغ الذى يتيح لهم التفكير والتفلسف ، كان هذا الفراغ فى تصورهم بطالة نبيلة، وكانت هذه البطالة النبيلة إنما تعنى أشخاصا آخرين هم الذين يقومون بعبء العمل .

وإذ أبقت المدينة الاغريقية غالبية سكانها خارج نطاق الحياة السياسية وحقوق المواطنة فإنما قد منحتهم بذلك ترخيصاً للإنصراف لما يعود عليهم بالنفع الذاتى فى ميدان النشاط الاقتصادى ، لقد أخلتهم المدينة من كل الالتزامات ودفعت التجار الى السعى فى تحقيق الربح ووضع الناس تحت رحمة

إستغلالهم (١)» .

أريد أن أقول إنه ما كان لنظام دولة المدينة ولا لنظام المواطنة فيها أن يستمر على هذا النحو ، وإنما جاءت فتوحات الاسكندر لتضع نهاية لنظام إستنفد أغراضه .

اهم ملامح الحضارة الهلينستية :

١ ـ امتزاج حضارتين :

شهد العصر الهلينستينى انتشار حضارة الاغريق بين شعوب الشرق ، إذ حطمت الفتوحات المقدونية ما أقامته الحكومات واللغات بين الأمم من حواجز ، فرض على المدن الاغريقيـة أن تأتلف وبعثت الحياة فى المدن التى كانت مستعمرات إغريقية على سواحل آسيا ، وبذلك عادت الحضارة الاغريقية إلى مواطنها الآسيوية ولعبت التجارة الدولية دوراً أساسياً فى إلتقاء الشعوب ، واقتضت هذه التجارة تعبيد طرق وتنشيط ملاحة ، كما ترتب على هذه التجارة ظهور ثروات ضخمة وإنشاء مدن كبرى ، لقد تبعت جيوش الاسكندر جماعات كالسيل الجارف من التجار والاداريين واصحاب الحرف ، وشهد الشرقيون روحاً لم يعهدوها ولم يألفوها فى حياتهم من قبل ، كان طلاب العلم يطوفون شوارع المدن يتحاورون كما كانوا يفعلون فى مدنهم القديمة ، وكان فهم اللغة اليونانية ضرورياً حتى يعد المرء مثقفاً وحتى يستطيع الاستمتاع بمسرحيات يوربيدس ومناندر ، وهكذا

---

(١) لويس ممفورد وترجمة الدكتور ابراهيم نصحى : المدينة على مر العصور ج ١ ص ٣٣٥ — ٣٤٠ .

* لاحظ أن أفلاطون فى جمهوريته كذلك جعل لطبقة العامة النشاط الاقتصادى بأكمله وأعفاهم من كل الالتزامات عدا الضرائب .

إزدهرت الثقافة وإنتشرت على نحو لم تعد من قبل بين بيئات متباينة ، وكان من آثار ذلك أن أسهم الشرقيون فيما كان يعد لوناً من الفكر خاصاً بالاغريق ، إذ ظهرت أسماء شرقية لأول مرة فى الفلسفة مثل زينون الرواق .

على أن ذلك لا يعنى أن الشرق قد غلب على أمره ، إذ كانت الروح الشرقية أصيلة راسخة فظل الناس يتخاطبون بلغتهم الوطنية ويمارسون عاداتهم المألوفة لهم من قديم الزمان كان الغشاء اليونانى الذى غشى الروح الشرقية رقيقا ويزداد رقة حتى لا تبدو ملامحه بالتوغل فى أقاصى أقطار الشرق والبعد عن ساحل البحر المتوسط الذى كانت المراكز الاغريقية فى الأغلب منحصرة عليه ، وهكذا كان على السطح يونان وحضارة يونانية وتحت السطح خليط من شعوب وثقافات شرقية ، لقد عجزت الروح اليونانية عن أن تتغلغل فتسرى فى أعماق العقلية الشرقية ، إذ كان الدين راسخاً فى الأعماق مشكلا ومؤثراً فى معظم الحضارات الشرقية ، ومن ثم يتعذر أن تزعزعه فضلا عن أن تقتلعه روح عشقت زخرف الحياة الدنيا لم تتجاوزه الى ما وراءه ، ومع ذلك فقد كانت هذه الروح تعشق الحرية ولا تخضع لاستبداد الحكام على عادة حضارات الشرق القديم ، وبدلا من أن تتعدل الروح الشرقية بما فرض عليها إذا بتيار الفكر الشرقى يجيش حتى يغمر ما على السطح من روح يونانية ، إستأنف معين الدين نشاطه وأنحدر من الشرق الى الغرب ليتبدل العالم اليونانى الوثنى وليصل التبدل ذروته بظهور المسيحية ، وأصبح نهر بردى - على حد تعبير توينبى - يصب فى نهر التيبر ، ولم يقف الأمر عند حد الدين وإنما مظاهر أخرى للفكر والأنظمة ، إذ غلب تنجيم البابليين على فلك اليونان ، وأثبتت الملكية المطلقة أنها أقوى من الديمقراطية اليونانية ، وفرض النظام الملكى نفسه على دول الغرب تماماً كما فرض دين شرقى نفسه على عقيدة شعوب الغرب ، وحتى قبل ظهور المسيحية كانت الفلسفة الرواقية بما تحمله من

روحانية الشرق قد سرت فى وجدان الاغريق ثم الرمان واتملأ ذلك الفراغ الذى تركه تدهور أديان اليونان وسقوط آلهتهم . وهكذا بقى الاله الشرق ومات الاله اليونانى ، واستسلم اليونانيون للطقوس الدينية والفينيقية والسورية ، لقد عرض اليونان على الشرق الفلسفة وعرض الشرق على اليونان الدين وكانت الغلبة للدين ، لأن الفلسفة كانت ترفا يقدم للأقلين ، بينما الدين سلوى للكثيرين ، يرضى وجدان الانسان ويبث الالهام والايمان فى عالم سئم الحروب وانشد السلام ، لقد كانت أعمق فتوح الاسكندر أثراً نتيجة أبعد ما تكون عن العقول ، ألا وهى إصطباغ الروح الأوربية بالصبغة الشرقية . (١)

٢ ـ من دولة المدينة الى المدينة العاصمة :

كان نظام دولة المدينة قوام الحضارة الاغريقية فى مرحلتها الكلاسيكية ، ومن ثم فقد إرتبط المواطن الاغريقى بمدينته إرتباطاً عضوياً ، ومن ثم فقد ألهها ، وكان تصور فلاسفة اليونان المدينة المثالية على نحو ما كانت عليه مدنهم ، ذلك أنه إذا تجاوزت المدينة فى نموها حدودها الطبيعية استوعبت عددا من الناس أكثر مما تستطيع إسكانهم وإطعامهم وحكمهم وتعليمهم فلا تستطيع تأدية وظيفتها ومن ثم لا تغدو مدينة ، فضلا عن أن تحقيق العدالة كان يقتضى أن يعرف الناس أخلاق بعضهم بعضاً ، كانت دولة المدينة بمثابة وعاء صغير يحوى مواطنيه ويخضع لاشراف الأكروبولو ويقوم على نظام إقتصادى يكفل الإكتفاء الذاتى ويستند إلى قطاع من المواطنين دون غيرهم .

ولم يتصدع نظام دولة المدينة بسبب عالمية الدولة التى نشأت نتيجة فتوحات

---

(١) ول ديورانت وترجمة محمد بدران : الجزء الثالث من المجلد الثانى من كتاب قصة الحضارة ص ٤١ — ٤٧ .

الإسكندر فحسب بل كانت أسباب الضعف تدب فيه من قبل وتتمثل فى عاملين:

١ — الحرمان لشطر كبير من سكان المدينة سواء من رقيق الأرض أو من زراعها من حقوق المواطنة مما جعل غالبية سكانها خارج نطاق الحياة السياسية فضلا عما فى ذلك من تناقض داخلى بين عشق الحرية وبين إستعباد الآخرين .

٢ — الحروب المتصلة التى كانت تفضى إلى الدمار الذى يلحق المدينـــة المهزومة .

ولقد كان هذا النظام غير صالح للملاءمة مع ديناميات التغير ومقتضياته ، وحينما أنشأ الاسكندر سبعين مدينة فى البلدان المفتوحة ، وحينما انهارت الحواجز بين المدن، فقد كان ذلك يعنى أن نظاما جديداً قد فرض نفسه سواء على نظام المدن أو على سكانها ، والفرق بين النظامين هو الفرق بين مدن أسسها أهلها ومواطنوها وبين مدن أسسها حكامها وملوكهـــا ، كانت المدن الجديدة بلا شك أفضل تنظيما وأحسن تخطيطا حتى تفى بإقامة المنشآت العامة من جهة ولكى تلبى مطالب الحكام كإقامة الإستعراضات العسكرية *،كانت المدن القديمة تعبر عن مواطنين أحرار يتناقشون ويتحاورون فى طرقاتها الضيقة وفى الأسواق ، بينما تعبر المدن الكبرى فى العصر الهلينستى عن مظاهر القوة والثروة معاً ، شغل المواطنون أنفسهم ، وقد أصبحت السياسة مسؤليه الحكام وحدهم بضروب الترف الفارغة من طلب الاناقة فى المسكن وإقتناء العطور والتحف الفنيـــة ، كان ذلك ما يعوضهم عن حياة خاليه من تحمل أعباء المواطنه ومن شواغل السياسة ، حقيقـــة قد بدت

---

* أو مهرجانات التتويج التى كان يستعرض فيها آلاف من المشاه والفرسان والمركبات

(١) لويس ممفورد وترجمة الدكتور ابراهيم نصحى : المدنية على مر العصور الجزء الأول من ص ٢٣ — ٣٥٨ .

المدينة الهلينستية أجمل بكثير من حيث مستوى النظـــام والتماسك فى الشكل والشوارع العريضة المستقيمة المتعامدة بدلا من الطرقات والأزقة الضيقة فضلا عن أنها أكثر استيفاء للشروط الصحية وأوفر رخاء مما جعلها تبدو أكثر جمالا الناظر إليها نظرة سطحية ، ولكن ذلك الجمال كان غلافا رقيقا يخفى وراءه حقيقتها إذ كانت مدينة القوة المتغطرسة والثروة القائمة على الافتخار والغرور ، وهكذا انتهت مدينة الحضارة لتقوم مدينة الاستغلال التجارى والاستبداد السياسى ، انتهت مدينة أنشأها أهلها ومواطنوها ليمارسوا فيها حريتهم لتحل مدينـــة أسسها الملوك لتكون قفصا ذهبيا من الرخاء الاقتصادى لمواطنيها .

وهكذا بدأت الحياة الحضرية فى بلاد الاغريق على هيئة نقاش حامى الوطيس ثم تدهورت إلى مشاجرة أو معركة أشهرها الحروب البيلوبونيزية ، وفى كنف الملوك والاباطرة الفاتحين بطل النقاش والتعبير عن الرأى ليحل محله استعراض القوة أمام متفرجين يتخذون موقفا سلبيا ، انتهى عصر مواطنين يتفننون ويتنافسون فى ابراز « الارتيه » أو فضيلة التفوق فى مهرجاناتهم الأوليمبية ليحل محلهم عدد من المحترفين والبهلوانات الاقزام لتسلية السجناء والمسجونين على السواء . وهكذا الدكتاتورية ! .

يقول لويس ممفورد : اننا فى تتبع هذا التطور فى كل من الناحيتين المعمارية والحضرية نجد أنفسنا وجها لوجه حيال أحد وجوه التناقض التى تبعث على أشد الحيرة فى تاريخ التطور الانسانى ، وأعنى عدم التناسق بين النظام الجمالى والنظام الخلقى ، وبيان ذلك أنه كلما تفككت أواصر الحياة الداخلية فى المدينة الإغريقية بدا المظهر الخارجى للمدينة على درجة أرفع بكثير من حيث مستوى النظـــام والتماسك فى الشكل (١).

(١) المرجع السابق ص ٣٥٥ .

أصبحت المدينة الهلينستية مكانا للعرض ، حيث كانت تعرض على الأنظار قوة الحكام وذلك لارهاب رعاياهم والترفيه عنهم في آن واحد ، ولعل الحكام الجدد لكي يداووا الجرح العميق الذى أحدثه فقدان المدينة الإغريقية لحريتها السياسية الفعلية وقدرتها الحضارية الخلاقة زودوها بالجمال كنوع من البلسم أو المخدر ، فكانت المدينة تبدو في ثوب فاتن .. لم تكن أثينا تطمع في الوصول إليه حتى في عهد بركليس .. وهكذا تلازمت ضخامة المباني وروعة الآثار وجمال الفن مع الحكم الملكى المطلق (١) .

وإذا كان ذلك شيئا جديداً بالنسبة لحضارة الاغريق فإنه لم يكن كذلك بالنسبة لحضارات مصر وأشور وبابل ، وهكذا انتهج الغالبون نهج المغلوبين .

ومن ناحية أخرى لم تكن المدن الاغريقية القديمة بقادرة على أن تتلاءم مع مقتضيات الحياة الجديدة فضلا عن أن تنافس المراكز الجديدة ، إذ لم تكن تستطيع أن تكفى نفسها بنفسها كما كانت من قبل فاضطرت إلى الاستيراد ، ولم تصبح المدن كما كانت طرقا للتجارة أو موانى للملاحة البحرية ، فكان أن هجر آلاف من الرجال مواطنهم في المدن اليونانية ليعملوا جنوداً مرتزقة في جيوش القوى الثلاثة المتناحرة ، وهكذا انتقلت مراكز الابداع الفكرى والفنى من بلاد الاغريق إلى مراكزها الجديدة في مصر وآسيا ، وهى المراكز التى أخذت منها بلاد اليونان في تواضع وخشوع أدابها وفنونها قبل ذلك الوقت بألف عام(٢).

---

(١) المرجع السابق صـ ٣٥٧ .

(٢) ول ديورانت وترجمة محمد بدران : قصة الحضارة الجزء الثالث من المجلد الثانى ص ٢٠١ .

٣ — اخلاق الانحلال * :

قامت الحضارة الاغريقية على نظام دولة المدينة ، كانت تمثـــل للمواطن الاغريقي موطنه ودينه المتمثل فى آلهتها ، وحقيقة لم تكن أخــــلاقه الاجتماعية مستقاة من الدين وإنما من مبادىء متأصلة فى القصص الشعبى المعبر عن رابطته العضوية بمدينته ، ولكن اليونانى بإزالة الحواجز بين المدن قد خسر مدينته وخسر دينه ، ذلك أن آلهة المدينة قد ثبت عجزها عن حماية مدينته ، وتزعزع إيمان الناس بهذه الآلهة ، ولا تعيش القلوب فى فراغ ، ولا يملأ الفراغ عقيدة تأليه الملوك ، ومن ثم التمس الناس أية عقائد ، فانتشرت أديان غريبة وعقائد سرية وتسربت معتقدات تمزج آلهة مصر بآلهة الاغريق ، ولكن ما كان ذلك ليزيل القلق من النفوس ، قلق مصدره انهيار نظام وما خلفه الانهيار من فراغ وقلق بسبب الحروب بين خلفاء الاسكندر التى ما أن تهدأ حتى تثور ، وقلق بسبب نمط الحياة التى أصبح قوامها الصراع من أجل المال ، ذلك أنه قد لزم عن فتوحات الاسكندر اطلاق الأموال المكدسة فى خزائن بلاد الفرس ، وسهولة الانتقال بين المدن ونشطت التجارة وازدهرت الحيـــاة الاقتصادية التى تزيد الأغنياء غنى ولكنها تطحن الفقراء بما يلزم عن سرعة تداول الأمـــوال وعن الحروب من تضخم اقتصادى وارتفاع أسعار ، وانعكست آثار ذلك على حياة الناس جميعا ، أما الأغنياء فقد أصبحت الحياة لهم ترفا ولهوا وخلاعة وأصبحت النساء معارض لثراء أزواجهن ، وأما الفقراء فقد تركوا الأوطـــان ، وقد تملكتهم روح التذمر والسخط ، وانعكست آثار طغيان الحياة المادية على العلاقات

---

* عنوان الفصل الثالث من الباب الثالث والعشرين من كتاب قصـــة الحضارة لول ديورانت فى وصف الحضارة الهلينستية من ص ٢٢ — ٢٨ .

الاجتماعية بين الناس وعلى الأدب والفن والعلم والفكر ، أما العلاقات الاجتماعية على مستوى الطبقات العليا القريبة من السلطة فقد أصبح السلوك بحكم عادة التزلف إلى الملوك يقوم على المجاملات اللطيفة والمعاملات الرقيقة وعلى آداب اللياقة التى تحيدها عادة حاشية الحكام والتى يكون مبعثها السلامة الشخصية والهيبة الملكية ، والناس على دين ملوكهم ، وبذلك أضحت العلاقات أرق ، رقة تقوم على التزلف بأكثر مما تقوم على الخلق القويم ، واستمتعت النساء بالحرية وبعثن فى الرجال الميل إلى التطرف والرشاقة فانتشرت عادة حلق اللحية التى ربمـــا تعد أدوم ماخلفته فتوحات الاسكندر بعد أن كانت تعد تشبها بالنساء .

وسعت الأسرة إلى تحديد النسل : الفقراء عن إملاق والأغنياء عن رغبة فى الاستمتاع بمباهج الحياة لا تشغلهم عن ذلك تربية الأولاد (١) !

وانعكست آثار الحياة التى تدور حول الاسفاف والابتـــذال والغواية والجنس على الأدب فشغل بوصف مفاتن المرأة بعد أن كان تصور الأدب القديم لها كأم ، على أنه كان لا بد أن ينشأ أدب يعبر عن رد الفعل المتمثل فى نقد القيم المادية والسخرية والتهكم من الأسلوب السائد فى الحياة .

وأما الفن فبعد أن كان تمجيدا لأصحاب المواهب والمتفوقين أضحى فى خدمة الملوك إذ تقام لهم التماثيل، ونموذج له تمثال العملاق فى رودس والذى يعد احدى عجائب الدنيا السبع * .

---

(١) ول ديورانت وترجمة محمد بدران : قصة الحضارة ج ١ مجلد ٢ ص ٢٧ .

* يقول ممفورد: من دلائل الثراء الفاحش والابتهاج بالفخامة التى تلتى بالروعة فى النفس تمثال رودس الهائل . . وهو يسيطر بضخامته ووقفته على الميناء ولـكنه خلو ممـــا يفيد الانسانية ، لقد تملكت القوة المصابة بجنون العظمة أن تبرز مظهر انحرافها بتقديرها العميق للفن أو العلم (المدينة على مر العصور ج ١ ص ٣٠٦) .

وأصبح التعليم كسائر مظاهر الحياة قشرة على السطح تخفى ما تحتها ، إذ مع انتشاره بين الذكور والاناث فقد خرجت المدارس أصناف متعلمين ينشرون السخط بأكثر مما يسهمون فى الفكر .

واضمحلت معظم الألعاب لتنتشر لعبة الملاكمة * لتعبر بدورها عن مظهر القوة فى مجتمع قائم على القوة ، ولتعبر عن سلبية المشاهدين فى مجتمع أصبح المواطنون متفرجين على ما يجرى على حلبة الصراع بين الحكام .

فإذا انتقلنا إلى الفكر ، فما عساه أن يكون فى مجتمع تشكل فيه الثقافة لدى الكثيرين غشاء رقيقا على سطح التفكير ؟ وما عسى أن يكون الفكر فى مجتمع تهاوت فيه قيمه مع تهاوى وطنه وآلهته ولم تسعفه الحضارة الجديدة بقيم أصلية ؟ وما عسى أن يكون تفكير الناس فى ظل حياة يسودها القلق ؟ حقيقة كان يمكن أن تسعفه حضارات الشرق بقيم أصيلة وعقائد راسخة لا سيما وقد كان فى الشرق أديان أكثر إنسانا وأبعث على الايمان من أديان اليونان كالبوذية والزرادشتية فضلا عن اليهوديه ، ولكن العقلية الجديدة فى غمرة قلقها وسطحيتها أعرضت عما هو أصيل إلى ما هو مخدر ، يقول راسل : (من سوء حظ الاغريق أنهم حين تأثروا بالشرقيين أخذوا عن البابليين والكلدانيين بأكثر مما اقتبسوا عن اليهود أو الفرس أو البوذيين وقد كانوا أكثر روحانية) . فكان أن انتشر التنجيم البابلى حتى غلب على فكر الاغريق ، ولما كان التنجيم يتضمن الاعتقاد بامكان النبوءة بالمستقبل ، فقد ساد معه الاعتقاد بالجبر أو « بالقسمة والنصيب » فكان الناس فى جميع أنحاء العالم الهلينستى يعبدون « تيكى Tyche » إله البخت(1) إذ يعتقدون

* ثم بعد ذلك المصارعة فى الدولة الرومانية .

1 – B. Russell : History of Western philosophy p.

أن الحظ وحده هو الذى يلعب الدور الحاسم فى حياة الإنسان ، وأن قوة غيبية هى التى تتحكم فى مجريات الأمور * .

وانتشرت الخرافات والأوهام وما يصحبها عادة من تفاؤل وتطير ، فكان العدد سبعة مقدسا ، ثمة سبعة كواكب سيارة وسبعة أيام فى الأسبوع وسبع عجائب فى العالم وسبعة أعمار للانسان وسبع سماوات وسبع أبواب الجحيم ، واضحت عقيدة مسلما بها لدى الجميع أن النجوم آلهة تتصرف فى مصائر الأفراد والدول صغيرها وكبيرها ، وحتى خلق الانسان إنما يحدده الكوكب الذى ولد الإنسان فى مطلعه، فيكون مرحا إذا كان المشترى، نكدا إذا كان زحل (١) .

وانعكس الواقع على الفكر ، فكانت التيارات الفكرية إما معبرة عن واقع الحياة أو ردود أفعال لها ، فكانت القورينائية داعية إلى اللذة فى نهم ، وكانت الأبيقورية تدعو إليها فى غير اسراف ، بينما دعت الكلبية إلى الزهد والانسحاب من الحياة كما دعت الرواقية إلى فكرة الأخوة الإنسانية ، وبين هذه التيارات الفكرية المتعارضة من جهة وكتعبير عن سلبية المواطنين إزاء الحياة العامة وجدت اللا أدرية سعادة الإنسان فى الشك .

على أن الانحلال الخلقى كان أشد من الانهيار الفكرى ، إذ تفسد الأخلاق بأسرع مما تشيخ العقول ، لم لا وقد أصبحت المعابد تقوم بدور المصارف ، يختزن الكهنة الذهب ليقرضوا الناس بالفائدة ، وأصبح الإنسان السعيد هو الذى يمتلك ثروة ما دام عزوفا عن لعبة السياسة إلا إذا كان مغامراً ، ولا يجد

---

* وبعد احتلال الرومان لبلاد اليونان ساد الاعتقاد أنه لولا الحظ العاثر لما مات الاسكندر شابا لأصبح الرومان تابعين لليونان .

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة ج ٣ مجلد ٢ ص ٢٤ .

العالم مكانته إلا أن ابتغى الحظوة لدى أحد رجال الحكم ، ولا سبيل إلى الاعتداد بالعقل فى مجتمع يؤمن بالبخت والتنجيم ، ولا إلى منـــاصرة الحق بينما الغلبة معقودة للمراوغة والاحتيال ، يقول مناندر : لقد عرفت أناسا ليسوا بطبيعتهم خبثاء أو محتالين ، ولكن الحظ التعس هو الذى أكرههم على أن يكونوا كذلك ، هكذا كانت الشخصية الخلقية فى القرن الثالث قبل الميلاد إلا من رجال قليلين ، حتى بين هؤلاء القلة حل الخوف محل الرجاء ، وأصبح هدفهم أن يفروا من الكوارث لا أن يحققوا أى خير إيجابى (١) .

٤ — ايجابيات :

على أنه من الخطأ أن نظن أن العصر الهلينستى كان شراً كله ، فهو إن مثل انحدار الفكر الإغريقى فذلك لا يعنى انهياره التام ، وشيخوخة الفكر قد تنطوى على حكمة لا تعرفها الشباب وقد حل التسامح محل التعصب ، والأخوة العالمية محل الاستعلاء القومى ، وقد لزم عن ذلك أن أسهم فى الفكر الهلينستى أشخاص من أجناس مختلفة سواء فى مجال العلم أو الفلسفة * ، وأصبحت هناك مراكز فكرية خارج بلاد اليونان ، بل إن أهم هذه المراكز جميعا هى الاسكندرية ، وهكذا أصبحت مصادر الاشعاع الفكرى فى غير موطنها الأصلى ، ولم تكن هذه المراكز كما كانت المستعمرات الاغريقية على سواحل آسيا الصغرى أو صقلية أو غيرهما يدين المستعمرون بالولاء الروحى للوطن الأم ، وإنما أصبحت مراكز مستقلة تماما بعد أن فاق بعضها ما كان من علم وفكر فى أرض هيلاس .

---

1 — B. Russell : History of Western Philosophy pp. 250—251.
نقلا عن C. F. Angus : Cambridge Ancient History Vol VII p 231

* المؤسسون الثلاثة للرواقية : زينون وافلانيتوس وافريسيبوس أسيوبون (يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ص ٢٢٣ .

وإذ تحطمت الحدود بين المدن الاغريقية فقد جذبت أثينا مجموعة من الفلاسفة ليسوا أثينيين مثل ارسيسلاوس وكربيادس وغيرهما (١) .

وكان من مآثر الحضارة الهلينستية كذلك ـ أو بالأحرى من مآثر الوحدة ـ أن اتحدت اللهجات وأصبحت لغة اتيكا هى السائدة وهى التى أصبحت لغة الفكر والعلم فى أرجاء العالم الهلينستى .

على أن أهم إيجابيات تلك الحضارة كان فى مجال العلم إذ أن ما أنجزه الاغريق فى مجال العلوم الطبيعية والرياضيات فى هـــذه المرحلة كان خير ما أخرجوه فى تاريخهم .

واستقلت العلوم عن الفلسفة بل أصبح البحث العلمى يطاول الفكر الفلسفى إن لم يكن يفوقه ، إذ أصبح لعلماء هذا العصر من أمثال أرشميدس واقليدس من الأثر فى تراث الانسانية ما لا يقـــل عن أثر فلاسفة الرواق والأبيقوريين والشكاك .

ولقد كان استقلال العلوم انعكاسا لروح العصر ، إذ كان عصر التخصص الذى لم يكن كذلك فى المرحلة الكلاسيكية ، ليس فحسب لأن فلسفة أفلاطون أو أرسطو كانت تتضمن المباحث كلهـــا من الميتافيزيقا أو المعرفة أو النفس أو الأخلاق والسياسة ، وإنما لأنه حتى فى مجال الحياة العملية كان يستطيع المرء أن يتقن مجالات متعددة ، كان سقراط فيلسوفا وكان كفئا كجندى فى الحـــرب وكإدارى حين تولى رئاسة المجلس الشعبى وكمشرع حين انتقد بعض تشريعات أثينا ، وكان برتاغوراس كذلك ، يشيع الشك فى نفوس شباب الارستقراطيين ،

---

1 — Ency. of Philosophy Vol. 3 p. 467 Art : Hellenistic Thought by Francis Henry Sandbach.

ولكنه كان مشرعا لقوانين مدينة/ورى ، أما وقد حل القرن الثالث وانهار مجتمع المدينة الذى كان يقوم على الإكتفاء الذاتى ، وأصبح المجتمع أكثر تعقيداً ، فقد لزم أن يكون هناك تخصص ، كان فى الاسكندرية جنود وإداريون وعلماء فى الفيزياء وآخرون فى الرياضيات وفلاسفة ، ولكن لم يكن بينهم من يجمع هذه التخصصات جميعاً(١) .

ولا شك أن التخصص الذى أتاح إستقلال العلوم عن الفلسفة قد أدى إلى إزدهار هذه العلوم إزدهاراً ما كان يمكن أن تبلغه وهى فى أحضان الفلسفة .

وهكذا نجد ملامح الحضارة مترابطة متفاعلة متداخلة يمكن تلخيصها على النحو الآتى :

١ — فقدت الروح الإغريقية مقوماتها إذ تجاوزت حدودها بالغزو الذى أكرهها على غير طبعها ففقدت أصالتها وإنهارت قيمها ولم تسعفها الأوضاع الجديدة بقيم راسخة أصيلة مما أدى إلى إنحلال الأخلاق ، فنشأت مذاهب تعبر عن الحياة المادية السائدة وأخرى تعبر عن رد الفعل وثالثة تقف بين الصراع الجارى تكيفى القول ، بلا أدرى ، معبرة فى ذلك عن سلبية المواطن فى ظل الحكم المطلق .

٢ — إنهارت الحدود بين المدن فاتحدت اللهجات واللغات فى لغة واحدة مشتركة أصبحت لغة الثقافة والفكر فى العالم الهلينستى كله ، وإنهارت الحدود بين الدول فامتزجت الثقافات وأسهم الشرق والغرب فى حضارة عالمية مشتركة فبرزت عدة محاور أو مراكز فى آسيا كانطاكية وفى أفريقيه كالإسكندرية وفى أوربا كأثينا وردس .

---

(1) B. Russell ; History of Western philosophy ; p. 247

٣ — أنهار نظام دولة المدينة القائم على الإكتفاء الذاتى وعلى الفرد الذى يجهد كل شىء وعلى الفلسفة التى تحتضن كل مبحث وكل علم ليقوم نظام الدولة العالمية القائم على التعاون المتبادل الذى يفرض بدوره التخصص فى مجال العمل والتخصص فى مجال العلم ، فكان أن إستقلت العلوم عن الفلسفة وإنطلقت نحو غاية ما أمكن العقلية الإغريقيـــة أن تنجزه فى تاريخها كله .

الفصل الثانى

استسلام الفلسفة *

لم تصبح الفلسفة قبسامن نار - أو نور - تتقدم الباحثين
من الحقيقة ، وإنما أمست بمثابة « عربة إسعاف » تتبع
المتصارعين فى خضم الحيـــاة لتلتقط الضعفاء والمصابين.
(مناندر)
المؤلف المسرحى فى العصر الهلينستى

يقول ول ديورانت فى عبارة موجزة يصف فيها مسار الفلسفة اليونانية :
ثلاث نزعات إمتزجت فى الفلسفة اليونانية : النزعة الميتافيزيقية والنزعة الطبيعية (الفيزيقية) والنزعة الأخلاقية ، وصلت النزعة الميتافيزيقية إلى غايتها فى أفلاطون والفيزيقية فى أرسطو ، والأخلاقية فى زينون القيتورى .

وإنتهت النزعة الميتافيزيقية بشكاك بيرون والمجتمع المتأخر (الأكاديمية) ، وانتهى تطور النزعة الطبيعية بفصل العلم عن الفلسفة على أيدى أرشميـــدس وهيبارخوس ، وبقيت النزعة الأخلاقية حتى غلبت المسيحية على الأبيقورية والرواقية أو إندمجتا فيها (١) .

يتفق الباحثون فى تاريخ الفلسفة اليونانية على أن مباحث الفلسفة جميعا قد تراجعت الى الوراء لتحتل الأخلاق مكانة الصدارة ، ويقصر الاهتمام بالبحث

---

* إستخدم ول ديورانت هذا العنوان فى وصف الفلسفة فى هذا العصر وذلك فى الباب التاسع والعشرين من الجزء الثالث من المجلد الثانى .

(١) ول ديورانت وترجمة محمد بدران : قصة الحضارة الجزء الثالث من المجلد الثانى ص ١٩٩ .

الفلسفى الأخلاقى بانهيار الأخلاق ، ففى أزمنة انهيار الحضارات ، وحين تفقد التقاليد والقيم سيطرتها على الناس بسبب تفكك الحالة الإجتماعية ، وحين يسود القلق بسبب الحروب المتصلة بين ملوك العالم الهليستنى ، وحين تطغى القيم المادية على سلوك الأفراد فإن فلسفة الأخلاق تتصدى لتقدم للفرد طريقه إلى السعادة(١) حقيقة كان سقراط مهتما بالأخلاق ، ولكن فلسفة الأخلاق كانت لديه داخله فى إطار غاية الفلسفة أنذاك : البحث عن الحقيقة ، أما وقد شاخ الفكر وإفتقد الفلاسفة ذلك النوع من الإعتداد بالنفس أو الدجماطيقية فقد أصبحت الأخلاق محور الإهتمام ، يقول أبيقور : وظيفة الفلسفة الحقيقية ليست فى تفسير العالم لأن الجزء لا يستطيع أن يفسر الكل ، بل وظيفتها أن تهدينا إلى السعادة وأن ترشدنا إلى الحياة الخالصة من كل أنواع الجزع والإضطراب (٢) .

لم تصبح الفلسفة قبس النار أو النور تتقدم الباحثين عن الحقيقة، وإنما أصبحت أقرب إلى أن تكون « عربة إسعاف » تتبع فى خضم الصراع من أجل الحياة الضعفاء والجرحى (٣) .

على أن ذلك لا يعنى أن الفكر الفلسفى فى العصر الهلينستى قد أغفل تماما البحث فى مجالات الفلسفة الأخرى ، وإنما تملكه ما تتملك النفس فى شيخوختها من حنين إلى الماضى تمثل فى العودة إلى الكلاسيكية، فسلك زينون الرواقى سبيل هيرقليطس فى فكرة اللوجوس والنار المقدسة لروح الكون والإنسان ، وسلك ابيقور سبيل ديمقريطس فى القول بالذرات ، ولكن معين الأصالة كان قد نضب،

---

(1) Ency of philosophy : Hellenistic Thought Vol. 3 p. 467

(٢) ول ديورانت وترجمة محمد بدران : قصة الحضارة جـ ٣ مجلد ، ص ١٧١

(3) C.F. Angus : Cambridge Ancient History Vol. VII p. 231

والعبارة لماندر ، نقلا عن كتاب راسل ص ٢٠١

وفقد الفلاسفة أنفسهم الإهتمام بالبحث الميتافيزيقى النظرى ، ولم تسهم الرواقية فى المجال النظرى من تراث الإنسانية إلا القليل فى المنطق كما لم تسهم الابيقورية إلا اليسير فى الفلسفة الطبيعية ، أما أكاديمية أفلاطون فقد غلب عليها ما لم يكن أن يتصوره أفلاطون من ميل إلى الشك .

وقد سار التطور الأخلاقى وقتئذ فى إتجاهين متضادين : فسلكت الرواقية السبيل التى تزعمها هيرقليطس وسقراط وأنتساتس وديوجين بعد أن وسعت من نطاق الكلبية ، وتفرع الطريق الآخر من ديمقريطس ومال ميلا شديداً نحو أرستبوس وإجتذب القورينائية إلى الفلسفة الأبيقورية ، وجاءت النزعتان من آسيا ، وكانت كلتاهما تعويضا فلسفيا عن التدهور الدينى والسياسى ، فاشتقت الرواقية من إحدى العقائد السامية عقيدة وحدة الوجود ، وإشتقت الأبيقورية من طبيعة اليونان المستوطنين شواطىء آسيا وما فطروا عليه من حب اللذة(١)

ولكن المدرستين الأبيقورية والرواقية أتفقتا فى محاولة حل مشكلات الحياة للانسان ، إذ كان الناس فى حاجة إلى عزاء روحى بأشد من حاجتهم إلى غذاء فكرى ، ولقد أدركت المدرستان تلك الحاجة فاشتركتا فى القول : إنما يجد الإنسان العزاء فى نفسه لا فى شىء سواها .

١ — سلبية الابيقورية * : « فلسفة الاتراكسيا »

حدد أبيقور فلسفة مدرسته تحديداً حال دون تطورها من بعده — على عكس الرواقية التى تطورت كثيرا بعد زينون — ومن ثم نسبت اليه ، أخـــذ عن

---

(١) ول ديوارنت : قصة الحضارة ص ١٦٧ .

* نسبة الى أبيقورس (المتوفى عام ٢٧٠ ق م) ، يقال ان أمه كانت ساحرة تعزم فى المنازل للتطبيب والتطهير وكان يصحبها ، ويبدو أنه كان ناقما على حرفة أمه نقمة دفعته الى التمرد على السحر والخرافة (ص ٢٦٣ من كتاب راسل) .

أرستبوس حكمة اللذة ، وعن سقراط لذة الحكمة ، وعن بيرون الميل إلى « راحة البال » وأسماها اليونان القدماء « أتاراكسيا » *Ataraxia*.

لم تكن حديقته التي درس فيها في أثينا ملتقى طالبي الفلسفة، وإنما الناس جميعا على إختلاف مراكزهم وأجناسهم ، فيهم النساء والعبيد بل فيهم الأطفال كلهم طلاب نجاة ، يتحدث اليهم جميعا عن الصداقة ليجعل منهم مجتمعا أشبه بالأخوة التي تجمع المنتسبين إلى جماعة دينية ، إذ الصداقة عنده من أهم أسباب السعادة .

مكتوب على مدخل أكاديمية أفلاطون « لا تنال الفلسفة إلا بالرياضيات » ، ولكنه كتب على بوابة حديقته : أيها الزائر ، ستكون هنا سعيدا لأن السعادة هي الخير الأعظم » ، إذ الفلسفة في تعلمنا كيف نحيا سعداء وهذه لا تقتضي منطقا ولا رياضيات (١) ولا شيئا مما وصفه أفلاطون من عالم وراء عالمنا، لأنه لا يصح أن نشغل أنفسنا إلا بما تدركه حواسنا ، وهذه لا تطلعنا من عالمنا إلا بما ينبعث من موجوداته من قشور الذرات غاية في الدقة حتى تصادف الحواس فيحدث الإحساس * .

ولا يصح أن نشغل بالنا بالتفسيرات الطبيعية ، كل الأفكار التي تفسر تغير أوجه القمر أو كسوف الشمس سواء ** ، ما دامت لا تقحم في الأمر علة غير طبيعية أو منظورة ، لأن غاية العلم تخليص البشر من خوف الظواهر الجوية ومن الموت .

---

(1) B. Russell : History of Western philosophy p. 266

* سلبية الإبدان حتى في المدرنة .

** قد تكون علة الكسوف توسط القمر أو توسط جسم غير منظور ، أو انطفاء وقتي للشمس ولا حاجة لإيثار أحدهما على الآخر .

وليس فى الفلسفة من يقين إلا قضيتان : اللذة خير والألم شر ، على أن الذى يجعل الحياة سعيدة ليس هو الإنغماس فى الشهوات،إذ قد تؤدى هذه إلى عواقب وخيمة ، وإنما ذلك التفكير المادىء الرزين الذى يتوخى تحرر الجسم من الألم والنفس من الإنزعاج .

ولتحرر الجسم من الألم : كل قليلا حتى لا تصاب بسوء الهضم ، وإشرب قليلا خشية ما يصيبك فى صباح اليوم التالى ، ويكفيك الملبس العادى والمسكن البسيط ، لأن كل شىء بسيط يسهل الحصول عليه ، وأما عديم النفع كثير النفقة فهو ما يجر على الإنسان الهموم ، فإن أصابك الألم بعد ذلك فتحمله لأنه خفيف فإن إشتد عليك فهو قصير الأمد لأن معناه إقتراب الموت، ولا مبرر للخوف من الموت لأنه مجرد تفكك الذرات ، فإن تحللت الذرات فقد المرء الإحساس وقد اصبح فى حكم العدم .

ولتحرر النفس من الإنزعاج ، على المرء أن يتجنب كل ما يثير الإنفعالات العنيفة من حب أو زواج لما فى الزوجة والأولاد من مقامرة على مستقبل الإنسان : سعادة أم تعاسة،وعليه أن يتجنب طلب الصيت أو الإشتغال بالسياسة لأنها إن لم تجلب عليه الكوارث فانها ستثير عليه الأعداء ، ولا شىء يجنب المرء عداوة الآخرين مثل خفاء الذكر والبعد عن الشهرة .

ومن أهداف فلسفة « الأتراكسيا » — أو السعادة فى راحة البال — أن تحرر الإنسان من خوف الآلهة ، الآلهة موجودون حقا ولكنهم فى عوالم أو كواكب أخرى ، سعداء لا يشغلون أنفسهم بشئون البشر ، لم تخلق الآلهة العالم حتى ترشده وتسيره . إنها لا تستطيع أن تضركم أو تنفعكم أو أن تراقبكم أو

أن تتحكم فى مصائركم أو تقذف بكم إلى الجحيم ، أما الشياطين فأوهام نمسة خلقتها خيالاتنا (١) .

ولقد كان الخوف من الآلهة وعقوباتهم شديداً فى ذلك الوقت ، سواء من أساطير موروثة تصور الأقدار عابثة بمصائر البشر ، وربما حشدت هذه الأساطير فى العالم الآخر من حيوانات رهيبة ومن عذاب أليم ، أو من أديان سرية شرقية وجدت سبيلها إلى قلوب اليونانيين لتملأ الفراغ الذى أحدثه انهيار القيم وموت آلهة الاولمب وآلهة المدن . اراد أبيقور أن يرفع عن مريديه هذا الكابوس ، ولقد كان فى وسعه أن يكون كفيثاغورس أو سقراط أو أفلاطون ، ولكنه لم يفرق بين أديان ومذاهب تسمو بالنفس وتحررها من الخرافة وتقدم الأمن من خوف ، وبين أساطير وخرافات تجعل معتقديها أسرى الخوف والجهل ، ولقد كان أبيقور متناقضا مع نفسه ، ينكر الأديان ويختلف إلى المعابد ويشارك فى الشعائر ربما استرضاء العامه وتفاديا من الخصومة معهم (٢) وهو فيلسوف « الأتراكسيا » أو راحة البال .

هذا هو دواء « الأتراكسيا » قدمه أبيقور الى الذين حطمهم الصراع من أجل الحياة فى عصر انحلال حضارة وتساقط قيم وانهيار أخلاق .

ولم يضف تلاميذه وأتباعه * الى تعاليمه جديدا . ولقد بقى الإنطباع عن الأبيقورية كما تركها المعلم أنها « فلسفة اللذه المعتدلة » ، غير انها بسبب سيرة

(1) Ibid pp 267 - 270

(٢) يوسف كرم . تاريخ الفلسفة اليونانية ص ٢١٩

* من أشهر تلاميذه مترودوروس اللمبسكى ومن أشهر أتباعه لوكريتيوس المتوفى عام ٥٥ ق م

بعض المتقسمين اليها اصبح اللفظ يعنى فى معنى من معانيه الفسق او الفجور ، اما فى اوساط الدين وخاصة لدى احبار اليهود فقد اصبحت الأبيقـــورية تعنى المروق عن الدين .

٢ — جبرية الرواقية « فلسفة الاباليا »

كانت الرواقية هى فلسفة العالم الهلينستى ، وكل ما عداها من فلسفات يعد فى المرتبة الثانية(١) ، حقيقة لقد كانت فلسفة الأقليـة ، ومبادئها لا تسمح بغير ذلك ، ولكنها اكتسبت رضى الحكام والمحكومين ، الحكام منذ انتيجونس فى بلاد اليونان الى ماركوس أوروليوس فى روما ، وندر من بينها من لم ينسب نفسه اليها ، ومع ذلك لم يستغل فلاسفتها هذا الرضى السامى * ، والمحكومون لأنها من جهة قدمت مبادىء سامية اهمها فكرة اخوة الإنسان للانسان بصرف النظر عن اختلاف الأجناس ، وهى فكرة تلائم عالمية العصر الهلينستى وقد حققت اخلاقيا ما سعى الاسكندر الى تحقيقه سياسيا ، وهى من جهة أخرى سمحت للمعتقدات الشعبية وخاصة التنجيم ان يكون ضمن فلسفتها ، وان حاولت ان تقيم جسرا بين الخرافة والفلسفة بالتأويلات المجازية والتبريرات الفلسفية ، ثم هى بعد

---

(١) تارن : الحضارة الهلينستيه ص ٣٤٥ ويرى تارن أن مدرسة أرسطو قد فقدت الأهمية الكبرى التى كانت لها وخاصة بعد الخليفة الثانى سيراتون (الأول هو ثيوفراسطس) ويرجع ذلك الى أنها كانت كارسطو أجنبية عن أثينا ومعادية لآل أنتجونس، وأن الأكاديمية منذ أن أضحت مدرسة الشك مخالفة بذلك تماما مؤسسها أفلاطون قد عاشت على هامـــش الرواقية يعنى أنها كانت تصارع المذهب الرواق ، أما الأبيقورية فإن قدمت حلا لليـونانى كـفرد فانها لم تقدم له حلا بوصفه مواطنا .

* رغم صلة زينون بأنتجونس فقد كرمته الجمعية الاثينية وأقامت له تمثالا وأهدته تاجا وجاء فى مرسوم التكريم : لقد جعل حياته نموذجا وأسوة يحتذيها الجميع ، وذلك لأنه يتبع تعاليمه هو ويطبقها » تارن : فالحضارة الهليستينية ص ٣٥١ .

ذلك فلسفة متطورة تلاءمت مع مقتضيات تغير الظروف ، فلا يمكن القول ان خواطر ماركوس اوريليوس هى نفسها آراء زينون مؤسس المذهب ، ولو لم تكن فلسفة متطورة لما أمكنها أن تعيش بعد أن أغلقت المدارس الفلسفية اليونانية بأمر الإمبراطور جستنيان عام ٥٢٩ ، عاشت فى المسيحية ، وأفاد المفكرون المسيحيون من آرائها فى الفضائل والرذائل ، وفى صفات الله وفى العنايه الإلهية وتسربت بعض آرائها إلى بعض الفرق الإسلامية وخاصة إخوان الصفا فى أفكار وحدة الطبيعة وفى القدر والحرية والأخلاق والتنجيم ، وتأثر بمذهبها الأخلاق كل من ديكارت وسبينوزا وكانط (١) .

وربما أعان على إنتشار الرواقية عبر الحدود والعصور أنها لم تكن إغريقية خالصة سواء فى فلاسفتها أو فى فلسفتها ، كان مؤسسها فينيقيا وكان معظم رجالها الأوائل سوريين ومعظم الأواخر رومان ، وكانت فيها روح دينية استقتها من الشرق إذ كان الفكر الإغريقى فاقداً إياها بينما كان العـالم الهلينستى بما فى ذلك الإغريق فى أمس الحاجة اليها (٢) .

وإذا عدنا إلى مؤسسها زينون — حيث تلقى حياته أضواء على فلسفته — فقد كان فينيقيا من سيقيوم إحدى مدن قبرص ، وقد تعرضت ثروته من التجارة للضياع بسبب غرق السفينة فجلس يقرأ كتابا لاكسانوفان عن سقراط . ربما يعزى نفسه بذلك عن مصيبته — فافتتن به وبأخلاقه وبفلسفته وبخاصة رأيه فى أن سعادة الإنسان إنما تتوقف على الإرادة لا على الخيرات الخارجية ، وسيظل سقراط من بعدها المثل الأعلى للحكيم الرواقى ، وستظل فكرة السعادة التى تتوقف

---

(١) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ص ٢٣٢ طبعة سنة ١٩٤٦ .

(2) Russell : History of western Philosophy p.

على الارادة النفسيه المستقلة عن الخيرات الخارجية من أهم آراء الرواقيين ، وقد دعت هذه الفكرة أن تبع كراتيس الفيلسوف الكلبي وتتلمذ عليه * ، ولكنه تجاوز هذه الفلسفة الفردية الفوضوية إلى ما هو أرحب ، وقد أطلع على فلسفة هيرا قليطس فتأثر به سواء فى فكرته عن النار المقدسه التى هى روح العـــالم أو اللوجوس الذى هو قانون كلى أزلى يحكم ظواهر الكون ، أو فكرة الدورة الكبرى وتكرار خلق العالم وإحتراقه ، ولكنه ظل مدينا لسقراط أكثر من غيره ، أسس مدرسته الفلسفية ثم إستقر به المقام فى رواق فى أثينا ، يحضر دروســـه الفقراء والاغنياء عن تعدوا سن الشباب ** انى يراها غير صالحه لاستيعاب الفلسفة ، وقد تتلمذ عليه أنتيجونس الثانى وأضحى صديقا له وقد دعاه أن يصحبه فاعتذر له مفضلا التعليم فى « الرواق » ، وحين قامت الحرب بين أنتيجونس وأثينا ، كان زينون بفضل حكمته قد إكتسب احترام الطرفين (١) .

وكان من أهم تلاميذه أثنان أسيويان هما أقلانيتوس وكريسبوس ، وقد شكل ثلاثتهم الفلسفة الرواقيه فى صورتها اليونانيه .

نقتصر فى حديثنا عن الرواقية على ما يتصل منها بفلسفة الحضارة ، وذلك فى رأيى موضوعان الأول ميتافيزيقى والثانى أخلاقى .

لقد كان من العيوب الجوهريه فى الفلسفة الابيقورية أن ليس لاخلاقها العملية

---

* وحين إكتشف زينون فلسفته قال : لقدقت برحلة ناجحة موفقة حين تحطمت سفينتى ، وقد كان الكلبيون ومنهم كراتيس يحبون حياة الصعاليك فى الزهد والتقشف والتسول وعدم المبالاة لإغراء خيرات الدنيا أو همومها فلا نقود ولا ملكية ولا يتقيدون بشريعة أو تعاون

** كان رأيه فى الشباب أنه يكثر من اللغو والجدل إذ قال لأحدهم : لقد خلق الله لنا أذنين إثنين ولسانا واحدا كى ننصت كثيراً ونتكلم قليلا .

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة ج ٣ مجلد ٢ ص ١٨٠

أصول فلسفيه عميقة ، ولكن الأمر يختلف بالنسبة الرواقيه ، إذ كان كريسبوس يرى أن الفلسفة كالشجرة جذورها الميتافيزيقا وساقها الطبيعية وثمرتها الأخلاق ، أو أنها كالبيضة قشرتها المنطق وبياضها الطبيعه وصفارها الأخلاق ، لا يعنى الأمر مجرد وحدة بين فروع الفلسفة، وإنما يتعدى ذلك إلى تأصيل فلسفي عميق للأخلاق فهناك ارتباط وثيق بين نظريتهم فى العالم ونظرتهم إلى الانسان وهو أمر مفتقد فى الأخلاق الأبيقورية .

إنه إذا كان من له عقل خير عن ليس له عقل ، ولم يكن هناك خير من العالم إذ لم يكن فى الامكان أبدع مما كان ، فالعالم لا بد له عقل ، وإذا كان فى العالم كائنات حية عاقلة ، كان العالم فى إجماله كائنا ذا نفس عاقلة حكيمة ، هناك روح عاقله تسرى فى العالم وتكمن فيه كون النفس فى الجسم ، تدبر العالم على نحو حكيم ، اذ لا شيء فى العالم يقع مصادفة ، انه من السخف الأخذ بزعم أبيقور أن العالم بمجرد إلتقاء الذرات مصادفة وإتفاقا ، مثل ذلك كمثل من يزعم أننا لو ألقينا بالصدفة عددا هائلا من الحروف الأبجدية استطاعت هذه الحروف أن تقع مرتبة بحيث يتألف منها تاريخ اينيوس(١) ، كل شيء يهدف إلى غاية ، وماذلك الا لأن العالم الحى معقول تماما تسرى فيه نار مقدسة ، وقد وضعوا لهذه الروح العاقلة المقدسة التى تسرى فى العالم وتدبر كل شيء عدة أسماء هى الله أو العقل الكلى أو القدر أو الطبيعه أو العناية الالهية أو اللوغوس وكلها مسميات لشيء واحد ، وكل شيء انما يتم فى هذا العالم وفقا للضرورة العاقلة ، وكل ما يحدث انما هو مطابق للطبيعة الكلية .

على أن أهمية التفسيرات الميتافيزيقيه انما يكون بقدر صلتها بالأخلاق تماما

---

(١) د . عثمان أمين : الفلسفه الرواقية ص ١٥١ طبعة ١٩٤٥ .

كما أن قيمة الشجرة فيما تقدمه من ثمار .

واذا كان العالم يدبر كلياته وجزئياته عقل كلى بموجب ضرورة لا انفكاك عنها ، وكان الانسان كونا صغيرا فى هذا الكون الكبير فإن وظيفة الانسان أن يستكشف فى نفسه العقل الطبيعى ، وأن يترجم عنه بافعاله ، أى ان يحيى وفق الطبيعة والعقل ، بالعقل يدرك الانسان انه جزء من الطبيعة الكلية وان حياته متصلة بارادتها وانه تابع لها ، ومن ثم فعليه ان يخضع لها ، وان يدع ارادته لتكون متطابقة مع الارادة الكلية ، اذ ان كل شىء فى الكون انما يقع بالعقل الكلى او الارادة الالهية او القدر ، والحكيم هو الذى يقبل احكام القدر طوعا بينما الشرير من ينظر الى ارادته مستقلة عن القدر فيصرفها الى لذته او ما يوافق طبيعته جاعلا من نفسه مركز الوجود معارضا فى ذلك ارادة العقل الكلى باشباع من الخيرات الجزئية او المنافع (١) عاصيا بافعاله ارادة العقل الكلى فلا يناله فى ذلك الا الشقاء مثله كمثل كلب مقيد الى عربة يتبع يمينا ويسارا ولكنه مسير الى حيث تسير العربة (٢) ، فبما تمرد الشرير على القدر فلا جدوى من تمرده ، لأن جهوده للتخلص من الأقدار انما تسوقه حيثما ارادت الاقدار (٣) .

على انه اذا كانت فضيلة الحكيم الرواقى فى اعتقاده بجبرية الاراده الكلية وخضوعه لها وفى الحياة وفقا لارادة العقل الكلى ، الا يؤدى ذلك بالانسان الى الاستسلام للقدر والتواكل عن العمل ؟ كيف يكون الانسان مجبرا بينما تقوم الأخلاق على فكرة حرية الارادة ؟ ومن ناحية اخرى فإنه وفقا لمنطق الجبرية فان

---

(١) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ص ٢٣١ .

(٢) B. Russell : History of western philosophy

(٣) د. عثمان أمين : الفلسفة الرواقية ص ١٦٠ .

الشر من لوازم الوجود من أجل الخير ، فلم إذن لوم الشرير وإدانته بمعارضة الإرادة الكلية ؟

يرى الرواقيون أن القدر مغيب عنا ، ومن ثم فإن ذلك لن يحول بينه وبين العمل ، هذا إلى أن الجبرية هنا إنما تعنى أن لا سلطان للارادة الإنسانية على الأشياء الخارجية عنا ، وليست هذه هى التى تؤثر بذاتها فى وجداننا الباطنى سعادة أم شقاء ، وإنما المؤثر الحقيقى هو ما نطلقه من أحكام على هذه الأشياء فنصفها بالخير أو الشر ، فالسعادة الحقة فى تحرير الارادة من أوهام الأحكام ، يقول أبكتيوس : إن الذى يصيب الناس ويؤثر فى حياتهم ليست هى الأشياء نفسها بل آراؤهم عن الأشياء ، فلو كان سقراط يرى الموت شرا لوقع الرعب فى قلبه ، لكن سقراط لم يكن يرى الموت شرا فأقدم عليه غير مبال(١) .

يترتب على ذلك أن الجبرية لا تشكل قيدا على السلوك الانسانى ، وإنما يصبح للحرية مفهوم آخر ليس هو حرية الارادة وانما ارادة التحرر ، ولم يكن الرواقيون متواكلين باسم القدر ، بل أدوا دورهم فى المجتمع كاحسن ما يكون الاداء ، كانوا أقلية ولكنها حيثما وجدت كانت أنبل العناصر ، لم تثنهم جبريتهم عن أداء الواجب ، على العكس كانت دافعا لهم الى الواجب دون نظر للعواقب مادام الانسان لن يصيبه إلا ما هو مقدر عليه .

واذا كان الشر ضروريا لوجود الخير — وفقا لنظريتهم التى استقوها من هيرقليطس فى صراع الأضداد — فان ذلك لاينفى إدانة الشرير لتمرده على الإرادة الكلية اذ جعل من إرادته مركز الوجود .

---

(١) د. عثمان أمين : الفلسفة الرواقية ص ١٦٢

تبقى المشكلة الثانية المترتبة على انفعالات الانسان ازاء الأحداث الخارجية فيفرح ما يصيبه من خير أو يحزن لما يصيبه من شر ، اذ لما كانت الانفعالات النفسية تحول بين الانسان وبين السعادة كان تحقيق السعادة فى تحرر الانسان من هذه الانفعالات ، وليست هذه الانفعالات لازمة عن الأحداث الخارجية وانما قبولنا لهذه الإنفعالات هو الذى يحرم الإنسان من السعادة ،فليس حكمنا بأن موت الصديق مصيبة هو الذى يثير فينا إنفعال الحزن وإنما أذعاننا للحزن إزاء موت الصديق هو الذى يجلب على الإنسان الشقاء ،والإنفعال تصرف معارض للارادة الكلية ، فانفعال الحزن أو الأسف إنما يعنى أن شيئاقد حدث وكان يمكن ألا يحدث أو أن شيئالم يحدث وكان يمكن أن يحدث، أما الحكيم الرواقى فلا يحزن على مافات ولا يفرح بما هو آت ، ولا يأسف ولا يرجو ، لقد تجرد تماما من سلطان الانفعالات على نفسه لا يتأثر بشىء ، لا يحس ألما ولا يستشعر شجنا ولا يعرف هما ولا يساور قلبه وجل ولا أسف ولا رجاء ، هو الغنى من غير مال والملك من غير مملكة(١) ، وذلك لأنه لا يطلق على الحوادث الخارجية أحكاما تقويمية تعرضنا للانفعالات النفسية التى تحرمنا سعادتنا ، فلا يصح وصف الأشياء لا بالحسن ولا بالقبح ولا يجوز مدح الدهر ولا ذمه ، وإنما يقف إزاء الحوادث الخارجية كلها فى شىء من بلادة الحس غير مكترث ولا مبال .

على أن هذه الحالة من « الأباثيا » أو تحرر النفس من الانفعالات إزاء الحوادث الخارجية قد تبدو متعارضة مع الواجب الإجتماعى ، إذ كيف تدعو الرواقية إلى الأخوة الإنسانية وكيف ينشد الرواقى صداقة الصديق وهو لا يشاركه فى أفراحه وأحزانه ؟ إنه لا يتوانى عن أداء الواجب نحو صديقه ولكنه فى ذلك

---

(١) د. عثمان أمين : الفلسفة الرواقية ص ١٦٥

مجرد من مشاعر الود والمحبة كانفعالات نفسية ، إنه ينظر إلى المحبة كمبدأ عقلى لازم للأخوة الإنسانية(١) ولكنه لا يتقبلها كانفعال وجدانى يضطره إلى الأذعان فرحا أو حزنا تبعا لما يصيب الصديق من خير أو شر .

وهكذا نجد الأخلاق الرواقية فى غاية الدقة : إيمان بالجبرية لا يحول دون أداء الواجب ولا يلغى الحرية وإنما يضفى عليها مفهوما آخر هو تحررالنفس من سلطان الأشياء الخارجية ، سعادة لا تتوقف على الخيرات الخارجية وإنما على الإرادة ، إرادة لا تخضع للانفعالات وانما تسمو عليها من أجل تحقيق السعادة، وأخوة بين البشر غير قائمة على مشاركة وجدانية وإنما على مبدأ عقلى بحت لا لا يدع مجالا للانفعالات .

بقى بعد ذلك أن نذكرهم بالخير دعوتهم الى الاخوة بين البشر، اذ اعتبروا الانسانية أسرة واحدة أعضاؤها أفراد البشر جميعا أيا كانت جنسياتهم أو أوطانهم أو أديانهم ، وقد أقاموا هذه الدعوة الأخلاقية على أسس فلسفية ، اذ لما كان العالم يسير وفقا لقانون العقل الكلى ،والإنسان جزء من الكون فقد وجب أن يسير العقل الإنسانى بمقتضى قانون العالم الأكبر ، واذا كان هناك عالم واحد ينظمه عقل واحد ويشكل نظاما واحدا فإن الأرض كلها وطن للانسان،والناس قد يتفاوتون فيما بينهم ولكن كما يتفاوت الجالسون على مقاعد فى المسرح ، ولكنهم متفقون فى طبيعة أساسية واحدة هى العقل الذى يشارك فيه الناس جميعاً ، اذ التفاوت مخالف لقانون الطبيعة ، يقول سنكا : لا انسان أنبل من غيره حتى لو قدر على تحصيل علم أرفع ، العالم أمنا جميعا واليه مرجعنا ، الفضيلة ليست محرمة على احد بل الكل يستطيع ان يبلغها ، اذ انها تسمح للجميع بممارستها وتدعو لدخول

1 — B. Russell : History of Western philosophy

الأحرار والموالى والعبيد والملوك . الفضيلة لا تنظر إلى المولد أو الثروة ولكن ما يهمها هو الإنسان .

من الخطأ الإعتقاد أن وضع العبد يؤثر فى طبيعته ، فإن الجانب الأنبل فيه يظل مصونا عن التأثر بهذا الوضع ، كل فرد حتى لو لم يكن ثمة ما يزكيه يجب على أن أحترمه لأنه يحمل إسم الإنسان(١) .

هكذا إستطاع الرواقيون أن ينجزوا بالفلسفة ما عجز الإسكندر عن أن ينجزه بالحرب ، على أنهم لم يقصدوا بذلك هدفا سياسيا وإنما إقامة مجتمع تحل فيه الوحدة العقلية محل الوحدة السياسية ، وقد إستطاعت هذه الأفكار السامية أن تؤثر على التشريعات الرومانية وإن كان ذلك إلى حد محدود ، إذ بقى نظـــام الرق وحلبات المصارعين وصراع الوحوش *

على أن ذلك لا يحول دون الحكم على الرواقية بأنها كانت فلسفة نبيلة . وانها تمثل آخر جهد العقلية الإغريقية من أجل إيجاد نظام أخلاقى بعد أن تهاوت القيم القديمة ، حقيقة لقد كانت فلسفة الأقلية ، ولكن هذه الأقلية أينما وجدت كانت خير العناصر ، لقـــد خلقت رجالا لا يتوانون عن أداء الواجب ولا يخافون فى قول الحق لومه لائم ، جمعت بين العبد أبكتيوس والإمبراطـور ماركوس أوروليوس ، ولقد إستطاعت الرواقية أن تربط بين الدين والفلسفة ، وهى وإن سمحت بالخرافات فإنها حاولت أن تضفى عليها مسحة عقلانية بالتأويلات المجازية ، ولقد إنتشلت الإغريق من الضياع بعد أن إنهارت القيم ، وأمسكت

---

(١) البرت شفتيسر وترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوى : فلسفة الحضارة ص

* غاية ما فعله الامبراطور الرواقى ماركوس أوريوس أنه زود مصارعى الوحـــوش بأسلحة بعد أن كان يلقى بهم طعمة لها .

بالمجتمع ومهدت السبيل للمسيحية بما إعتنقته من ضرورة الدين ومن دعوة إلى التسامح والبساطة وضبط النفس ، وبما أعلنته من عقل كلي أو لوجوس تمثل بعد ذلك وتجسد فى فكرة « الكلمة » أو شخصية المسيح .

٣ - « لا أدرية » الشكاك : « فلسفة تعليق الحكم »

يقول واسل : كل الفلسفات التى جاءت بعد أرسطو تعبر بصورة أو بأخرى عن الإنسحاب ، العالم سىء إذن دعنا ننسحب منه ، خيرات الحياة تأتى نتيجة البخت لا نتيجة جهد بشرى ، فليس أضمن من خيرات النفس أو الفضيلة التى تتوقف علينا كما هو حال الرواقية ، مذاهب فلسفية تمثل الاحتجاج ضد الشر وتجد استجابة من المكدودين حيث قضت خيبة الأمل على حماسهم فى العمل(١)

وإذا كانت فلسفتا الابيقورية والرواقية قد أدركتا حاجة النفوس إلى ما يسرى عنها فاشتركتا فى القول بأن الإنسان يجد العزاء فى نفسه لا فى شىء خارجها ، فإن شكاك العصر الهلينستى قد حملوا شعار « لا شىء يهم » إذ أن اللامبالاة أو عدم الاكتراث هى أفضل ما ينبغى بالنسبة للنفس المرهقة والذهن المكدود ، هكذا قدمت مدرسة الشكاك نفسها كسائر المذاهب الفلسفية فى ذلك العصر على أنها دواء لعلاج النفوس المحطمة والعقول المرهقة .

ولقد كان شك السوفسطائيين معبرا عن فترة المراهقة فى الحضارة الإغريقيه ، حيث تتميز المراهقة بالفورة والعنف والتحدى ، ولكننا فى العصر الهليستى بإزاء شك من فقد الاهتمام بأى شىء أو التحمس لأى شىء إذ المستقبل غامض مجهول .

يقول يوسف كرم : إننا بإزاء شك جديد له أسبابه ومميزاته ، فقد إزداد

---

1 — B. Russell : History of western philosophy p. 255

عدد المذاهب واشتد تعارضها ، وفتح الاسكندر بلاداً رأى فيها اليونان ألوانا من العادات والأخلاق ، ولما قضى وتمزق ملكه وراح اليونان يتقاتلون ،كان من جراء اصطدامهم السياسي تخاذل الهمم ، وتعاظم حاجة العقـــلاء للراحة فقامت مدارس توجهت إلى طلب الطمأنينة والسعادة أولا وقبل كل شيء وكانت منها المدرسة الشكية ، لم يكن الشاك فى هذا الدور متهكما كالسوفسطائى ، ولكنه رجل مغلوب على أمره ، فقد الإيمان بالحق والخير فى بيئة تبلبلت فيها الأفكار وفسدت الأخلاق إلى حد بعيد ، فانعزل فى نفسه لا يوجب ولا ينفى ، وإنما يقـول : لا أدرى ، لم يكن كالسوفسطائى مزهوا بفنه طالبا المال، ولكنه كان متشائما معرضا عن متاع الدنيا ، لم يكن هداما مثله ولكنه كان يرى فى الاخلاد إلى التقاليـــد والعقائد الشعبية وسيلة إلى الراحة والاطمئنان(١)

نتخير من الشكاك شخصيات ثلاثة هم بيرون وأركسيلاوس وكرنيادس:

أما بيرون (المتوفى عام ٢٧٥ ق م) فقد رافق الاسكندر فى حملته،وأعجب بحكماء الهنود العراة الذين لم يكونوا يعبأون بشيء فى الحياة، وبعد وفاة الاسكندر عاد إلى وطنه حيث صادفت آراؤه رضى من مواطنيه فكان موضع إجلالهم . ذهب إلى أن كل قضية تحتمل الايجاب والسلب بقوة متعادلة،ومن ثم فقد وجب العدول عن الحكم والامتناع عن الجدل ، والوقوف عند ظواهر الأشياء التى لا يتعرض لها الشك ، وإنما يكون الشك فى القدرة على معرفة حقيقة الأشياء ، إن العسل يبدو مذاقه حلوا ولكنا لا نعرف حقيقته ، ليس هناك خير وشر بالذات، وكل ما هناك عرف واصطلاح يسير عليها الناس،الشيء الواحد تارة يكون خيرا وتارة شراً ، وكل شيء فهو زائل ، الخير والشر على السواء ، والناس يخطئـون

---

(١) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ص ٢٣٤ .

إذ يتوهمون سعادتهم وشقاءهم فى الأشياء أنفسها ، ويعتمدون عليها كأنها باقية، أما إذا إقتنعوا بأن الأشياء زائلة والأحوال متقلبة أتتنى تصديقهم بها وانعدم ميلهم اليها أو جزعهم منها ونعما بالطمأنينة والسعادة مهما كانت الظروف .

هكذا كان الشك عنده خلقيا أكثر منه منطقيا ، كان موجها لقيمة الأشياء من حيث صلتها بالسعادة لا من حيث صلتها ببحث المعرفة(١)

وإنتقل الشك إلى مدرسة فلسفية كان يظن أنها أبعد المدارس الفلسفية عن الشك وهى أكاديمية أفلاطون ، ولكننا إذا رجعنا إلى سقراط — الشخصية الرئيسية فى محاورات أفلاطون فإن تصنعه عدم معرفة شىء وإن كان يبدو تهكميا إلا أنه فى بعض محاوراته لم يكن ينهى الحوار فصلا إلى شىء ، وهكذا حملت أكاديمية أفلاطون بذور الشك التى ظلت كامنة فيها إلى أن ظهرت حين أتيحت لها الظروف الملائمة فى العصر الهلينستى على يدى أركسيلاوس (ت ٢٤١ ق. م) والذى كان يقلد سقراط فى مناقشاته واصطناع الجهل ويستخدم تعبيرات الظن مثل : من المحتمل — يلوح أن . .

ذهب أركسيلاوس إلى أنه ليست لدينا وسيلة التمييز بين الأفكار الحقيقية وغير الحقيقية إذ أن كثيراً من التصورات كأخطاء الحواس وأوهام السكر والجنون وهذيان المحمومين وأحلام النائمين تبدو قوية بينما هى ليست حادثة عن شىء ، ومن ثم فان الحكمة فى تعليق الحكم على الشىء فى ذاته ، وتبقى الآراء التى تبدو معقولة أو الأفعال التى تبدو مستقيمة دون أن يعنى ذلك أنها تطابق حقيقة ما فى ذاتها .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٣٤ — ٢٣٥

ومن زعماء الأكاديمية كرينادس (ت ١٢٨ ق م)، وقد أوفده الإثينيون إلى روما للدفاع عن مدينتهم — وكانت روما حكما بين المدن اليونانية بعد فتح بلاد اليونان — وكان معه سفيران أحدهما مشائي والآخر رواقي، فكان لخطبهما تأثير كبير على المجلس، أما هو فقد خطب فى اليوم الأول فى العدالة مستعينا بحجج أفلاطون وأرسطو فى ذلك حتى أثار الإعجاب، وفى اليوم التالى خطب مفندا ما قاله فى اليوم السابق زاعما أن العدالة لا تصلح للعلاقات بين الدول ولا فى أوقات الحروب أو الصراع بين الأفراد وإنما يكون الحكم فى ذلك للقوة، وأن لو طبقت العدالة لما أصبحت روما مسيطرة على بلاد اليونان ولا غيرها، فاعجب الناس بخطبته الثانية أشد من إعجابهم بخطبته الأولى ولكن السلطة خافت من طريقته فطلبت اليه أن يبرح المدينة.

قدم كرنيادس إنتقادات على الحواس والعقل والعرف كمصادر للمعرفة، وقد أثار فى ذلك أشكالات عجزت المذاهب فى عصره على الرد عليه، ذهب إلى القول بالترجيح وحدد عدة قرائن تؤدى إلى ترجيح قول عن قول، ذلك أن القضايا المتعارضة ليست سواء ولكنها تتفاوت درجات، فاذا بدت التصورات واضحة وتجمعت الدلائل على رجحان صدقها دون أن نجزم بذلك أو تدعى العلم بالشيء فى ذاته أمكن الإستناد اليها.

هذا وقد إتخذ الشك منهجا جدليا لدى كل من أناسيداموس وأجريبا إذ إستفادا من نظريات السابقين وإنتقادات الفلاسفة بعضهم لبعض حتى أصبح الشك لديهم مذهبا، إنتقد الشكاك المعرفة الحسية والمعرفة العقلية وإستندوا إلى تعارض الفلاسفة ونسبية الأحكام، وإنتقد سكتوس أمبريقوس كلا من القياس والإستقراء وقد قصدوا بذلك أن يتبنى الفلاسفة موقف الرجل العادى وأن يؤمنوا إيمان

العوام فى الخضوع لعقائد الشائعة وأن لا يصـدروا أحكاما جازمة قاطعة وإنما يكتفى بالمعارف العامة .

وإذا كان الشك الصادر عن خمول الذهن وشيخوخة الفكر قد مكنت لضعف المعتقدات فانه لم يستطيع البقاء حين لاحت فى الأفق ديانة عالمية تقوم على الإيمان الراسخ ألا وهى المسيحية .

تعقيب على فلسفة العصر الهلينستى :

يقول شبنجلر : ليست هناك فلسفة فى ذاتها ، وإنما لكل حضارة فلسفتهـــا الخاصة، وهذه العبارة تصدق تماما على فلسفة العصر الهلينستى ، لقد تراجعت فيها الميتافيزيقا ، وتصدت فلسفة الأخلاق ، وهى فلسفة بدورهـا ذات طابع يلائم ذلك العصر ، لأنه على حد تعبير شبنجلر هناك أخلاقيات بقـــدر ما هنـاك من حضارات ، تراجعت الميتافيزيقا التى كانت سيدة الأمس لتصبح وصيفة اليـوم ، فى خدمة الأخلاق ، وذلك واضح فى الفلسفة الرواقية .

فى كل ما عرضنا له كنا نؤكد على تلك الصلة الوثيقة بين المـذاهب الفلسفيـة وبين حضارة ذلك العصر ، وكيف أن الأولى وليدة الثانية ، ولـكن شيئا آخـر ينبغى التأكيد عليه ، هو أن الروح الشرقية بدأت تزحف على هذه المـــدارس الفكرية حتى بدت الملامح الإغريقية فى بعض هذه المدارس شاحبة ، يتضح ذلك فى أهم هذه المدارس وهى الرواقية ، ليس فحسب لأنها قبلت الاعتقـاد بالتنجيم أو غيره من المعتقدات الشرقية ، وليس ذلك مجرد تعبير عن النزعـة التلفيقية أو الإنتقائية حيث المزج بين الثقافات وذلك هو طابع ذلك العصر ، وإنمـا أصبح الأمر أخطر من ذلك ، إذ كان ذلك إرهاصا بغزو فكرى من الشرق إلى الغرب والذى بلغ مداه فى اعتناق الغرب لديانة شرقية هى المسيحية، بل إنه يمكن القول

أنه لولا ملامح إغريقية خالصة فى الفلسفة الرواقية كالطابع المادى فى تفسيرها الطبيعة وحتى لموضوعات ما بعد الطبيعة لبدت الرواقية فلسفة شرقية أكثر منها غربية أو يونانية .

وكان لا بد أن يتأهل الغرب فكريا ووجدانيا لإستقبال هذه النسمة الروحانية القادمة اليه من الشرق حتى يحسن إستقبالها ، ولم يكن ذلك على الغرب أمراً هيناء ولكنه كان أمراً مقضيا ، ولعبت فلسفة أفلوطين (ت ٢٧٠ ق. م) الدور الهام فى إقامة ذلك الجسر الفكرى بين الشرق والغرب ذهابا وإيابا ، وحقيقة إن أفلوطين متأخر عن القرون الثلاثة التى عرفت باسم العصر الهلينستى ، ولكنه يمثل الحلقة النهائية فى الفلسفة الإغريقية ، وحقيقة إن أفلوطين قد ولد فى مصر وتعلم فى الإسكندرية ولكنه درس فى روما ، وبذلك كان بفكره همزة وصل بين الشرق والغرب * ، لم يؤهل أفلوطين فكر الرومان لاستقبال النسمة الآتية من الشرق ممثلة فى المسيحية بتلك الروحانية البادية فى فلسفته والتى تعد شيئا غريبا على الروح الإغريقية فحسب ، ولكنه استجمع فى فلسفته كل العناصر الروحانية فى الفلسفة الإغريقية كى تكون فى إستقبال العقيدة الجديدة ، ومن ثم كان أفلاطون هـــو الفيلسوف الأثير لديه ، بل لقد انتزع من أفلاطون النظريات الملائمة فى هذا المجال كنظرية المثل ومحاورة تيمون وفكرة الحب فى المأدبة ، أما إهتمامات أفلاطون السياسية وولعه بالرياضيات وتدقيقاته فى تعريفات الفضائل فقد أزاحها جانبا فلا نجد لها أثرا فى التاسوعات(١)

---

* وقد أراد أن يدرس العقائد الشرقية وخاصة الفارسية والهندية فالتحق بالجيـــش الرومانى فى حملته ، وحين هزم الجيش الرومانى فى العراق ، رحل أفلوطين إلى أنطاكية ومنها إلى روما وكان ذلك فى سن الأربعين .

1 — B. Russell : History of western philosophy

وإذا كان أفلوطين يمثل الدور الأخير فى الفلسفة الإغريقية مسلما قيادتها إلى حضارة جديدة فهو كذلك يمثل الدور الأول فى كل من الفلسفتين المسيحية والإسلامية ، كان نقطة البدء فى الفلسفة المسيحية وكان أكثر الفلاسفة تأثيرا فى فلاسفة الإسلام ، وهكذا لعبت فلسفة أفلوطين دوراً مزدوجا تارة حين أعدت الفكر الغربى لإستقبال عقيدة شرقية بعد طول عناد واضطهاد ، وتارة حين قدم الشرقيين وخاصة الاسلاميين الصورة التى تحجبهم عن الفكر الاغريقى بصرف النظر عن كونها صورة غير مطابقة لحقيقة فكر اليونان وفلسفتهم ، ولكن ذلك ليس ذنب الإغريق .

وهكذا كانت فلسفة أفلوطين تمثل همزة الوصل بين نهاية حضارة وبداية حضارة ، كانت من جهة تمثل شيخوخة الفكر الإغريقى ، فيها حديث عن العالم الآخر ، وإذا كانت المدارس الرواقية والأبيقورية والشكية قد قدمت ألوانا من العلاج لعقول مكدودة ونفوس مرهقة فإن مدرسة أفلوطين لم تنح الميتافيزيقا جانبا كما فعلت تلك المدارس ولكنها قدمت العلاج فى صورة ميتافيزيقا جديدة تعد الإنسان فيها الأجل المحتوم بحديثها عن الجذب والإتصال والخلاص من العالم الأرضى ، فكانت بذلك نذير نهاية حضارة الإغريق .

ولكنها من جهة أخرى وكما أسلفنا قد قدمت للعالم المسيحى والإسلامى الفلسفة الاغريقية فى صورة روحانية تلائم تماما الفكر الدينى سواء فى صورته المسيحية أو الاسلامية ، فكانت بذلك أهم معلم من معالم التراث اليونانى فى الحضارتين المسيحية والاسلامية .

الفصل الثالث

الإسكندرية

عاصمة الفكر .. متحف ومكتبة .. أقليدس وأرشميدس
فنار من عجائب الدنيا السبع .. مدينة القوة والثروة
إنه لأمر غريب عجيب ذلك التناقض بين روعة
الفن المعماري في تخطيط المدن وبين ضياع حرية الشعوب
وانحلال الأخلاق .

مفورد

١ ـ المدينة والمجتمع :

كانت الإسكندرية أهم مدن العالم الهلينستي لا تنازعها في هذه المكانة مدينة أخرى ، كانت نقطة التقاء بين عالمين مختلفين : أحدهما شرقي في نظمه ومعتقداته وقيمه ونظرته للحياة والآخر غربي يوناني في حكامه ولغته وفكره وأسلوب حياته ، أسسها الاسكندر لأغراض عسكرية وإقتصادية وربما حضارية ، ولكن الفضل يرجع إلى الأول والثاني من البطالمة إذ أصبحت أكبر مدينة إغريقية *

---

* كان بها شارعان رئيسيان طولا — أحدهما شارع كانوب (طريق الحرية الآن) يبلغ طوله ٣ أميال وعرضه ١٠٠ قدم ، وتم وصل المدينة بجزيرة فاروس بجسر يسمى هبتستديوم لأن طوله سبعة ستديومات (الاستديوم ٦٠٠ قدم تقريبا) إلى شرق الجزيرة أقيم أشهر فنار في العالم ، بالمدينة أربعة أحياء ، وكانت كل جالية تسكن في حي مستقل كأنها عدة مدن في مدينة واحدة ، وأهم الجاليات اليهود والفرس والعرب والزنوج عدا الإغريق والمصريين وأهم الأحياء ما أقيم فيه القصر الملكي والمتحف والمكتبة ومقابر البطالمة وضريح الاسكندر فيها حدائق عامة وملعب رياضي وعلى الشاطىء مقاصير للاستحمام والاصطياف ، بلغ عدد سكانها ما يقرب من نصف مليون نسمة خمسهم من اليهود .

فى العالم ، وقد فاقت فى إتساعها أكبر المدن القديمة كاثينا وكورنثه وسيراكوزه وتصدرت المدن طوال القرنين الثالث والثانى قبل الميلاد حتى أصبحت حضارة هذين القرنين هى حضارة مدينة الاسكندرية .

مكن لهذه الحضارة التقاء العقلية الاغريقية بالأساليب المصرية فى الحكم ، إذ أتاح البطالمة اليونانيين فرصا إقتصاديه لم تتح لهم من قبل ويسروا لهم سبل الحياة الفكرية بما لا عهد لهم به فى ظل نظام حكم مركزى مطلق صارم أغفل فكرة المساواة وحكم البلاد كما تحكم البلاد المفتوحة ، فشهد الاغريق ترفا لم يعهدوه من قبل ، على أن هذا الرخاء الاقتصادى كان على حساب المحكومين الذين كانت الضرائب تجبى منهم على كل شىء ، على الرؤوس وعلى البضائع وعلى كل ما ينتجه البر والبحر ، فكان ما جمعه البطالمة من ثروات أكبر مما جمعته دولة بين سقوط فارس ومجد رومه ، وظهرت آثار ذلك كله على الاسكندرية التى كانت كانها قد سلخت من مصر * إذ أنها عرفت بطابع من الحضارة يختلف تماما عما كانت عليه سائر مدن مصر ، إزدهرت فيها الحضارة التى يمكن أن تزدهر بفضل قوة الدولة وغابت عنها مظاهر الحضارة التى تغيب فى ظل الحكم المطلق ، عرفت الاسكندرية حياة الترف والبذخ وعظمة المبانى وحسن تخطيط الشوارع ، وإزدهرت الزراعة والصناعة إزدهار إستنزاف لا إزدهار رخاء طبيعى ، ومـع الترف المسرف تضيع الأخلاق ومع الحكم المطلق تفتقد الحرية ، ومع إستغلال الحكام يتذمر الفلاحون ويضرب العمال فى المناجم والمحاجر ، وتنضب موارد الدولة التى إستنزفت فى حياة الترف وفى الحروب التى يشنها الحكام حتى أمسى المستغلون فى

---

* وكان مؤرخو اليونان والرمان يسمونها الاسكندرية المجاورة لمصر .

أواخر عصر البطالمة ولم يبق شيء يستغلونه ، إذ اغتصبت مــوارد الدولة وبدأ الانحلال يدب فى كل شىء .

وكعادة الحكومات الغاشمة التى تمتلك كل شىء وتهيمن على كل شىء بما فى ذلك حياة الناس وحرياتهم لجأت إلى أساليب القمليـة تلهى بها الرعيـة ، كأن الناس فى أفراحهم عليهم أن يفرحوا حين تريد لهم الدولة ذلك وعلى النحو الذى تحدده ، وعلينا أن نقارن بين أن يتسلى الناس بمشاهدة السيرك والمهرجين حيث تهدر آدمية اللاعبين واحترامهم لذاتهم وبين الالعاب الاولمبية فى العصر الكلاسيكى التى كانت مناسبة كى يتنافس أصحاب المواهب لابراز مواهبهم وإظهار نبوغهم.

على أنه إن أفلح الحكام فى أن يتحكموا فى رقاب الناس وفى أرزاقهم ، فانهـم عادة يخفقون فى أن يفرضوا على الناس معتقداتهم وأديانهم ، فلم يفلح البطالمة فى أن يوحدوا بين زيوس وسيرابيس ، لان الأديان لا تفـرض من فوق ، ولأن أديان اليونان لم تبلغ فى سموها وقداستهـا ما كان عليـه دين المصريين ، ومن ثم فقد انتهى الأمر إلى أن عبد اليونان آلهة المصريين ، وإعتنق البطالمة دينهـــم ومارسوا طقوسهم *

٢ ـ المتحف والمكتبة :

على أن العلم غير الدين ، إذ قد يعلو العلم ويزدهر بالحاكم ان كان مستنيرا ، كذلك كان بطليموس الأول والثانى ، اذ شيد بطليموس الأول أو سوتير —

---

* يقول ول ديورانت : أضحى أوزوريس فى صورة سيرابيس هو الاله المحبب للمصريين واستعادت ايزيس مكانها بوصفها إلهة النساء والأمومة ، ولما دخلت المسيحية مصر لم يجـد الشعب ما يحول بينهم وبين استبدال مريم بإيزيس أو المسيح بسيرابيس ـ قصـة الحضـارة مجلد ٢ ج٣ ص ٧٩ .

ومعناها المنقذ ـ داراً للدراسة والعلم وقد ألحق به معبد لربات الفنون Mouseion فكان بذلك أول منشأة علمية حكومية فى العالم الاغريقى ، وكان المتحف مقراً للعلماء والباحثين وملتقى للمفكرين من كل فج ، وقد كلف ديمتريوس الفاليرونى بالاشراف على المتحف ، وقد كان هذا تلميذاً لثيوفراطس الذى كان خليفة أرسطو فى رئاسة الوقيون . وكان المتحف يشبه جامعاتنا من حيث تمويلـــه الدولة فى ميزانيته والاشراف عليه ، ويشابه مدارس أثينا الفلسفية فى طريقة الدراسة الحرة والمناقشة .

وقد ألحق بالمتحف مكتبة ضخمة ضمت مائتى ألف مخطوط أو سبعمائة ألف لفافة من ورق البردى ، ويرجع ذلك الى أن بطليموس الثالث قد أمر بأنه يودع فى المكتبة كل كتاب يصل الى الاسكندرية ، وأن تنسخ منه صور تعطى واحدة منها لصاحبها وتحتفظ المكتبة بالأصل ، وقد اقتضى هذا أن يعمل بالمكتبة عدد كبير من النساخ يعملون تحت اشراف علماء بعضهم يخرج الناس طبعـــات من الكتب القيمة ، وبعضهم يكتب تعليقات وشروح على النصوص ،ومما يدل على أهمية المكتبة أن أصبح منصب أمين المكتبة من أكبر مناصب الدولة اذ أصبح من اختصاصاته أن يكون معلما لولى العهد(١) ، وبعد بناء معبد السرابيوم ألحقت به مكتبة أخرى فأصبحت بالاسكندرية مكتبتان هامتان تحويان معظم تراث الانسانية اذ شملت كتبا أخرى غير اليونانية مثل المصرية والعـــبرية والفينيقية (٢) ، ولم ينقض القرن الثالث حتى أضحت الاسكندرية بفضل متحفها ومكتبتها وعلمائهـــا العاصمة الفكرية للعالم الاغريقى فى كل فرع من فروع الأدب والعلم ، اذ وفـد

---

(١) ول ديورانت وترجمة محمد بدران : قصة الحضارة مجلد ٢ ج ٣ ص ٩١ .

(٢) د . مصطفى العبـادى : مصر من الاســكندر الأكبر الى الفتـح العربى طبعـة ١٩٧٩ ص ١٤٤ .

اليها الشعراء والعلماء إما للدراسة والمناقشة أو للافادة من المكتبة ، فى مجال الأدب اجتمع فيها شعراء من أمثال كاليماخس وثيوكريتوس وابولونيـــوس الرودسي وقامت بينهم معارك أدبية ونقدية حول القديم والجديد ، واتخذ الأدب الاغريقى آنذاك اسم الأدب السكندرى ، ومن أهم منجزات العصر الأدبية تهذيب الالياذة والاوديسة حتى وصلت الى النص الذى أصبح معتمدا حتى الآن ، ووضعت شروح عليها .

كذلك ازدهر العلم فى ظل المتحف والمكتبة ، فبلغ العلم الرياضى أوج مابلغته العقلية الاغريقية على يدى اقليدس فى الاسكندرية .وزار أرشميدس الاسكندريه وأفاد من علمائها ، فما من أحد من كبار علماء هذا العصر الا وقد أفاد من عـــلم الاسكندرية الممثل فى مكتبتها ومتحفها .

على أن التخصص الأصيل للمتحف كان فى بحوث علم الحيوان بوجه عام — وهى البحوث التى اهتم بها ثيوفراسطس بعد أرسطو — وفى الطب بوجه خاص وقد ظهرت فى الطب ثلاثة اتجاهات :

١ — دراسة الطب على نحو علمى بحت وفقا لنهج ابقراط .

٢ — اهتمام بالنواحى التجريبية وبطرق العلاج والشفاء .

٣ — تأثر الطب ببعض الأفكار الفلسفية ، وهو اتجاه قديم يرجـــع إلى فيثاغورس الذى أقام الطب على أساس فكرة التوازن ، ثم تجدد هذا الاتجاه فى ضوء الفلسفة الرواقية التى ترجع الى مبدأ الروح Pneuma ، فاذاكان العقل الكلى يسرى فى العالم فيمنحه الحركة والحياة والنظام فان الروح وهى مظهر منه تسرى فى البدن وتحقق الوحدة بين أجزائه ، وقد بلغ اتجاه خلط الطب بالفلسفة ذروته لدى جالينوس ، من أشهر الأسماء فى مدرسة الاسكندرية وربما أبعدهم أثرا سواء

لدى الاسلاميين أو الغربيين فى هذا المجال الذى جمع بين العلم والفلسفة والدين ، هذا الجمع بين مظاهر الفكر الثلاثة هو أهم سمات مدرسة الاسكندرية لا فى مجال الطب فحسب بل فى معظم العلوم كذلك ، ففى الكيمياء مثلا يصبح التساؤل : هل يمكن تحويل ما هو وضيع وخسيس الى جوهر نفيس * ، وبذلك استحالت الكيمياء الى سيمياء ، كما استحال الفلك من قبل الى تنجيم .

٣ ـ الفلسفة :

قامت الفلسفة فى الاسكندرية فى وقت لاحق على العلم، ربما فى أواسط القرن الثانى قبل الميلاد ، طبقت الفلسفة فى الاسكندرية بطابع العصر ويتمثل فى الملامح الآتية :

١ ــ فى عصور انحلال الحضارات يغلب طابع العودة الى القديم ــ كحنين الشيخ وذكرياته عن طفولته ــ وكان هذا القديم هو أفلاطون على وجه الخصوص وذلك لانه وخاصة فى محاورتى طيماوس وفيدون هو أفلاطون الالهى الذى يلائم تماما تفكير الشرق الروحى .

٢ ــ قامت الفلسفة فى العصر الهليستى على المزج والتوفيق ، مزج بين الشرق وأديانه وبين اليونان وفلسفته وكانت الغلبة للدين كما أسلفنا . كذلك الامر فى فلسفة

---

* فى السؤال جانب عملى أخلاق ، فيه أيضا جانب فلسفى يتصل بفكرة التجاذب والتنافر لدى أنبادوقليس ، فيه أيضا جانب غيبى اذ أن هذا التجاذب أو التنافر ليس فيزيقيا بقدر ما هو سحرى ، وذلك ما يسر أن تلتحق السيمياء بالتصوف وأن يشتغل بعض الصوفية المتأخرون فى الاسلام بفكرة تحويل المعادن الخسيسة كالرصاص أو النحاس الى معادن ثمينة كالفضة أو الذهب ، بل نجد أهم كتاب لذلك فى مدرسة الاسكندرية منسوبا الى بولوس المصرى وعنوانه الطبيعة والتصوف .

الإسكندرية ، إنه إذا كانت المعرفة الدينية تقوم على الوحى والإلهام فان منهج فلسفة الإسكندرية قائم على ذلك لا على منهج العقل والاستدلال .

٣ — ولما كانت النزعة التلفيقية المعبرة عن روح العصر حيث امتزاج الحضارات تعنى أن لا تمييز جوهرى بين الفرق والمذاهب ، فان قام إختلاف فان الأمر لابد فيه من تأويل .

هكذا تتضح معالم إتجاهين فى مدرسة الإسكندرية ، أما الاتجـــاه الأول فيتضح فى الغنوصية وأما الثانى فيتضح لدى فيلون اليهودى السكندرى .

أ — الغنوصية : لفظ غنوصية يعنى معرفة ، ويقصد بها نمط معين فى المعرفة لا يستند إلى العقل والاستدلال وإنما إلى الحدس والذوق من أجـل معرفة الله بواسطة الاتحاد به ، اتخذت الغنوصية عـدة مظاهر فى عصـور من الفـكر مختلفة ولكننا نكتفى بجانب منها يتصل بالمؤلفات الهرميسية * ، تدل هذه المؤلفات على مجموعة أقوال لا تتخذ طابع محاورات أفلاطون التى تستثير الفكر بمنهج سقراط القائم على التهكم والتوليد ، ولا طابع دروس أرسطو ، وإنما تفترض هــــذه النصوص فى السامع إستعدادا روحيا معينا من أجل التوجيه والارشاد والسمو الروحى — تماما كطابع الكتب الصوفية بالنسبة للمريدين ، تلقى هذه الأقـوال فى خلوة لا فى ندوة ، إذ أنها تعاليم سرية تتعلق بموضوع خلاص النفس الانسانية فى اتحادها بالإله ، ومن ثم فان الحكمة التى تلقى الى المريدين تدور حول موضوعين رئيسيين : النفس والله أو بمعنى آخر : كيف تعرف النفس ذاتها معرفة تمهـد إلى

* أصدر أول طبعة محققة من المؤلفات الهرميسية العالم الانجليزى سكوت عام ١٩٢٩ ثم فستوجيير الفرنسى عام ١٩٤٦ — راجع د. نجيب بلدى : تمهيـد لتاريخ مدرسـة الاسكندرية وفلسفتها ص ١٠٤ .

خلاصها ، ثم كيف تعرف الإله معرفة يتم بها خلاصها ؟ بصدد النفس هناك عادة تساؤلات أربعة : ما هى طبيعة النفس وما أصلها ؟ كيف حلت النفس فى الجسد؟ ما هو دورها فيه ؟ وما هو مصيرها بعد الحياة ؟ أما بصدد معرفتها بالاله فذلك انما يتم عن طريق معرفة تفوق الحس والعقل إنها طريق التصوف .

تشير المؤلفات الهرميسية الى أن النفس من جوهر علوى سام وأنها تخالف البدن فى طبيعته وأفعاله ، وأنها مستقلة تماما عنه ، وأن اتفقوا مع أفلاطون فى الفكرة فانهم يختلفون معه فى الأسلوب اذ يلجأون الى الأساطير لا الى منطق العقـــل ، تشير هذه الفلسفة الى وعى النفس التام بذاتها واستقلالها عن الجسم وشوقها الى الخلاص منه فى لحظات من الشطح أو الجذب ، وأنها ان هبطت الى الجسم فربما يرجع ذلك الى اثم ارتكبته فى عالمها العلوى اذ تطلعت الى معرفة سر الخليقـــة والاقتداء بالاله فى خلقه المخلوقات ، غير أن هبوطها كان أمرا لا مفر منه قدره الاله ، وفى ذلك حكمة من أجل خير البدن وذلك حتى يكون فى العالم المادى آثار علوية ، وذلك هو دورها ووظيفتها فى الحياة ، اصلاح البدن وهدايته ،أما مصيرها بعد الحياة فالعودة الى العالم الالهى مرة أخرى .

أما الاله فلا سبيل الى معرفته بالعقل ولا الى تقرير وصفه بصفة ايجابية لأن كل صفة انما تقربه من طبيعة جسمية ،ومن ثم فانه ينبغى الاعتراف بأنه لاسبيل الى معرفة الله بالعقل وإنما فان السبيل الوحيد الى تلك المعرفة تجربة روحية تخرج الانسان من طبيعته البشرية ومن مقولات العقل حتى يتحد بالاله ، وانما يفنى الانسان عن ذاته حينما يتحد الاله به ، حينئذ يولد ميلادا جديدا اذ بعث فيه الاله سرا جديدا .

هذه فلسفة يعبر سعي النفس فيها الى الخلاص والبعد عن الحياة عن حضارة

بشيخوختها وقرب الإحتضار ، وستصبح هذه الأفكار بدورها من أهم معالم فلسفة أفلوطين الذى يمثل الدور النهائى للعالم القديم .

ب - فيلون السكندرى (من ٣٠ ق. م - ٥٠ م)

لعب اليهود دوراً هاما فى حضارة العصر الهلينستى سواء فى مظهرها المادى أو الفكرى ، كان عددهم فى الإسكندرية يمثل خمس عدد سكان المدينة ، وقد أمكن أن يكون لهم وضع متميز بما منحوا من إمتيازات ، إذ كانت أهم فئات المدينة بعد اليونانيين وذلك بسبب نشاطهم التجارى الذى لا يجارى كعادتهم ، أما فى مجال الفكر فإنهم وإن إحتفظوا زمنا طويلا بمعتقداتهم بعيدة عن التأثير الهلينستى فقد كان عليهم سواء وفقا لمقتضيات معاشرتهم للطوائف الأخرى أو درءا لنقمة البطالمة عليهم حين يجدونهم يرفضون أنظمتهم ولغتهم ، كان عليهم أن يتصلوا بالفكر الإغريقى على نحو ما ، وكان ثمرة هذا الإتصال أهم انجاز دينى تم فى هذا العهد وهو ترجمة التوراة من العبرية الى اليونانية بإعتبارها لغة الثقافة فى هذا العصر ، وقد عكف على ذلك إثنان وسبعون من كبار أحبار اليهود حتى وصلت الينا أهم نسخة معتمدة للتوراة * وهى الترجمة السبعينية .

تمثل فلسفة فيلون أهم محاولة للتوفيق بين الدين اليهودى والفلسفة اليونانية ، وقد إستند فى فلسفته إلى التأويل الرمزى لقصص التوراة ، والتأويل الرمزى يهدف عادة إلى تجاوز ما هو محدود ومقصور من القصص على أحداث معينة فى زمن معين والتى تهم دينا معينا إلى ما يجاوز الحدود حتى يصلح للناس جميعا ،

---

* يشاع أن الملك بطليموس الثانى أحضر اثنين وسبعين حبرا يهوديا ومنع اتصال بعضهم ببعض ثم كلفهم بالترجمة فجاءت الترجمات كلها متطابقة تماما دون أدنى خلاف مما أضفى على هذه الترجمة قداسة خاصة إذ أنه كما لو كانت الترجمة بدورها قد تمت بوحى الهى .

فإن أشارت التوراة إلى نعم الله على بنى إسرائيل بطاعتهم له فذلك إشارة إلى قصة النفس مع الله تدنو منه بابتعادها عن الشهوه وتبتعد عنه بخضوعها للشهوة ، وإنما الخيرات الدنيوية الموعودة لشعب إسرائيل قد قصد بها خيرات روحية النفس الصالحة ، واجتماع شمل اليهود فى بلد واحد قد قصد به إجماع الفضائل فى النفس وتناسقها بعد ما تحدثه الرذيله من تشتت .

ثم هو يفسر العالم موفقا بين التوراة والفلسفة اليونانيه ، إذ خلق الله عقلا خالصا فى عالم المثل هو الإنسان المعقول ثم صنع على مثاله عقلا أقرب إلى الأرض هو آدم وأعطاه الحس المتمثل فى حواء معونه ضرورية له فطاوع العقل الحس وانقاد اللذة الممثلة فى الحية التى وسوست لآدم وهكذا (١)

هذان اتجاهان يعبران عن أهم فلسفة الإسكندرية وربما كانت الغنوصية والمؤلفات الهرميسية بعد أن إكتمل مسارها لدى أفلوطين أكثر تمثيلا الفكر الهليستى الذى اتخذ اسم الأفلاطونية المحدثة والذى سيكون له تأثير قوى سواء فى الفكر الإسلامى أو المسيحى .

---

(١) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ص ٢٥٠

الفصل الرابع

العلوم والآداب

ان الاسهام بجديد فى العلم لهو أعظم قيمة للانسانية
من حصار مدينة أو الدفاع عنها *

ول ديورانت

العلوم:

شهد القرن الخامس قبل الميلاد ذروة مجد الآداب ، وشهد القرن الرابع إزدهار الفلسفة ، أما القرن الثالث فقد شهد مجد العلم (1) ، إذ أن ما أنجز فيه يفوق كل ما أنجزته العقلية الإغريقية فى قرون .

ثمة أكثر من تساؤل لا بد أن يثار : كيف تسنى هذا التقدم العلمى فى عصر تتدهور فيه الحضارة ؟ وكيف تسنى لبعض العلوم أن تستقل عن الفلسفة وقد كانت على حد تعبير تارن(2) الربة التى دأب اليونانيون على تقديم القرابين لها لا إلى العلم ؟

انه من التجنى على الديمقراطية ما قاله ديورانت : إن الملوك كانوا أكثر من

---

* مناسبة هذه العبارة : بعد أن استولى الرومان على مدينة سيراكوزه بعد أن عجزوا عن ذلك ثلاث سنين بسبب اختراعات أرشميدس أمر القائد الرومانى أن يحضر له أرشميدس وأن لا يمس بأذى . ولكن الجندى الرومانى الذى قابله وجده منهمكا بدراسة أشكال رسمها على الرمل فلما أمره أن يصحبه الى الحاكم رفض أرشميدس حتى يفرغ من حل المسألة التى كان منهمكا فيها مما أثار عليه الجندى فقتله وحزن عليه القائد الرومانى وأقام له مقبرة فخمة

(1) ول ديورانت : قصة الحضارة مجلد 2 ج3 ص 137

(2) تارن : الحضارة الهلينستية ص 322

الديمقراطيات تساعا فى البحث العلمى ، حقيقة لقد كانوا أكثر تشجيعاً له من الحكم الديمقراطى ، ولكن الأمر بصدد تقدم العلم لا يتصل بأسلوب الحكم ديمقراطيا أو دكتاتوريا ، وحقيقة لقد تقدمت الفلسفة فى ظل حكم ديمقراطى بينما تقدم العلم فى ظل حكم ملكى ، وتفسير ذلك أن الفلسفة لا تقتضى غير فكر متحـــرر ثم مبنى بسيط حتى ولو كان سقيفة كسقيفة الرواقية ، بل ربما لا يحتاج الى مبنى وقد كانت فلسفة سقراط فى الطرقات والأسواق ، أما العلم فيلزمه أدوات بحـــث وأجهزة ومراصد ومعامل ومتاحف تحوى مئات الأنواع من الحيوانات والنباتات مما لا يقدر على اقتنائه الأفراد ، وما كان يمكن لأرسطو أن يجمع ما جمع من حيوان وأعشاب لولا معونة الاسكندر ، أقول ان وسائل العلم وأجهزته لا تقدر عليها غير الحكومات الثرية .

ومن ناحية أخرى فان العلم لا يتصل بذلك النمط من التفكير الحر الذى يأباه الحكام كما هو حال الفلسفة ، على العكس فان تشجيع العلم بما يقتضيه هذا التشجيع من إنشاء متاحف واقامة مكتبات وجامعات وقدوم علماء من كل فج للدراسة والبحث والتدريس انما هو من مظاهر الفخامة واستعراض الثروة * تمامـــا كالمبانى الفخمة التى ترضى غرور الملوك أو كبرياء الأثرياء الذين يقتنون فى قصورهم مكتبات دون أن يعنيهم العلم فى قليل أو كثير وانما قد يفيد منها باحثون وعلماء.

أما استقلال العلم عن الفلسفة فذلك لا مفر منه مادام العلم يزدهر والفلسفة تدهور ، اذ أصبح من المتعذر أن تظل الفلسفة حاضنة للعلم فأسلمت، بعض العلوم الى الدين والتفكير الغيبى وتركت البعض الآخر يستقل .

ولقد تجمعت عدة عوامل لازدهار العلم كقيام مؤسسات علمية حكومية أشبه

* وقد يكون تشجيع البطالمة للعلم تعويضا عن قهر الفلسفة

بالجامعات ، ودور الكتب والمتاحف والمراصد الفلكية،ووجود لغة عالمية مشتركة الثقافة وتبادل الكتب بين المكتبات العامة وانتقال العلماء الى مراكز البحث والمكتبات وذلك كله فى ظل تشجيع الملوك وثراء الدولة ، ولا يعيب العلماء أن يعيشوا فى كنف الحكام أو الأمراء أو أن يقيموا فى مراكز علمية على نفقة الدولة وان كان ذلك مما يعيب الفلسفة كل العيب ان لم يكن مفضيا بها الى الهلاك ، فما كان سببا لإزدهار العلم فى العالم القديم كان هو نفسه سببا أفضى بالفلسفة الى التدهور .

نشير فى ايجاز الى أهم علماء العصر الهلينستى الذين خلد بعضهم اسمه خلال العصور :

١ ـ اقليدس :

من علماء القرن الثالث ، عاش فى الاسكندرية وعلم فى مدرستها ، يعد أشهر علماء الهندسة خلال العصور ، اذ لا يعرف كتاب فى العلم ظل يدرس فى المدارس خلال العصور منذ تأليفه حتى عصرنا الحاضر * شرقا وغربا الا كتاب «الأصول» فى الهندسة لاقليدس ، يقع الكتاب فى ثلاث عشرة مقالة رتبت فيها نظريات الهندسة ترتيبا منطقيا محكما يبدأ بأوليات الهندسة من تعريفات ثم خمس مصـــادرات أو مسلمات وخمس بديهيات ثم النظريات ، وقد اقتصر على الأشكال التى لا تحتاج الى آلات غير المسطرة والفرجار معبرا فى ذلك عن طبيعة العقلية الاغريقيـــة التى تلائمها الهندسة حيث لا استخدام لأجهزة أو آلات .

٢ ـ ابولونيوس :

تابع عمل اقليدس فى الهندسة ، فألف فى المخروطات وخواص المنحنيات التى

---

* الى أن اكتشفت الرياضيات الحديثة ودرست فى المدارس

ناشئاً عن تقاطع مخروط مع سطح مستو ، يسرت نظرياته إكتشاف نظرية القذائف وكانت من عوامل تقدم الميكانيكا والفلك والملاحة ، ولا تزال لبعض مؤلفاته قيمتها العلمية إلى اليوم .

٣ ـ أرشميدس :

أعظم علماء العالم القديم وهو وان كان من سيراكوزه فقد درس بالإسكندرية ثم عاد إلى بلدته ليهب حياته للعلوم الرياضية ، ربما ترجع شهرته على مدى العصور إلى وقائع ثلاث فضلا عن إكتشافاته وإبتكاراته :

١ ـ ظروف إكتشافه لقانون الأجسام الطافية * وطريقة تقدير الثقل النوعي للأجسام وقاعدته المشهورة أن الجسم الطافي يفقد من وزنه ما يساوي وزن الماء الذي يزيحه .

٢ ـ عجز روما عن الإستيلاء على سيراكوزه على مدى ثلاث سنين بسبب إختراعاته ، إذ أقام خلف الأسوار التي تحمي الميناء منجنيقات تقوى على قذف الحجارة الثقيلة مسافات بعيدة أغرقت السفن وكذلك رافعات مسلحة بخطاطيف تمسك السفن وترفعها في الهواء وتقذف بها في الصخور ، وهكذا عجزت جيوش روما أمام رجل واحد .

٣ ـ أنه حين قال عبارته الشهيرة لملك سيراكوزة : أعطني مكانا أثبت فيه قدمي خارج الأرض أحرك لك الأرض كلها ، ولم يصدقه الملك إستطاع بمفرده مستخدما بكرات أن يحرك سفينة كبيرة من سفن الأسطول .

---

* الواقعة أشهر من أن تروى حين طلب منه الملك أن يختبر تاجا ليعرف عما لذا كان من الذهب الخالص أو أن الصائغ قد غشه بمعادن أخرى وكيف اكتشف قاعدته فجأة وهو في الحمام فخرج عاريا يصيح : وجدتها وجدتها (يوريكا يوريكا) .

ومع ذلك فإن هذا العالم المخترع لم يكن شغوفا بالتجارب والعمل شغفه بالاستنباط والنظر ، إذ كان يحتقر أن يتخذ العلم وسيلة العمل أو النفع ،أما تجاربه العمليه فقد كان يرى أنها وسيلة من أجل إستقصاء البحث فى الهندسة النظرية وأن التجارب العملية إنما تجرى فقط من أجل فهم النظريات ، فالعمل وسيلة النظر وليس العكس المتبع فى عصرنا الحديث ، وهكذا لم يكن أرشميدس مع كل تجاربه التى تجعل الكثيرين يظنون أنه عالم فى الطبيعة التجريبية شاذا بالنسبة لطبيعة الإغريق ، ومن ثم فان روح الإختراع لم تدم بعده لدى من خلفوه من علماء الإغريق .

أما أهم إكتشافاته العملية فايجاده النسبة التقريبية (العلاقة بين محيط الدائرة وقطرها) ونظرياته فى اللولبيات أو الأشكال التى يحدثها تحرك جسم من نقطة معينة بسرعة منتظمة فى خط مستقيم يدور فى سطح مستو بسرعة منتظمة وقانون الطفو ، فضلا عما أدخله من تعديل أدى إلى تحسين اللولب المائى (الطنبور) الذى عرفه قدماء المصريين وكانوا يستخدمونه لرفع الماء من أسفل إلى أعلى .

٤ اوستارخوس :

كان فلكيا نسب اليه القول بمركزية الشمس لا الأرض مع أن رسالته فى حجم الشمس والقمر وبعديها لا تشير إلى ذلك ، قدر حجم الشمس قدر حجم الأرض ثلاثمائة مرة * ولم يكن الأقدمون يتصورون ذلك ، فان صح أنه قال بمركزية الشمس فذلك نتيجة تقديره لكبر حجم الشمس بالنسبة للارض ، كذلك قدر بعد الشمس عن الأرض قدر بعدها عن القمر عشرين مرة**

---

* الحقيقة أن الشمس أكبر من الأرض أكثر من مليون مرة

** والصحيح أنها أربعمائة مرة   راجع ول ديورانت : قصة الحضارة مجلد ٢ جزء ٢ ص ١٠٦

الاداب :

كانت الآداب أكثر تعبيرا من العلوم عن سمات حضارة مآ لها إلى الإضمحلال ، فحين ينضب معين الإلهام المبدع فى حضارة ما فإنه من الطبيعى أن يتجه مفكرو العصر إلى القديم ، لقد عجزوا عن أن يأتوا بمثله فما عليهم إلا أن يجمعوه ويحفظوه ويصنفوه ويقدموا الشروح عليه والتعليقات والمختصرات ، وليس ذلك بغير ذى قيمة ، حقيقة أنه ليس عملا مبتكرا أصيلا ، ولكنهم بذلك حفظوا أصولا لماقيمتها من الضياع ، بل أنه بقيت لنا مؤلفات من التراث العالمى على النحو الذى صنفه وهذبه وشرحه أدباء ذلك العصر ،نذكر على سبيل المثال الصورة التى وصلتنا عن ملحمتى الإلياذة والأوديسه .

وحين تضمحل حضارة يميل الناس إلى ماهو سهل وسطحى وخفيف ،كذلك كان أمر المسرحيات ،إذ جنحت إلى ما يرضى العاطفة ولا يثير الفكر ، لم يعد الناس يطيقون الأفكار الفلسفية حين يتسلون،ثم هم بدورهم عازفون عن المآسى -تكفيهم مآسى الحياة - ومن ثم تسود الكوميديا وتتدهور التراجيديا ، ثم هم فيما يشهدون على المسارح لا يهتمون بموضوع المسرحية بقدر ما يثير إعجابهم طريقة أداء للممثلين ، وفى ظل الحكم المطلق لا تشير المسرحيات إلى الموضوعات السياسية ، وإنما إلى الحياة الإجتماعية، يقول ول ديورانت كانت الشخصيات التى تمثل باستمرار هى الأب القاسى - الإبن المتلاف - الوارثة التى يظنها الناس فقيرة - الانتهازى - الطفيلى - العشيقة ... الخ .

وفى ظل الحكم المطلق تضمحل الخطابة، إذ لم يعد للناس الحق فى أن يتناقشوا فى شئون الحكم على أن العصر الهليستى سمة هامه فى الآداب لازمة عن امتزاج الحضارات، فحين أصبحت اللغة اليونانية لغة عالمية مشتركة لمختلف الشعوب والأجناس، وحين أصبح يتكلم بها ويكتب أناس من غير اليونانيين، كان لابد أن يحدث لحن فى اللغة الأمر الذى اقتضى اهتمام بالدراسات اللغوية والنحوية وتصنيف المعاجم التى تبين الاستخدام الصحيح للالفاظ والتعبيرات والمصطلحات .

خاتمة

١

انتقل تراث الإغريق إلى روما ، حتى أصبح كل إمتداد لسلطة الرومان السياسية هو انتشار الفكر الإغريقي، وأضحت الحضارة رومانية السياسة والتشريع إغريقية الفكر والثقافة، وحفظت الاسكندرية معالم تراث اليونان، ثم بلغ الامتزاج الفكرى بين الشرق والغرب مداه فى ظل الدولة الرومانية الشرقية ، ونقل السريان فكر اليونان الى لغتهم قبل الاسلام ثم الى اللغة العربية بعد الاسلام ، فلعب دورا هاما خاصة فى الفلسفة ، وكما لعب السريان المسيحيون دورا هاما فى نقل التراث الاغريقى من اليونانيه إلى العربية ، لعب اليهود فى المغرب والأندلس نفس الدور فى نقله من العربية الى اللاتينية ليكون شعل النهضة الأوروبيه ولتسرى الروح الاغريقية فى العقل الأوربى، فالحضارة الأوربية يشكلها على حد تعبير توينبى مقومان فكر الاغريق وعقيدة العبرانيين ، فما من شىء فى الفكر الأوربى الحديث الا ويمكن أن يتصل على نحو ما بتراث اليونان ، فالحضارة الأوربية ليست فحسب مدينة لحضارة الاغريق بل انها تنتسب بالبنوة اليها، ومن شابه أباه فما ظلم: المذهب الانسانى حيث يصبح الانسان موضوع الفكر فى كل من الأدب والمسرح والفن، النزعة الفردية بخيرها وشرها ، خيرها حين تنجب الديمقراطيه وشرها حين تنجب الرأسمالية ، الطابع العلمانى واستبعاد الدين عن شتى مظاهر الفكر وان جاء منذ عصر النهضة رد فعل لسيطرة الكنيسة ، فانما كان خلال العصور الوسطى صفة كامنة موروثة من اليونان وكان لا بد لها أن تظهر وأن تسود ، كل هذه ملامح رئيسية ومعالم أساسية فى الحضارة الأوربية الحديثة وهى موروثه كلها من حضارة الاغريق .

فإن ولجنا قليلا فى التفصيلات فإنه يمكن القول إن اليونان قد علمت الغرب وربما العالم أجمع النظام الديمقراطى، بل إن المصطلحات الخاصة بالأنظمة السياسية كالديمقراطية والدكتاتورية والأوليغركية والديماجوجية كلها أسماء يونانية وكانت بطبيعة الحال أسماء على مسميات أو أنظمة يونانية ، واليونان قد علمت الغرب وربما العالم أجمع الفكر العلمى إلى حد يمكن القول معه إن كل المذاهب الفلسفية من بعدهم إما أن تميل إلى أحد القطبين : مثالية أفلاطون أو واقعية أرسطو أو تتأرجح بين بين ، وابتدع اليونان المنطق لنفس السبب الذى جعلهم يبتدعون التماثيل التى بلغت ذروة الجمال والتناسق والوحدة والتناسب ، فينبوعا الفن والمنطق من الروح الاغريقية مشترك ، وتكثر فى اللغات الأوربية على اختلافها مصطلحات يونانية جعلت من هذه اللغات على اختلاف أصولها شيئا مشتركا بينها ،والمسرح فى كل سماته وأسمائه إنما هو مأخوذ تماما من الاغريق ، والألعاب الرياضية والدورات الأولمبية هى بدورها إرث من تراث الاغريق وحضارتهم .

وثمة قبل ذلك كله أو بعد ذلك كله إرث جليل وَخطير،فإن العقيدة اليونانية عقيدة ديونيسيوس والمأخوذة عن الأورفية والتى لها نظير فى الأوزوريسية المصرية والقائلة بقتل الابن المقدس من أجل خير البشرية وفدائها ثم بعثه من بين الموتى ، فضلا عن نظريات اليونانيين منذ هيرقليطس إلى الرواقيين فى الكلمة — أو اللوجوس — كل ذلك قد وجد سبيله إلى عقيدة المسيحيين إلى حد يمكن القول معه الى أنه ما كان يمكن للغرب أن يعتنق المسيحية على الصورة التى اعتنقها لو لم تحمل فى طياتها بذور يونانية *

---

* ولو ظلت المسيحية شرقية خالصة كما نشأت فى أورشليم لظلت قوة الطرد فى الروح الاوربية الغربية للمسيحية أقوى من عامل القبول ودور كنيسة الاسكندرية اليونانية فى تشكيل العقيدة

٢

بعد هذه الجولة مع حضارة الإغريق نعود إلى السؤال : كيف تقوم الحضارة وهل لابد لكل حضارة من انهيار كأنه أجل محتوم ؟ وماذا فى حضارة الإغريق مما يصلح لسائر الحضارات ؟ وماذا يمكن أن يعد خاصا بالروح الإغريقية لا يصلح لسواها ؟

أما السؤال الأول : كيف تقوم الحضارة ؟ فالإجابة عليه هو نفس ما قاله هيجل : إذا ما قدر لأمة أداء دورها فى التاريخ لتتصدر مسرح الأحداث تلاشت الهوة بين الإمكانيات المعبرة عن الوجود بالقوة وبين الواقع الموضوعى المعبر عن الوجود بالفعل ، ذلك أن الحضارات كالأفراد يصل الفرد إلى النبوغ إن أمكنه أن يستثمر موهبته الفرديه إلى حد يبلغ به درجة النبوغ ، ولقد كان للاغريق مواهب أو إمكانيات : أولها : تلك النزعة الفردية التى أثمرت الحوار وأثمرت الديمقراطية مع الحوار ، تلك النزعة التى جعلتهم لا يتصورون حكم الفرد ويعدونه شيئا قاتلا المدينة ولأهاليها ، فمدينة بلا حوار ليست مدينة ، أدرك تلك الموهبة فيهم مشرعون ومصلحون من أمثال صولون وبيركليس ، وهكذا تكون الزعامة الأصيلة . تستكشف الموهبة الكامنة فى روح الأمة وتفجر الطاقة الكامنة فيها فتكون نهضة ويكون إزدهار ، وهكذا كان صولون وبيركليس حتى أصبحت أثينا بحق مدرسة لكل بلاد الإغريق وأنجبت عباقرة الرجال .

وإذا كانت الأشياء تعرف بأضدادها فإن المقارنة بين أثينا وإسبرطه خير

= المسيحية معروف ، ولقد كان المذهب الملكانى أقرب الى طبيعة الأوربيين لأنه يحمل بذور يونانية وكان مذهب النساطره أبعد عن طبيعته لأنه شرقى خالص فاعتنق الأول واضطهد الثانى .

شاهد على ذلك ، هدمت إسبرطه كل حضارة فى ظل نظام عسكرى لم يفلح إلا فى أن يخمد فى المواطنين نزعتهم الفردية ، ثم خمدت هذه النزعة عقب فتوح الاسكندر فكان ذلك نذيراً بانهيار الحضارة .

وثانى تلك المواهب هى النزعة الإنسانية أى أن يصبح الإنسان موضوع كل ثقافة وفكر ، وكان المسرح وليد تلك النزعة ، كذلك كان الفن ، وما فلسفة السوفسطائيين إلا مظهر لها ، والنزعة الإنسانية خيرها وشرها، خيرها فيما أنتجت من ألوان من الفكر والأدب والفن، وشرها حين تمس مسائل الدين فيصبح الآلهة على شاكلة البشر حتى فى مساوئهم ، لا يثيرون إجلالاً ولا يبعث الدين فى النفس أدنى قداسة ، ومن ثم لا يكون للدين دوره فى تشكيل القيم والسلوك كما كان حال أديان الشرق ، وبذلك أصبح الدين أضعف جوانب حضارة الإغريق ، ومن مكمن هذا الضعف كان انهيار الحضارة : وإذا كانت هناك أخلاق بقدر ما هنالك من حضارات فقد قدر لنزعات ربط الأخلاق بالدين ألا تجد استجابة ، بينما قدر لرأى أرسطو فى فصل الأخلاق عن الميتافيزيقا أن يسود ، وحين اهتزت القيم بعد عصر من المتغيرات وجد الإغريق أنفسهم وقد تعروا من كل ما يواجه به الإنسان أعاصير الحياة فقامت فلسفات أخلاقية تقدم أنواعا من الأدوية هى أقرب إلى التخدير منها إلى العلاج الذى يقضى على الداء أو يبرىء المريض .

وثالث تلك المواهب تلك النزعة النظرية التأملية وقد كان لهذه بدورها خيرها وشرها ، كان خيرها حين انتجت هندسة وأنجبت فلسفة، وكان شرها حين جعلت للفلسفة وصاية على شتى مظاهر الفكر فتأخر العلم الطبيعى نظراً لإحتقار الإغريق التجربة والعمل ، بل بلغ تقديرهم للتأمل وإحتقارهم للعمل إلى حد أن أصبح التأمل فضيلة تفوق الفضائل الخلقية العملية .

وإذا كان الإغريق قد فصلوا بين الأخلاق والدين فإنهم كذلك قد فصلوا بين الأخلاق والجمال ، إذ عدوا الأخلاق شيئا غريبا عن الفن ، فليس من هدف الفنان إلا الجمال وإثارة المتعة الفنية ، وليس من أهداف الشعر أو المسرح أو الفن أن يجعل المواطنين أفضل ، قضية غريبة ضاع فيها صوت أفلاطون، وأصبحت بعض مظاهر الفكر تهدم ما تقوم به مظاهر أخرى ، وحين يجرد الفن عن سياج الأخلاق فذلك يعني أن آفة كالسوس تنخر في الحضارة .

أما السؤال الثاني : هل لا بد لكل حضارة من إنهيار كأنه أجل محتوم؟ والرد باختصار : حتى لو كانت الإجابة بنعم فإن الحضارات تموت انتحارا ولا تموت قضاء وقدرا ، وذلك يعني أنه إن صح أن يموت إنسان في ريعان شبابه وفرط صحته وقوته قضاء وقدرا فلا مجال لذلك في الحضارات ، وانما يكون الإنسان أحيانا أخرى أحق يهدم بيته ويتلف صحته ، ولقد كان الإغريق كذلك في ظل تلك الحروب الأهلية بين المدن ، فما من مدينة تريد لغيرها أن تتفوق أو تسود وذلك يعني أن تضعف المدن جميعا أو أن تتمكن إحداها من فرض سيادتها كما حدث من مقدونية، وكان ذلك يعني أن الروح الإغريقية قد فقدت أهم مقوماتها إذ فقدت مع الوحدة الحرية .

وهناك أسباب أخرى تفعل فعلها في الإنهيار ، وذلك حين تكره روح حضارة على غير طبعها، وقد كان ذلك حين هبت متغيرات العصر الهلينستي عقب فتوحات الإسكندر التي حملت الى الإغريق مما لا طاقة لهم به ، اذ فتحت هذه الفتوحات عليهم نافذة على الشرق هبت منها أعاصير عاتية عجزت الروح الاغريقية أن تواجهها ، وحين تصارعت فلسفة الإغريق مع دين الشرق كانت الهزيمة للفلسفة ، وظل هذا التردي من الفلسفة أمام الدين حتى بلغ مداه بظهور المسيحية ، ودان الغرب بديانة من الشرق .

عاملان إذن يحتمان انهيار الحضارات :

١ — عامل الانتحار بالحروب سواء أهلية داخلية أم قومية خارجية .

٢ — عامل عجز الروح عن أن تتكيف مع المتغيرات السريعة التى تأتيها وتواجهها من حيث لا تحتسب ، والأيام دول ، فلم يمكن لروح دولة المدينة أن تصمد فى عصر الدول العالمية ، كان الاغريق فى مدينته كعمدة فى قريته فإذا به يجد نفسه فجأة فى عاصمة كبرى غريبا لا يعرف أحداً ولا يعرفه أحد ولا يعيره أحد اهتماما فشعر بالضياع تطحنه المدينة العالمية فى دوامة حياتها التى لم يعتدها .

وأما السؤال الثالث هو : هل كل ما أنتجته عبقرية الاغريق صالح لسائر الحضارات تنهل منها ما إستطاعت كى تصل إلى ما وصلته حضارة الاغـــريق يوما ما ؟ والاجابة : لحضارة الاغريق مظاهر وخصائص تخصها ومن ثم فإن الاقتباس منها يعد نوعا من التقليد الذى يجعل من الحضارة المقتبسه إمعه لا إلى أولئك ولا إلى هؤلاء ، عبقرية الاغريق مرتبطة مثلا بنظام دولة المدينة ، وهو نظام محلى لا يعنى إطلاقا أن الطاقات الكامنة لا تتفجر أو أن العبقرية لا تظهر إلا فى نظام دولة المدينة ، نظـرة الاغريق إلى الرق حتى وإن لعب دورا فى تمكين المواطنين الأحرار من التفرغ إلى التفكير لا يعنى أن يستباح الرق ،ثلاثة أمور قد أخذت عن الاغريق فى رأيى خطأ بينا هى تمنيهم وحدهم وهى متعارضة تماما مع روح حضارات الشرق قديما أو حديثا : الأمر الأول هو الفصـــل بين الأخلاق والدين ، والأمر الثانى هو الفصل بين الأخلاق والجمال ولقد اتخذ نقاد الأدب والفن قضية الفن للفن وأن الفن لا يهدف إلا الجمال وأنه لا ينبغى أن يفرض عليه شىء من الأخلاق كأنها الحق الذى لا يقبل الشك ، يرتبط بذلك فى الفن ابتداع الاغريق فى النحت وصناعة التماثيل لفكرة « المايسكان » وتصـوير

الأجسام العارية ، إن مقارنة خاطفة بين تماثيل إغريقية وأخرى مصرية تدل على إختلاف روح الحضارتين ، بين الجمال الحسى العارى لدى الإغريق وبين الجمال الروحى القائم على تصورات دينية والذى يعرف معنى الاحتشام ،والأمر الثالث أن الدين هو أضعف جوانب حضارة الاغريق ومن ثم فإن إقتباس شىء من إلهيات الاغريق أو بالأحرى فلسفتهم الميتافيزيقية والتوفيق بينها وبين الدين فى حضارة يعد الدين أقوى مقوماتها كحضارة الاسلام هوخطأ يماثل خطأ من أراد أن يحسن نسل إناث حيواناته فالتمس لها العجاف الهزيل من الذكور .

فى الحضارة الاغريقية جوانب عالمية هى تراث للانسانية فى كل زمان ومكان بدءا بالرياضة أقصد الألعاب الرياضية والدورات الأولمبية وإنتهاء بالرياضة المتمثلة فى الهندسة قمة العبقرية الاغريقية فى العلم ، ذلك تراث عام لا حرج على المفكرين أن ينهلوا منه ما شاءوا إذ ليست هناك هندسة إغريقية وهندسة مصرية حتى وإن تسمت باسم هندسة إقليدس ، وانما هناك مسرح يونانى يعرض على أنه تراث الاغريق لا على أنه ملزم لنا فى الوجدان ، وإنه لمن السخف أن نقتدى بهم فى مسرحهم فنعرض ونعرّض بالآلهة على المسرح أو أن نخدع وجداننا بالظن أن القدر شىء مسلط على الانسان يكرهه على الشر ويتتبع الانسان بالكوارث مهما سعى إلى الخير أو الخلاص ، أما الفلسفة فهى شىء بين بين ، بين كونها يونانية الاسم وبين كونها عالمية الفكر ، على أن الخطأ كل الخطأ أن تقحم على عقائد تمس الدين ، وإنه لمن العجب أن يدع مسلم تصوره السامى لله ليرى أن الله مجرد محرك أول لم يخلق العالم ولا يهمه العالم فى شىء وإنما مجرد أن يتجه العالم اليه إتجاه معشوق إلى عاشق ، ولقد كان خطأ فلاسفة الاسلام أن أخذوا من الهيات اليونان وخاصة أفلوطين ما كان ينبغى لهم أن يعرضوا عنه إذ لزمت عن ذلك نظرياتهم التى على حد تعبير ابن رشد قد أضاعت هيبة الفلاسفة كنظرية الفيض، ولا تغنى عن ذلك

دعوى التوفيق بين الدين والفلسفة ، إذ ما فرط الدين فى شىء حتى يلزمه أن يستكمل بالفلسفة ، وخطأ فلاسفة الاسلام مرة أخرى حين أعرضوا عما كان ينبغى أن ينهلوا منه ، ولقد كانت السياسة تمثل ذروة ما وصل اليه الفكر الاغريقى فى مجال الفلسفة ، ولا زالت لنظريات أرسطو السياسية قيمتها الى اليوم ، وأنهم لو فعلوا ذلك لأثروا الفكر السياسى الاسلامى الذى يعد فى نظرى أضعف جوانب فكر المسلمين .

وانما تتعثر الحضارات لأن المفكرين فيها لا يستطيعون أن يستشفوا روح حضارتهم وروح كل من سائر الحضارات ، فلا يعرفون تفرقة ولا يدركون تمييزا بين ما يصح أن يقتبس منه وما يلزم الإعراض عنه ، ما يصح أن يؤخذ منه لانه أرث أو تراث الانسانية جمعاء وما ينبغى أن يترك لأنه خاصية عليه خاصة لحضارة معينة ، وتلك هى آفة مصر منذ سعت الى النهضة منذ أكثر من قرن ونصف بالنسبة لحضارة الغرب .

نقطة البدء اذن فى كل نهضة أن يستشف المفكرون وقادة الرأى روح حضارتهم ومواهبها الكامنة وأن يفجروا الطاقات الخلاقة فى الأمة ثم أن تكون لهم من البصيرة النافذة ما يمكنهم من تمييز ما يحسن أن يؤخذ من مظاهر الحضارات الأخرى وما ينبغى أن يترك ، بذلك يمكن الافادة من التاريخ والاستفادة من دراسة الحضارات .

والله ولى التوفيق .

المراجـــع والفهرس

المـــراجع

أولا : المراجع العربية :

١ ـــ ابن رشـــد : تلخيص كتاب أرسطو طاليس فى الشعر مقدمة بقلم الدكتور محمد سليم سالم

٢ ـــ ديورانت (ول) : ترجمة محمد بدران : قصة الحضارة المجلد الثانى أجزاء ثلاثة ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية ١٩٥٥

٣ ـــ سارتون (جورج) ترجمة نخبة من الأساتذة : تاريخ العلم

٤ ـــ العبادى (دكتور مصطفى) : مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربى ، ١٩٧٠ مكتبة الأنجلو المصرية

٥ ـ عوض (دكتور لويس) : المسرح العالمى من أسخيلوس إلى آرترميلر دار المعارف

٦ ـــ خلاف (دكتور محمد) : الأدب الهلينستى الجزء الأول ١٩٥٢ دار إحياء الكتب العربية

٧ ـ كرم (يوسف) : تاريخ الفلسفة اليونانية دار المعارف ١٩٤٦

٨ ـــ المسلمى (دكتور عبدالله) : يوروبيدس منشورات جيل ورسالة ليبيا

٩ ـــ مطر (دكتور أميرة حلمى) : فى فلسفة الجمال من أفلاطون إلى سارتر

١٠ ـــ ممفورد (لويس) إشراف ومراجعة الدكتور ابراهيم نصحى: المدينة على مر العصور جزءان

ثانيا : المراجع الأجنبية :

1 — Aristotle : Constitution of Athens

وقد ترجمه إلى العربية الدكتور طه حسين تحت عنوان نظام الأثينيين
دار المعارف

2 — G. W. Botsford & E. G. Sihler : Hellenic Givilization Colombia University.

3 — Y. B. Bury : History of Creece

4 — V. G. Childe : The dawn of European Civilization

5 — V. Ebrenbery : Sophocles and Pericles

6 — The people of Aristophanes

7 — From Solon to Socrates

8 — The Greek State

9 — M. J. Fimley : The Origins of Greek Civilization

10 — N. G. L. Hammond : A History of Greece

11 — G. W. F. Hegel : The Philosophy of History Trans. by Y Sibree

12 — G. Myrray : The Rise of the Greek Epic

13 — : Five Stages of Greek Religion

14 — W. Yaeger Paideia : The ideals of Greek Culture 3 Vols Oxford University Press

15 — S. Piggott : The dawn of Ciuilization

16 — B. Russell : History of Western Philosophy

17 — W. W. Tarn : Hellenistic Civilzation

وقد ترجمه إلى العربية عبد العزيز توفيق جاويد وراجعه زكى على
تحت عنوان : الحضارة الهلينستية مكتبة الأنجلو ١٩٦٦

18 — E. Zeller : Outlines of the history of Greek Philosophy

الفهرس

مطبعة الوادى

٤ شارع ابن زنكى أمام ٢٢ — ت ٨٠٨٩٧١